المسلمون في المغرب والأندلس

دكتور

محمد محمد زيتون

١٤١١هـ - ١٩٩٠م



المسلمون في المغرب والأندلس

دكتور
محمد محمد زيتون

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

وبعـــد

فهذه دراسة أردت بها بيان حال المسلمين فى المغرب والأندلس فى الفترة المبكرة من تاريخهم المديد . وكيف استطاعوا أن يقيموا دولة للإسلام فى هذه البلاد ويبلغوا دعوتهم وينشروا رسالتهم ويبنوا حضارتهم الزاهرة ؟ . مع توجيه جهد خاص لإلقاء الضوء على ما يثار حول بعض الشخصيات الإسلامية للتقليل من مكانتها أو النيل منها . ثم توضيح المواقف الفاصلة ومحاولة بيان الدوافع إليها والنتائج التى ترتبت عليها . حتى يتسنى لنا تخليص التاريخ الاسلامى فى هذه الفترة من الترهات والأقاصيص والدعاوى الكاذبة التى ألصقت به مما يوجه إلى المسلمين عامة وإلى قوادهم العظام أو إلى الأهداف التى دفعتهم للوصول إلى هذه البلاد .

ثم إن هناك أمرا يتعلق بدراسة تاريخ المسلمين فى الأندلس وذلك أن هذا التاريخ كان له جانب مضىء ومؤثر فى الحضارة الانسانية عامة وفى النهضة الأوربية الحاضرة بوجة خاص ، ومع ذلك لايذكر من هذا الفضل إلا النذر اليسير .

والأمر الثانى : هو محاولة تقصى حقيقة الوضع الذى أدى إلى خروج المسلمين من الأندلس وعودتها إلى أحضان المسيحية وحمل أهلها على التنصر .

وذلك أيضا أمر مهم وخطير . ومن الواجب على المسلمين أن يعرفوا الدوافع والأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة المؤلمة لأنه مازال وسيظل هناك أقطار أو أقليات إسلامية تتعرض أو قد تتعرض لمثل هذا الموقف المحزن ، ومن الواجب على المسلمين تجاه أنفسهم وتجاه أبنائهم وأحفادهم وأجيالهم القادمة أن يأخذوا حذرهم من مثل هذا المصير الحزين . وما ذلك إلا بالوقوف على ما حدث فى الأندلس حتى يأخذوا حذرهم ويحصنوا أنفسهم ضد ما يحدث لبعض الأقليات المسلمة وربما يحدث فى أقليات أخرى، ثم عليهم أن يتخذوا الوسائل والمقومات المضادة للوقوف فى وجه هذه المحاولات ووأدها فى مهدها . وسنقصر الحديث فى هذا الجزء عن المغرب على فتح أفريقية وعصر الولاة من بنى أمية وبنى العباس وعصر الأغالبة وعن فتح الأندلس : على فتح الأندلس وعصر الولاة وقيام الدولة الأموية إلى عهد عبد الرحمن الناصر .

والله الموفق والهادى إلى سواء الصراط

مدينة نصر رجب سنة ١٤٠٣ هـ مايو سنة ١٩٨٣ م

دكتور / محمد زيتون

تمهيـــد

معنى لفظ إفريقية والمغرب وحدودهما

سمى الساحل الشمالى من قارة إفريقيا منذ القدم عدا مصر بأسماء مختلفة فكان هيرودوت يطلق لفظ أفريقيا على كل ما يلى مصر غربا من البلاد حتى المحيط الأطلسى . وعندما تغلب الرومان على الفينيقيين أطلقو اسم إفريقيا على قرطاجنة وما حولها وهى (بلاد تونس الحالية) ثم أطلقوا على ما يليها غربا اسم نوميديا (الجزائر الحالية) وأطلقوا على ما يلى الجزائر غربا اسم مرطانية (وهى تشمل المغرب وموريتانية الحالية) ثم اتسع لفظ إفريقيه فشمل مادخل تحت سلطة الروم من برقة إلى طنجة .

وعندما بدأ المسلمون فتوحهم للشمال الافريقى أطلقو لفظ إفريقية على ما يلى طرابلس غربا ثم تحدد ذلك بعد الفتح فأصبح يشمل الإقليم الذى تتوسطه القيروان ويتسع من طرابلس حتى بجاية .

أما لفظ المغرب ، فهو عند الاصطخرى يشمل كل ما يلى مصر غربا ويقسمه إلى قسمين : شرقى ، ويشمل برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة . وغربى وهو الأندلس[١] .

وإذا كان الإصطخرى يدخل الأندلس فى المغرب فإننا نجد المقدسى يدخل مصر كذلك فى المغرب . على اعتبار أن المغرب ما يقابل المشرق من البلاد [٢] فهو يشمل مع ذلك صقلية وكل بقعة حل فيها المسلمون فى أوربا الغربية[٣] .

---

(١) المسالك والممالك للاصطخرى ص ٣٣ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٢١٧ — ٢١٨

(٣) التعريف بالمغرب لمحمد الفاسى ص ٧

ثم إذا أرادوا تحديد جزء من هذا الكل قالوا : برقة للقسم الشرقي من ليبيا الحالية وطرابلس للقسم الغربي منها . وقالوا : إفريقية لتونس الحالية مع الناحية الشرقية من القطر الجزائري وقالوا : المغرب لما يلي ذلك من إفريقية الشمالية ، وسموا أسبانيا والبرتغال الأندلس .

وعندما أخرج المسلمون من الأندلس صار لفظ المغرب يطلق على القطر التونسي ويسمى المغرب الأدنى وعلى القطر الجزائري ويسمى المغرب الأوسط وعلى القطر المغربي ويسمى المغرب الأقصى ثم صار المغرب الأدنى يسمى : تونس . والأوسط : الجزائر . والأقصى : المغرب بدون نعت ولا وصف (١) .

---

(١) أنظر : فتح العرب للمغرب د . حسين مؤنس ص ٤ ، المغرب الكبير د . عبد العزيز سالم ص ١٢٥ ، والمرجع السابق نفس الصفحة .

الفصـــل الأول

الفتح الاسلامى فى أفريقية

فتح برقة [1] :

لم يذكر أحد من المؤرخين القدامى أو المحدثين سوى الواقدى استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة حين الفتح العربى فقد أرسل أرسطوليس[2] هدية إلى الملك صاحب برقة وأرسل إليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قبعهم « وانهم قد أتونا . . . وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا فى بلادنا بعدنا ولابد لهم منك ولاغنى لهم عنك والصواب أن تشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم فنحن جيرانك وكنـــا جندك وأعوانك والسلام » [3] .

ثم يصور الواقدى موقف صاحب برقة من هذه الهدية والرسالة بأنه عرض الأمر على أرباب دولته « وقال لهم ماترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ فقالوا له أيها الملك مازالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى أشار به هو الحق وإن العرب إذا ملكت ملك القبط فلابد لهم منا والعبور إلى بلادنا فابعث إليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة فالمسيح يعطى النصر لمن يشاء فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس

---

(١) برقة : كانت قبل الفتح العربى تسمى انطابلس وهى كلمة رومية ومعناها خمس مدن وأسماؤها الآن طوكرة ، شحات ، وبنغازى ، وسوسة ، والمرج وكانت لها أسماء أخرى يونانيه أنظر الطاهر الزاوى تاريخ فتح العرب فى ليبيا ص ٣٢ .

(٢) حاكم الإسكندرية وهو ابن المقوقس فتوح الشام ح ٢ ص ٥٤ . الواقدى

(٣) فتوح الشام الواقدى ح ٢ ص ٥٢

أن يمضى فى أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب الاسكندرية (١).

ومن هنا نرى أن إصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح غربا بعد فتح مصر والاسكندرية أمر كانت تدعو إليه ضرورة تأمين فتح مصر لاسيما وقد ثبتت الاتصالات بين حاكم الاسكندرية وحاكم برقة وتعاونهما لأجل صد جيش المسلمين ومدافعتهم عن البلاد .

يضاف إلى ذلك رغبة عمرو بن العاص فى مواصلة الفتح نشرا للدين الذى يؤمن به وتبلغا للدعوة التى خرج من أجلها هو ومن معه من الجزيرة العربية . ولم يكن إصرار عمرو على مواصلة الفتح التماسا للغنائم التى تعود عليه وعلى جنده من الغزو كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين (٢) فالخوف من احتمال مهاجمة الروم للمسلمين من الغرب برأمع ثبوت الاتصال بين الحاكين ثم ما يتسم به عمرو من الحذر جعله يعجل باستطلاع حالة الأقاليم المجاور لمصر والاسكندرية غربا وبارسال الطلائع لمناوشته وجمع الأخبار والتقريرات عنه فـ . وجه عقبة (٣) بن نافع الفهرى إلى زويلة (٤) وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصـــالح

---

(١) فتوح الشام للواقدى حـ ٢ صـ ٥٢ .

(٢) أنظر المغرب الكبير حـ ٢ صـ ١٤٢ .

(٣) ولد قبل الهجرة بسنة واحدة فتح المغرب لحسين مؤنس صـ ١٣٠ عن أسد الغابة لابن الأثير حـ ٣ صـ ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٤) زويلة : مدينه من مدن فزان القديمة وتقع فى الجنوب الشرقى من مرزق بنحو ١٥٠ ك . م وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقى بنحو ٧٧٠ ك . م طاهر الزاوى تاريخ الفتح صـ ٣٥ .

أهلهـــا (١).

وقد أقبل كثير منهم على الإسلام بل أسلم سكان برقة قيادهم للمسلمين مما جعل عمرو يرسل تقريرا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فيه « إنه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى المغرب فبلغ زويلة وأن ما بين زويلة وبرقة كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه (٢) » وبذلك صار ما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين (٣).

والذى يبدو لى أن أهل برقة التى كان « أكثر أهلها لواته البربرية » (٤) كانوا ساخطين على حكامهم البيزنطيين لعسفهم وظلمهم (٥) ورأوا فى قدوم العرب إليهم ما يخلصهم من البيزنطيين كما أن منهم من قبل الإسلام وآمن به ولن نجد فى تاريخ الفتح لأفريقية الذى استغرق أكثر من نصف قرن أن برقة قد انتقضت على المسلمين.

ورغم عسف البيزنطيين بهم فيبدو أن سلطتهم لم تكن قوية على أهل البلاد فى ذلك الوقت فنراهم قد أرخوا عنانهم لعقبة ثم قدم عمرو فعقد

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ح١ ص٨ وفى النسخه تحقيق ليفى بروفنسال : « وجه منها (أى مصر) عقبة بن نافع الفهرى إلى لوبية وأفريقية فافتتحهما . ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها على الجزية .

(٢) البلاذرى فتوح ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ح ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) كتاب العبر لابن خلدون ح ٢ ص ١٢٨ .

(٥) أنظر فتح العرب المغرب لحسين مؤنس ص ١٦ — ٢١ المغرب الكبير السيد عبد العزيز سالم ص ١٤٣ ح ٢ ص ١٢٨ .

بنفسه الصلح مع أهل برقة حيث « صالح أهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم [١] من أحبو بيعه [٢] .

وقد بدأ فتح برقة فى سنة أحدى وعشرين هجرية كما يذكر ذلك اليعقوبى [٣] والطبرى [٤] وتم خلال عام اثنين وعشرين وفقا لابن عبد الحكم [٥] وابن الأثير [٦] .

فتح طرابلس [٧] :

بعد أن انتهى عمرو من عقد الصلح مع أهل برقة واصل السير غربا متجها نحو طرابس ولكنه التزم الحذر فسار بالطريق الساحلى بجيشه ليستولى على مافى طريقه مما بين برقة وطرابلس ثم أرسل عقبة إلى فزان [٨] ففتحها ونجح فى مهمته وأصبحت المنطقة الداخلية مأمونة العواقب لاخوف على الجيش الإسلامى أن يؤتى من قبلها بعد أن استوثق من طاعة أهلها

---

(١) والظاهر أن هذه كانت عادتهم فى أداء ماعليهم من ضرائب بالنسبة للروم فوافق عليها عمرو بالنسبة للجزية .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى القسم الأول صـ ٢٦٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبى صـ ١٧٩

(٤) تاريخ الطبرى جـ ٤ صـ ٣٥٠ .

(٥) فتوح مصر لابن عبدالحكم صـ ١٧١

(٦) تاريخ ابن الأثير جـ ٣ صـ ١٢ .

(٧) مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجنية . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا الطاهر الزاوى صـ ٤٥ .

(٨) فزان : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ك م ٢ أنظر الزاوى تاريخ الفتح العربى صـ ٨٩ .

وحيادهم[١] وقــد استولى عمرو وهو متجه نحو طرابلس على سرت[٢] ولبده[٣] ثم انتهى إلى طرابلس وكانت حصينة مصورة فضرب الحصار عليها لامتناعها عليه . وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الإسلامي من فتحها بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية[٤] البحر[٥] .

وعندما تم فتح طرابلس أرسل عمرو حملة لتستولى على صبراته[٦] وكان أهلها قد تحصنوا وأخذوا حذرهم عندما سمعوا بوصول جيش المسلمين إلى طرابلس ولــكن عندما امتنعت طرابلس عليه وضرب عليها الحصار شعروا بالأمان ولم يعبئوا بجيش المسلمين ويبدو أن عمرا كان يتحسس أخبارهم أثناء الحصار فعندما انتهى من فتح طرابلس عاجلهم بجنده وانتصر المسلمون

---

(١) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٦٠ .

(٢) سرت : بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن وهى تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو ٤ كم وتقع فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٤٥٥ كم وكانت محاطة بسور من التراب وهى غير سرت المعروفة الآن سرت الحالية انشئت فى العهد التركى سنة ١٣٠٣ هـ الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٣٩ .

(٣) لبدة : مدينة عظيمة أسسها الفينيقيون أوائل القرن العاشر قبل الميلاد . وتقع شرق مدينة طرابلس بنحو تسعين كم وقــد أكل البحر جزءا كبيرا منها وبنيت مدينة الخمس فى أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها . نفس المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) لم تـكن مصورة من ناحية البحر . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا طاهر الزاوى ص ٤٧ .

(٥) كتاب العبر لابن خلدون حـ ٢ ص ٢٨ وفتوح البلدان . البلاذرى ص ٢٦٦ .

(٦) صبراته : مدينة قديمة ذات آثار تقع غربى مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر أنظر طاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٥٢ .

عليهم وغنموا ما فى بلادهم(١) . كما بعث عمرو أثناء حصاره لطرابلس قائده بسر ابن أرطاه إلى ودان(٢) فافتتحها وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين استولى على فزان وزويلة .

ولقد بعث عمرو بعد أن أتم فتح طرابلس إلى عمر بن الخطاب رضى عنه يستأذنه فى فتح أفريقية ومواصلة الفتح غربا وكأنه كان يرى أن فتح برقة وطرابلس متمم لفتح مصر أو أن ذلك كان أمرا واجبا لأمن مصر لاسيما بعد أن ثبت استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة كما روى الواقدى .

ولذلك كتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بفتح طرابلس ثم يطلب منه إبداء الرأى فى مواصلة الفتح إلى أفريقية يقول ابن عبد الحكم « أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب : إن الله قد فتح علينا اطرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل(٣) . » ولكن حديث ابن عذارى عن مضمون هذا الكتاب يضيف الكثير عن حالة أفريقية وحكامها وعدد سكانها ثم وسائل دفاعهم ومقدار استعدادهم وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل فليس أمام عمرو « إلا بلاد أفريقية وملوكها كثير وأهلها فى عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل »(٤) .

وفى مضمون هذا الخطاب عن وصف استعداد أفريقية مايوحى بأن

---

(١) ارجع إلى الكامل لابن الأثير حـ ٣ ص ١٢ .

(٢) ودان : مدينة قديمة من مدن العرب الجنوبية والجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩ كم وإلى جنوب سرت بنحو ٢٨٠ كم الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٦٠ .

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم . ص ١٧٢

(٤) ابن عذارى البيان المغرب جـ١ ص ٨

مواصلة الفتح يقتضى مددا جـــديدا لاسيما وأن أمامهم كثير من الملوك الحاكمين لإعداد بشرية كثيرة ذات خبرة ودراية على ركوب الخيل . ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى قد طالت المسافة بينه وبين خط القتال غربا فى فترة لاتتجاوز عشر سنوات استولت جيوش المسلمين خلالها على الشام ففلسطين فمصر ثم برقة فطرابلس فى هذا الزمن الوجيز ، رأى التوقف ولذلك لم يأذن لعمرو بن العاص فى مواصلة الفتح إلى أفريقية وكتب إليه ينهاه عنها ويقول : ماهى بأفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها . وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيرا ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم[1] ويضيف ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر فى كتابه أنه سوف لايسمح لأحـــد بغزوها مدة حياته « لايغزوها أحد مابقيت »[2].

فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلا إلى مصر[3] ويضيف ابن عبد الحكم سببا آخر حمل عمر على سرعة العودة إلى مصر وهذا السبب يقوى وجهة نظر عمر بن الخطاب بعدم السرعة فى مواصلة الفتوح ومحاولة تثبيت الفتح فى البلاد المفتوحة أولا : فقد أتى إلى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لايكتمه أمرا يحدث فانصرف عمرو راجعا مبادرا لما أتاه[4] ، وإن كان ابن عبد الحكم يضيف إلى ذلك أن عمرا كان يواصل

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٦ ولاشك أن ذلك يجعل لأهلها طبيعة خاصة فى الحكم وفى سياستهم .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج١ ص ٨ .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٣ .

استطلاع الأماكن المجاورة لطرابلس وسبراته فيقول «وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فصيبون الغنائم ثم يرجعون[١]».

ونستخلص من ذلك أن الأسباب التى حملت عمرا على الرجوع هى :

١ — عدم رغبة عمر بن الخطاب فى التوسع فى الفتح غربا بعد أن طالت المسافة وبعد خط القتال .

٢ — ماعرف عن أهل أفريقية من الغدر .

٣ — نقض الروم عهد عمرو بن العاص فى مصر .

من أجل هذه العوامل مجتمعة عاد عمر إلى مصر بعد أن ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو إلى الإسلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواته ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة فدخلوا فى الإسلام وأصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين فى غرب مصر[٢] » .

فتح أفريقية :[٣]

غزوة عبدالله بن سعد بن أبى السرح :

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس لم يهمل شأن هذه البلاد ولم يصرف النظر عن الاتصال بأحوالها وإنما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون[٤] .

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم كما يعلل ذلك بعض

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ح ٢ ص ١٥٢ .

(٣) نعنى بأفريقية هنا ما يسمى تونس .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٣ .

المؤرخين وإنما هو إشعار البلاد بقوة المسلمين ثم استطلاع الأخبار ومعرفة الأسرار حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح .

ولكن بعد أن توفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وبايع المسلمون أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وفد عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبدالله بن سعد بن أبى السرح العامرى عن صعيد مصر وكان عمر ولاه الصعيد قبل موته فامتنع عثمان من ذلك وعقد لعبدالله بن سعد بن أبى السرح على مصر كلها [١] وقد تابع عبدالله بن أبى السرح خطة عمرو السابقة فكان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف أفريقية ويغنمون [٢] .

ويزيد ابن خلدون أمر هذه الطلائع والجرائد توضيحا فيذكر انها كانت بأمر من عثمان وأن بعضها قد بلغ تعداده عشرة آلاف جندى ولكنها لم تقدر على التوغل فى أفريقية لكثرة أهلها وأن نتائج ماحصلت عليه هذه الطلائع من معلومات توضح أن هذا الأمر فى حاجة إلى استعداد أكثر .

وهنا نلاحظ أن سياسة أمير المؤمنين عثمان بن عفان تختلف عن سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما يتعلق بسير الفتوح نحو الغرب لأن عمر رضى الله عنه كان يرى الوقوف عند الحد الذى وصلت إليه الفتوح فى عهده وهو أفريقية حتى تستقر الأمور .

ووجد عثمان أن ظروف الدولة تمكنه من مواصلة الفتوح فأمر باستئناف الفتوح من جديد وأصدر أوامره إلى عبدالله بن أبى السرح بزيادة نشاط

---

(١) الكندى القضاة والولاة ص ١٠ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

الطلائع على أفريقية فأرسل عبدالله بن أبي السرح عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند وعبدالله بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا إلى أفريقية فى عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها(١) ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير فى إرسال الجرائد إلى أطراف أفريقية بأمر عثمان وإن كان يضيف إلى ذلك أن بعض هذه الجرائد كان على رأسها عبدالله بن أبى السرح وكان المسير له عمرو بأمر عثمان يقول « وفى سنة خمس وعشرين سير عمرو بن العاص عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى أطراف أفريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبدالله من جند مصر فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبدالله كتب إلى عثمان يستأذنه فى غزو أفريقية(٢) .

وبعد أن تأكد عبدالله من قدرته على فتح أفريقية بعد توفر وجود الجند الكافى لغزوها « كتب إلى عثمان وأخبره بقربهم من حرز المسلمين ويستأذنه فى غزوها فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه فى ذلك(٣) » ويصور صاحب رياض النفوس عزم عثمان على الغزو باستخارة عثمان لله وصلاته فى المسجد بليل ثم استشارته للمسلمين فقد قال المسور « خرجت من منزلى بليل طويل أريد المسجد

(١) ابن خلدون كتاب العبر ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) الكامل لابن الأثير ح ٣ ص ٤٢ ومن هنا نفهم أن عبدالله بن أبى السرح خرج فى هذه الطلائع عندما كان أمر مصر إلى عمرو بن العاص وعندما عاد من هذه الطلائع وكان أمر مصر قد أسند إليه كتب إلى عثمان يحبذ له فتح أفريقية بعد أن كان يغزوا أطرافها .

(٣) ابن الحكم فوح ص ٢٨٣ .

فإذا عثمان رضى الله تعالى عنه فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فصليت خلفه ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى أذن المؤذن ثم قام منصرفا إلى بيته فقمت فى وجهه فسلمت عليه فقال : يابن مخرمة واتكأ على يدى انى استخرت الله تعالى فى ليلتى هذه فى بعث الجيوش إلى افريقية وقدكتب إلى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين فمات خار الله لأمير المؤمنين قال فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ قلت اغزهم قال أجمع اليوم الأكابر من صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشيرهم فما اجمعوا عليه فعلته أو ما اجمع عليه أكثرهم فعلته . . . . إيت عليا وطلحة والزبير والعباس وذكر رجالا فخلا بكل واحد منهم فى المسجد . . . فلم يختلف أحد عن شاوره (١) غير الأعور سعيد بن زيد .

وقد تحمس الخليفة لهذه الغزوة واعان المسلمين من ماله الخاص وبألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التى كانت للمسلمين فلما توافى الناس جدوا السير وذلك فى المحرم من هذه السنة (٢) سنة سبع وعشرين

ويصور أبو العرب سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله خرج إلى افريقية فى جيش أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى (٣) .

---

(٣) المالكى رياض النفوس ص ٩ .

(٤) ابن عذارى البيان المغرب ص ٩

(١) أبو العرب تمم طبقات علماء أفريقية وتونس ص ٧٠ .

وعندما اجتمع المجاهدون فى المدينة أمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون إليه الأمر(١) .

سار الجيش من المدينة متوجها إلى مصر حيث انضم إليه جند مصر وتولى عبد الله بن أبى السرح قيادته وفى طريقه إلى أفريقية انضم إليهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا (٢) الروم عندها » (٣) .

وكانت طرابلس قد نقضت العهد بعد فتح عمرو بن العاص لها وتحصنت فلم يقف عندها ابن أبى السرح لأنه يريد منازلة صاحب أفريقية والقضاء عليه وكان صاحب افريقية آنذاك بطريق يسميه العرب جرجير ويصفون سعة ملكه بأنه يملك ما بين طرابلس إلى طنجة (٤) ، ولكن المؤرخين اختلفوا فى تبعية جرجير آنذاك لهرقل امبراطور الروم فابن عبد الحكم يذكر أنه خلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه(٥) وابن خلدون وابن الأثير يذكران أنه كان تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج كل سنة (٦) ، ويزيد صاحب الخلاصة النقية أنه : « كان يستند إلى صاحب القسطنطينية ويستظهر

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح صـ ١٨٣ .

(٢) لاشك أن ابن خلدون يقصد بذلك أنهم استولوا عليها وإذا علمنا أنهم كانوا قد طردوا الوالى الذى خلفه عليهم عمرو بن العاص أثناء فتحه الطرابلس كما أنهم تحصنوا دون ابن أبى السرح فالمسلمون فى حل من حربهم والاستيلاء على متاعهم .

(٣) ابن خلدون العبر ج ٢ صـ ١٢٩

(٤) ابن عبد الحكم فتوح صـ ١٨٣ ، ابن خلدون العبر ج ٢ صـ ١٢٩

(٥) ابن عبد الحكم فتوح صـ ١٨٣ .

(٦) ابن خلدون العبر ج ٢ صـ ١٢٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٣ صـ ٤٣

بنى حروبه بجيرانه من البربر (١) .

والذى تميل إليه النفس أن جرجير لم يخرج على هرقل وإنما كان انشغال الدولة الرومية بشأن المسلمين على الحدود الشرقية داعيا لانشغالهم عن شئون افريقية بدليل أنهم عندما قتل جرجير وعقد الصلح مع العرب على جزية كبيرة أرسل هرقل بطريقا آخر لكى يحصل على مال يعادل ماتعهد بدفعه للعرب (٢) .

ولاشك أن جرجير كان يستعد للقاء فاصل مع العرب منذ وصلت جيوش المسلمين إلى برقة وطرابلس ويرى تتابع الطلائع العربية للأغارة على افريقية ولذلك عندما قدم المسلمون بقيادة عبد الله بن أبى السرح إلى افريقية سنة سبع وعشرين كان جرجير على أهبة الاستعداد حيث قد كون جيشا من مائة وعشرين ألفا من الفرنج والروم والبربر وملوكهم .

يقول ابن خلدون متفقا مع ابن الأثير ويتابعهما صاحب الخلاصة النقية وصاحب تاريخ الجزائر فى القديم والحديث : « فجمع لهم جرجير ملك الفرنجة يومئذ بأفريقية من كان بامصارها من الفرنج والروم ومن ضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملكه مابين طرابلس وطنجة (٣) وكانت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين فى زهاء مائة وعشرين ألفا والمسلمون يومئذ فى عشرين ألفا (٤) .

---

(١) الخلاصة النقية للباجى ص ٣ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٢ ص ١٣٠ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٤٤ .

(٣) طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب . فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ٥٦ .

(٤) ابن خلدون العبر ج ٣ ص ١٠٧ ، ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٤٣ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٣ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٢٢ .

ألتق الجمعان فى مكان يسمى عقوبة [١] على يوم وليلة من سبيطلة [٢]
وكانت دار ملكهم وكما هى عادة المسلمين عرضوا عليه الإسلام أو الجزية
فأبى قبول أحدهما ونشب القتال ودارت المعركة واستمرت أياما كان ختامها فى
صالح المسلمين فقتل جرجير وهرب جيشه ومزق شر ممزق. وتبعتهم خيول
المسلمين إلى حصن سبيطلة فمنعوهم من دخوله وركبهم المسلمون يمينا وشمالا
فى السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسانهم وأكثروا فيهم الاسارى [٣] .

وبث عبد الله السرايا فبلغت قصور قفصة [٤] فسبوا كثيرا وغنموا
ويعلق ابن عذارى على نتيجة هذه الموقعة ويبين أثرها فى الروم بأفريقية
وكيف أن جموعهم الكثيرة لم تغن عنهم من دون سيوف المسلمين شيئا مما
دعاهم آخر الأمر إلى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية كبيرة المسلمين
فقد « أذلت هذه الوقعة الروم بأفريقية ورعبوا رعبا شديدا فلجأوا إلى
الحصون والمعاقل ثم طلبوا من عبد الله بن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة [٥]
قنطار من الذهب فى السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم
فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان فى شروط صلحهم أن ما صاب المسلمون

---

(١) البلاذرى فتوح ص ٢٦٧ .

(٢) سبيطلة : مدينة تبعد عن القيروان سبعين ميلا وعن قفصة مرحلة واحدة وكانت عاصمة أفريقية القديمة عن قادة فتح المغرب العربى ج ١ ص ٨٠ اللواء شيت خطاب .

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ص ١١ .

(٤) قفصة : بلد صغير فى طرف أفريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام أنظر معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٥) ثلاثمائة قنطار = ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار أنظر البلاذرى فتوح ص ٢١٨ .

قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم[١] ».

أما ابن خلدون فيعقب على المعركة بأن المسلمين قد جدوا كذلك فى أثر البربر الذين تصدوا لهم بعد قتل جرجير وحصل بينهم زحوف ثم أسر لبعض ملوكهم الذين اشخصوا إلى الخليفة حيث اعلنوا اعتناق الإسلام وأنه عقد لهم على قومهم فقد « حصل فى أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمان ابن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناته ووفدون إلى عثمان بن عفان فأسلم على يديه ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه[٢].

هذه النتائج التى توصل إليها عبد الله من الانتصار على جرجير وفتح سبيطلة وقفصة وحصن الأجم[٣] ثم اذلال الروم والبربر والأهم من ذلك هو قبول بعض ملوك البربر للإسلام ووفوده على الخليفة وعقده له على قومه : تعتبر من أهم النتائج لهذه الغزوة وكسب كبير بالنسبة للإسلام والمسلمين . ولكن عبد الله بعد أن يوقع الصلح يعود إلى مصر فلماذا يرجع عبد الله إلى مصر بدون أن يترك حامية ؟ أو أن يولى عليهم واليا من المسلمين ؟

إن من ينظر إلى نتيجة الحرب بين ابن أبى السرح وجرجير ويرى أن المسلمين قد انتصروا يقول لماذا لم يستغل عبد الله هذا النصر ويوطد أقدام المسلمين فى هذه البلاد ؟

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ص ١٢ والمبلغ الذى ذكره يتفق مع ما ذكره البلاذرى فتوح ص ٢٦٨ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) الأجم المعجم الأعجام وكانت مركزا حربيا طوال العهد البيزنطى ، أنظر فتح العرب المغرب لمؤنس ص ٨٣ .

ولكن من يمعن النظر فى هذا الرجوع يتجلى له أن عبدالله قد أدرك أن فتح أفريقية لا يتم بموقعة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لاسيما وهو لا يلتقى بجيش دولة لها كل السلطه على البلاد فإذا ماقضى على الجيش قضى على كل شىء وإنما يلتقى بجيش الروم فى الشمال ثم بقبائل البربر فى الجنوب حيث لها تقاليدها وطبائعها وماتتصف به من القوة والدفاع عن حماها وأن توطيد أقدام المسلمين يحتاج إلى إمدادات أخرى مع بعد خطوط هذه الأمدادات . ولذلك اكتفى بالانتصار فى الموقعة التى خاضها ثم بفتح بعض الحصون والحصول على الصلح والجزية الكبيرة التى يعبر عنها البلاذرى فى رواية عبدالله بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، وفى رواية ابن كعب أن عبدالله بن سعد بن أبى السرح صالح بطريق أفريقية على ألفى دينار وخمسمائة ألف دينار . ويزيد المازنى أنه رجع إلى مصر ولم يول على أفريقيه أحدا ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع(١) .

ولاشك أنه كان من الممكن أن يترك عبدالله ولو حامية استطلاعية تحمل إليه أخبار البلاد التى تغلب عليها وإن كان واضحا من قول البلاذرى أنه قد اكتفى بالمعاهدة ولم يترك حامية استطلاعية ولعله اعتمد على مابدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الإسلام والإيمان به .

ولذلك عاد إلى مقر ولايته فى مصر بعد أن قضى خمسة عشر شهرا فى هذه الغزوة فوصل إلى مصر فى سنة ثمان وعشرين هجرية . غير أنه عاد لغزو أفريقية سنة ثلاث وثلاثين هجرية مرة ثانية حين نقض أهلها العهد »(٢) .

---

(١) البلاذرى فتوح صـ ٢٦٨ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ صـ ١٤ .

مما يدل على أن ابن أبى السرح حاول أن يحتفظ بأفريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة معها فلما نقضت العهد غزاها ثانيا ،

وإذا اعتمدنا هذه الرواية الثانية لابن عذارى اتبين لنا أن ابن أبى السرح حاول الاحتفاظ بالانتصار الذى حققه عن طريق المعاهدة . غير أن ماجد من حوادث فى مركز الخلافة قد حالت بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوا علاوة على مواصلة الفتح حيث قد ذر قرن الفتنة التى أحاطت بعثمان رضى الله عنه . وتوقفت بسببها الفتوح كما استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عن الجميع .

غزوة معاوية بن حديج :

استقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان بعد عام الجماعة وجمع شمل المسلمين وابتدأ المسلمون يستعيدون توجيه نشاطهم ثانيا إلى الخارج وبدأت موجة جديدة للفتوحات فى أفريقية حيث أسند الخليفة معاوية بن أبى سفيان فى سنة خمس وأربعين هجرية إلى معاوية بن حديج السكونى أمر مواصلة الفتوح فى أفريقية وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف جندى فيه بعض الصحابة والتابعين(١)

ويذكر المؤرخون أن بعض الظروف قد خدمت المسلمين ودفعتهم للإسراع باستئناف الفتح وذلك بسبب خلاف نشأ بين الحاكم الجديد الذى ولاه هرقل على أفريقية وبين رعاياه فيها حيث قد بالغ الحاكم الجديد فى فى مطالبة رؤساء أفريقيه بأن يقدموا إليه من الأموال مثل مادفعوا لابن

(١) أنظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦ ، رياض النفوس للمالكى ص ٧ .

أبى السرح فى صلحهم معه مما أدى إلى تذمر أهل أفريقية وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد مما دعاه إلى حبسهم[1] ولذلك تذكر بعض الروايات أن الحاكم الذى أقامه أهل أفريقية بعد جرجير لجأ إلى معاوية بن أبى سفيان واصفا له أمر أفريقية وطالبا منه إرسال جيش لفتح أفريقية[2] .

وهكذا نرى أن أهل أفريقية قد ثاروا وغضبوا من حاكم هرقل الجديد كما نلاحظ أن الوالى السابق يذهب إلى دمشق لكى يستنجد بالخليفة معاوية .

ولقد حاول الخليفة أن يستفيد من هذه الفرصة السانحة فسارع بإرسال معاويه بن حديج لاستئناف فتح أفريقية .

وقد سار معاوية بن حديج بالقوة التى أرسلها معه الخليفة حتى دخل بها أفريقية فنزل بجيشه على قونية وهى قيروان أفريقية[3] وغادرها إلى مكان يقال له القرن[4] حيث بعث إلى جلولاء[5] عبد الملك بن مروان فى ألف رجل . . فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها[6] .

---

(١) أنظر الطبرى ج ٥ صـ ٥١

(٢) أنظر الكامل لابن الأثير ج ٣ صـ ٤٤ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ صـ ١٦ .

(٣) الدباغ معالم الإيمان ج ١ صـ ٤٣ .

(٤) القرن جبل بأفريقية وهو المعروف الآن بجبل وسلات انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب جـ ١ ص ٨٠ .

(٥) جلولاء قريبة من القيروان الحالية على بعد ٢٤ ميلا منها انظر ما كتبه حسين مؤنس فى فتح العرب للمغرب ص ١٢٣ هامش .

(٦) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٣ .

ولقد وصلت أنباء حملة معاوية بن حديج إلى صاحب القسطنطينية فأرسل جيشا فى البحر مكونا من ثلاثين ألف مقاتل لرد جيش المسلمين غير أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم قرب قصر الأجم[1] ويقال إن الجيش الرومى قد انسحب من غير أن يقاتل جيش المسلمين الذى أرسله معاوية ابن ابن حديج بقيادة عبدالله بن الزبير للتصدى لجيش الروم ثم تمكن ابن الزبير بعد ذلك من فتح سوسه[2] ويفيدنا المالكى « أن معاوية غزا بنزرت وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا إلى قونية وبنى بناحية القرن مساكن وسماها (قيروان) وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور[3] .

ومن هذا نرى أن معاوية بن حديج قد تمكن من فتح جلولاء وسوسة وبنزرت وإن لم يخض معارك فاصلة ولعل ذلك يوضح لنا بعض آثار غزوة عبدالله بن أبى السرح وظهور ميل الأفريقيين لوجود المسلمين فيها كما بدأت تظهر فكرة إيجاد مصر إسلامى فى أفريقية يكون مستقرا للجيش الإسلامى وقاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق أهدافه بدون أن تكون المسافات الشاسعة قد استنفذت جهده وأضعفت من قوته . وإذا كانت فكرة إيجاد مدينة ومعسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حديج إلا أن الذى تولى تنفيذ فكرة هذه المدينة وتأسيسها وإعطائها طابعها الحقيقى فإنما هو القائد الذى سيتولى أمر الفتوح من بعد معاوية بن حديج وهو عقبة بن نافع الذى الذى سيسند إليه الخليفة فى دمشق أمر أفريقية فاصلا بين

---

(١) الخلاصة النقية للباجى ص ٥ ، ٥ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٤ وابن الأثير تاريخ الكامل ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) انظر ابن عذارى ج ١ ص ١٦ وسوسة ميناء على البحر وصار ميناء كبيرا أيام الأغالبة .

(٣) رياض النفوس للمالكى ص ١٩ .

الإمارة فى مصر والقيادة فى أفريقيه[1] وحيث استقر ابن حديج واليا على مصر وحدها :

عقبة بن نافع فى أفريقية :

ومما لاشك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح فى أفريقية كان اختيارا موفقا لرجل عاش قريبا من أفريقية أو فيها منذ توجه جند من المسلمين إلى المغرب وعاش كل هذه الفترة مشاركا فى الفتح أو قريبا منه لقد عاش فى برقة وتولى أمرها منذ فتحها المسلمون فكان خير داعية للاسلام وإسناد أمر أفريقية إليه معناه أن يجعل أفريقية أرضا إسلامية كما صارت برقة من قبل ولذلك ابتدأ عقبة إقامته فى أفريقية بتأمين الأماكن الداخلية ثم ابتدأ يؤسس القيروان لتكون القاعدة الإسلامية والمدينة الإسلامية التى يذود عنها المسلمون والتى تنطلق منها الحملات للقضاء على الروم الذين لازالوا يقيمون فى شمالهـــا ثم لنشر الإسلام بين السكان : فى الداخل أو على الساحل .

فقد خرج عقبة إلى أفريقية بعد معاوية بن حديج « فأقبل حتى نزل بمغمداش[2] من سرت . . . فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ثم سار بنفسه ومن خف معه أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة حتى قدم ودان فافتتحها . . ثم فزان ففتح قصورها . . . ثم انصرف راجعا فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمت خيولهم وظهرهم فسار متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ

---

(١) انظر حركة الفتح الإسلامى لشكرى فيصل ص ١٦٢ .

(٢) مغمداش : بلد قريب من سرت بليبيا .

إلى أرض مزاتة فافتتح كل قصر بها . . . ثم بعث خيلا إلى غدامس[١] فافتتحت غدامس فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة[٢] فافتتحها وفتح[٣] قصطيلية[٤] .

وقد انضم إلى جيش عقبة المكون من عشرة آلاف جندى من أسلم من البربر[٥] فى تلك البلاد مما يدل على أن أهل البلاد قد اعتنق كثير منهم

---

(١) غدامس : واحة من واحات طرابلس الصحراوية وتقع فى الجنوب الغربى من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠كم ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا الطاهر الزاوى ص ٨٧ .

(٢) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير فى عهد الرومان بينها وبين القيروان ثلاثة أيام .

(٣) قصطيلية : أحدى بلاد الزاب على حدود الصحراء .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف .

(٥) البربر : قسم النسابة قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس ، البتر وقالوا أن الجماعة الأولى ابناء برنس بن بر ، وأن الجماعة الثانية أبناء مادغيس ابن بر الذى لقب بالأبتر .

(أ) البرانس :

من قبائلهم المشهورة عشر : ازداجة ، ومصمودة ، أوربة ، هجيسة ، كتامة ، صنهاجة ، أوريغة ويضاف إليهم لمطة وهكسورة ، وجزولة . وهذه الأصول تنقسم إلى فروع صغيرة فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة وقبيلة مليلة تنحدر من هوارة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .

(ب) البـــتر :

من قبائلهم المشهورة أربعة : ادارسة ونفوسة وضريسة وبنولوا الأكبر ومن قبيلة لوا قبيلتا نفزاوة ولواتة ومن قبيلة نفزاوة تنحدر قبيلة ولهاصة ومن=

الاسلام وحسن إسلامه فانضم إلى الكتائب المدافعة عن الإســـلام والكثرة ارتداد بعض البربر فى مداخل أفريقية عن الاسلام حمل ذلك عقبه على الشدة معهم « ووضع السيف فى أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم(١)

ولقد كان لهذه الغزوة أثر عميق فى الروم والبربر حيث تمكن عقبة من الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع كما شعر الروم والبربر بقوة المسلمين علاوة على تأسيس القيروان ويعبر الدباغ عن ذلك بأنه « افتتح كثيرا من حصونها — أى أفريقية — وأثخن فى قتل الروم والبربر واختط مدينة القيروان وتجول بها أياما . ثم قدم أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصارى إلى أفريقية سنة خمس وخمسين فعزل عقبة وقيده وحبسه وخرب ما كان اختطه وبناه بالقيروان »(٢) .

ورغم أن عقبة لم يقم خلال هذه الفترة التى تولى فيها أمر أفريقية إلا بتطهير الداخل ثم شن بعض الحملات خلال قيامه بتأسيس القيروان إلا أن كارل بروكلمان يعده المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى أفريقية الشمالية ويبالغ فيذكر أنه وفق للقضاء على الحكم النصرانى فى شمال أفريقيا جملة فهو يعتبره « المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى أفريقية الشمالية . . . ووفق بمعاونة البربر إلى القضاء على الحكم النصرانى فى شمال أفريقية جملة واحدة ثم عزل بعد أن أنشأ مستعمرة عسكرية فى القيروان »(٣) .

= وخاصة تنحدر قبيلة ايرغاش ومن ايرغاش تنحدر قبيلة ورفجومة « انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب جـ ١ ص ١٦ .

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) الدباغ معالم الإيمان جـ ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية — كارل بروكلمان جـ ١ ص ١٥٢

ولاشك أن عقبة أثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس أخبار عدوه بإرسال الطلائع والحملات السريعة التى تثبت قوة المسلمين كما تقوم بالدور المهم الذى يملأ شغاف قلب عقبة وأصحابه وهو نشر الإسلام وتبينه للناس وبذلك «دخل كثير من البربر فى الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها»(١).

وبهذ يتبين لنا أن بناء القيروان كان ذا أثر عميق لتقوية جنان الجنود وبعث الاطمئنان إلى النفوس اترضى بالمقام ثم تثبيت بذور الإسلام فى أفريقية.

وبعد أن مكث عقبة فى ولايته هذه خمس سنوات قضى معظمها فى فى تأسيس القيروان ونشر الإسلام فى النواحى القريبة منها عزل عنها بأبى المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية(٢).

أبو المهاجر دينار :

عندما أوشك عقبة على الانتهاء من تأسيس القيروان لكى يواصل الفتح فيزيل سلطان الروم من الشمال ثم يستمر فى نشر الإسلام بين البربر حسب خطته فوجىء بعزله بأبى المهاجر دينار فى سنة خمس وخمسين هجرية والبلاذرى يشير إلى ولاية أبى المهاجر دون أى ذكر لأعماله فقد «عزل معاوية بن أبى سفيان معاوية بن ابن حديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصارى فولى المغرب أبا المهاجر دينار مولاه فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة

---

(١) ابن الأثير اسد الغابة جـ ٣ ص ١٨٤ عن فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ١٤٦.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٣٤.

بن نافع على عمله (١) . وهكذا لا يسند إليه البلاذرى أى عمل قام به سوى الاشارة إلى ولايته وعزله . أما ابن عبد الحكم فيسند إليه أنه أقام بأفريقية واتخذها منزلا لا يمارقها إلى الفسطاط وإن كان قد كره أن ينزل فى قيروان عقبة ، ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل . وكان الناس قبل أبى المهاجر يغزون افريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط . وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا (٢) » .

ولكننا نعلم أن عقبة قد أقام فى أفريقية أربع أو خمس سنوات حين كان يبنى القيروان فكيف يرى ابن عبد الحكم أن أبا المهاجر هو أول من أقام بافريقية فترة الشتاء والصيف ؟

ولعله يقصد بذلك الفترة التى قضاها أبو المهاجر فى حملته على المغرب الأوسط التى انتهى فيها إلى العيون المعروفة بأبى المهاجر نحو تلمسان (٣) ولبث فيها هنا نحو عامين أو ثلاثة (٤) وفى خروجه هذا ، افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (٥) (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية (٦) ثلاثة أيام) وكانت

---

(١) البلاذرى فتوح ص ٢٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٣) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم اقادير على بعد مرحلة من وهران. انظر التفاصيل معجم البلدان (٤٠٩/٢)

(٤) المالكى رياض النفوس ص ٢١ .

(٥) ميلة : مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام .

(٦) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب . التفاصيل فى معجم البلدان (٦٢/٢) .

اقامته فى هذه الغزوة نحوا من سنتين [١] .

ويحدثنا المالكى عن الجند الذى صحب أبا المهاجرين بأنهم من أهل الشام ومصر وأنه حارب بهم قرطاجنة ثم يشير اشارة مبهمة إلى أنه قد وجه حسين بن عبد الله الصنهاجى بجيش إلى الجزيرة [٢] فافتتحها . ومن هنا يظهر لنا أن بعض القيادات من البربر من صنهاجة قد ظهر منذ زمن مبكر . ذلك أن أبا المهاجر قد « نزل بفحص تونس ويقال إنه نزل بسبخة وبنى بها ومنها حارب أهل قرطاجنة ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجى بجيش إلى الجزيرة فافتتحها وكتب إلى أبى المهاجر بذلك فرحل إليه واجتمع معه وقسم الفىء هنالك بين جميع الجيش ثم انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان ووجه بالخمس إلى مصر [٣] » ويقال : أن أبا المهاجر عقد صلحا مع أهل قرطاجنة أن يخلو جزيرة شريك [٤] .

ومن هنا نرى أن أبا المهاجر قد قاتل الروم فى قرطاجنة واستطاع أن يستخلص جزيرة شريك منهم ويعقد صلحا معهم ليتوجه بجيوشه إلى البربر متوغلا إلى المغرب الأوسط حيث ينازل البربر فى عقر دارهم ويتغلب عليهم ثم هو يتألفهم حتى يعتنقوا الإسلام ويكون ذلك نصرا لنشر الإسلام فى أماكن لم ينتشر فيها من قبل ويشير إلى ذلك ابن عذارى ضمن حديثه عن عقبة وموقفه من كسيلة ابن لمزم الأوربى « بأن أبا المهاجر فى ولايته

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٥٧

(٢) جزيرة شريك .

(٣) المالكى رياض النفوس ص ٢٠ .

(٤) انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب جـ ١ ص ١٣٩ .

لأفريقية كان نهض إلى المغرب فنزل عيونا عند تلمسان تعرف الآن بعيون أبي المهاجر فزحف منها إلى كسيلة وهو في عدة من قبائل البرانس فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم وأحسن إليه أبو المهاجر واستبقاه (١).

ويزيد ابن خلدون الأمر وضوحا بأن كسيلة كان على دين النصرانية وأنه كان رئيسا لأوربة التي كانت تتزعم البربر آنذاك وقد اجتمع إليه البرانس فزحف إليهم أبو المهاجر وانتصر عليهم « فظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه (٢) » وبذلك استطاع أبو المهاجر خلال فترة ولايته أن يتعمق في الداخل بين البربر إلى أن وصل إلى تلمسان في المغرب الأوسط وإذا كان لم يستطع أن يتغلب على قرطاجنة فقد استولى على جزيرة شريك ووصل من ناحية الساحل إلى ميلة ثم عاد إلى المكان الذي بناه ليجد أن الخليفة يزيد ابن معاوية قد أعاد عقبة لكي يتولى أمر أفريقية مرة أخرى

عقبة بن نافع في أفريقية ثانيا :

لقد قضى عقبة وقتا طويلا في برقة وعندما أسند إليه أمر أفريقية اختط القيروان لتكون قاعدة للمسلمين لكي يواصل تبليغ الدعوة إلى الشمال الأفريقي كله ولكنه بعد أن اتم بناء القيروان عزل عن امارة أفريقية ولذلك ذهب إلى دمشق لكي يوضح للخليفة خطته ويبين مايرمى إليه من نشر الإسلام وفتح للبلاد كما يوضح ماقد تم في فترة ولايته السابقة ويورد ابن الحكم أن عقبة قدم « على معاوية بن أبي سفيان فقال له فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ثم ارسلت عبد الأنصار

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) ابن خلدون عبر جـ ٦ ص ١٠٧ .

فأساء عزلى فاعتذر إليه معاوية (١) » .

بينما يذكر المالكى : أنه قدم على معاوية بن أبى سفيان فوجده قد توفى إلى رحمة الله وتولى بعده يزيد فدخل عليه فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه وقال له : لما افتتحتم أفريقية بنيت مسجد الجماعة ثم بعثتم عبد الأنصار فأهاننى واساء عزلى فغضب يزيد وقال « ادركوها قبل أن يخرجها ، ورد عقبة » وأزال مسلمة عنها وأقره بمصر وذلك سنة اثنين وستين وقدم عقبة إلى القيروان بعشرة آلاف فارس (٢) ، ورأى المالكى هذا يتفق مع رواية ابن عبد الحكم الثانية فى أنه قدم على يزيد لا على معاوية .

ابتدأ عقبة عمله من حيث تركه فبدأ بتعمير القيروان واعادتها إلى سابق عهدها وجعلها موطنا ومقرا للمسلمين « فجدد بناء القيروان وشيدها ونقل الناس إليها فعمرت وعظم شأنها » (٣) .

وبادر عقبة عقب ذلك بحملة كبرى على المغرب وهى حملة طويلة وسريعة وصل فيها إلى المحيط وقاتل فيها الروم والبربر وانتصر على كل من لاقاه وفضهم حيث استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية (٤) ولميس ولقيه ملوك البربر

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٢) المالكى رياض النفوس ص ٢٢ . ويذكر الدباغ كذلك أن جند عقبه كان عشرة آلاف ولكن الدكتور حسين مؤنس يقول نقلا عن الدباغ انهم كانوا خمسة عشر ألفا . فتح العرب للمغرب ص ١٨١ ويتابعه د / سيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٢٢٢ .

(٣) رياض النفوس المالكى ص ٢٢ .

(٤) باغاية : مدينة كبيرة فى اقصى افريقية بين بجانة وقسنطينة وهى حصن بربرى قديم وكان سكانها من البربر والروم شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ٩١ .

بالزاب[1] وتاهرت [2] ففضهم جمعا بعد جمع ودخل المغرب الأقصى واطاعته غمارة ، ثم اجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جمـــوع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا [3] » .

وبعض المؤرخين يذكران أنه ترك بالقيروان جندا واستخلف عليها زهير بن قيس البلوى كما أنه عندما هزم الروم عند باغاية كره المقام عليها فسار إلى الزاب وقتل النصارى فى مدينتها أربة [4] وقد استعان الروم بالبربر فى تاهرت ولكنه تغلب عليهم وغنم المسلمون المال والسلاح كما نزل بطريق طنجة على حكمه فاستفهم منه عن حالة الأندلس وهنا نرى أن عقبة كان يتطلع إلى فتح الأندلس ولكن البطريق عظم الأمر عليه فسار

---

(١) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة وهى كورة عظيمه ونهر جرار بأرض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها . وفى تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٢) أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم ولاية قسنطينة المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما : تاهرت القديمة وللاخرى : تاهرت الحديثة المرجع السابق ص ٩ ١ .

(٣) ابن خلدون عبر جـ ٦ ص ١٠٧ .

(٤) أربة : مدينة بالمغرب من أعمال الزاب وهى أكبر مدينة بالزاب شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ١٠٨ .

إلى السوس (١) الأدنى ثم السوس (٢) الأقصى فقتل فى البربر قتلا ذريعا وسار حتى بلغ ماليان (٣) ورأى البحر المحيط فقال « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه (٤) .

ويذكر ابن عذارى « أن صاحب سبتة سأل عقبة المسالمة وأن ينزل على حكمه فقبل منه واجتمع به » (٥) حيث صالحه واقره على بلاده (٦).

ويعلق الرقيق القيروانى على موقعة من المواقع التى خاضها عقبة فى حملته على المغرب وهى موقعة ادنة (٧) بقوله « فانهزم القوم وقتل فيها أكثر فرسان البربر فذهب عزهم من الزاب وذلوا آخر الدهر (٨) كما كان لهذه

(١) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية وبين السوس الادنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) السوس الأقصى : اقصى بلاد البربر على المحيط والسوس الأقصى اسم مدينة ألا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يحتف بها طوائف من البربر نفس المرجع ص ٩١ .

(٣) ماليان : بلد فى اقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط . معجم البلدان (٣٦٧/٧) .

(٤) الكامل لابن الاثير بتصرف ج ٤ ص ٥٣ .

(٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٦) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص ٤٣ .

(٧) أدنة : بلد كثيرة الأنهار والعيون العذبة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل انظر الرقيق تاريخ إفريقية ص ٤٢ .

(٨) المؤنس لابن ابى دينار ص ٣٠ .

الموقعة اثر كبير بالنسبة للروم حيث ذهب عز الروم من الزاب وذلوا وتحصنوا (١).

ومن هنا يتبين لنا أن عقبة قد نجح فى التغلب على كل الجموع التى تصدت له إلى أن قفل راجعا ولو لم ينته إلى الغاية التى سينتهى إليها من الاستشهاد لكان لتلك الغزوة اثر كبير فى عدم انتقاض الشمال الأفريقى كله بعد استشهاده.

ولكن الدكتور حسين مؤنس يعلق على نتيجة هذه الغزوة بقوله : ثم انقلب بعد ذلك عائدا ادراجه ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها اثرا يذكر (٢)، ثم يقول « بل لم يكن نشر الإسلام غاية واضحة فى ذهن عقبة إذ لو كان يطلب هذا فليس تلك هى السبيل التى تؤدى إلى إدراك هذه الغاية إنما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الإسلام وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية فإن أبوا كانت الحرب هكذا كان الفاتحون فى الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . أما عقبة فكان ينقض على المدائن محاربا مقاتلا ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهى مع أهل البلد إلى شىء معلوم بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مر به من البلاد نفرا يعلم أهله الإسلام (٣) » .

ولا شك أن هذا فيه تجن كبير على عقبة رضى الله عنه فلقد كان عقبة يعرض الإسلام قبل الحرب شأن كل قادة المسلمين كما أقام المساجد فى كثير من الأماكن التى مازالت تنطق بأثر عقبة وتعطينا الدليل الباقى شاهدا على ما كان لهذه الغزوة من تأثير مازال مستمراً إلى الآن حيث أن أهل البلاد مازالوا يعظمون تلك المساجد انشأها عقبة أثناء غزوته التى وصل فيها

---

(١) المالكى رياض النفوس صـ ٢٣ .

(٢) فتح العرب المغرب حسين مؤنس صـ ١٩٥ .

(٣) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس صـ ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

إلى ماسة بمكان من السوس الأقصى فبنى بها مسجدا [١] .

كما يذكر ابن عذارى أنه « سار حتى نزل إيجلى بالسوس وبنى فيه مسجدا وأنه لم يصح عنده أن عقبة رضى الله عنه حضر بنيان شىء من المساجد بالمغرب إلا مسجد القيروان ، ومسجدا بدرعة ومسجدا بالسوس الأقصى . وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس والله أعلم بنوها بموضع نزوله » [٢] .

وهكذا نرى أن عقبة حتى فى أثناء قيامه بالغزوة كان يبنى المساجد وهذا يعطى دليلا على أنه كان هناك من يدخل فى الإسلام من أهل هذه النواحى وأنه كان يهتم بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام قبل أى شىء آخر . وأن المساجد الكثيرة التى تحمل اسمه والتى بناها الناس بعد ذلك بالمواضع التى كان ينزل فيها . يعطى الدليل الواضح على الأثر الذى تركه عقبة فى المغرب ثم يزيد ابن عذارى موضحا أنه ترك فى المغرب صاحبه شاكرا ويبين أنه كان يعرض الإسلام ويدعو إليه قبل أن يشهر السيف . يقول « ثم رجع عقبة قافلا إلى المغرب الأوسط وسلك على إيغيران يطوف ثم إلى تارنا ثم إلى موضع شاكر وترك به صاحبه شاكرا فسمى باسمه . ثم رحل منه إلى بلاد دكالة فوجد فيها قوما فدعاهم إلى الإســــلام فامتنعوا فقاتلهم فقتلوا جملة من أصحابه فسمى ذلك الموضع مقبرة الشهداء إلى الآن . ثم رجع من دكالة إلى بلاد هسكورة إلى موضع يقال له إطار فوجد فيه أقواما فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فتقاتل معهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب [٣] » كما يعبر ابن عذارى فى مكان آخر بأنه

---

(١) المالكى رياض النفوس ص ٢٦ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

ترك فى المغرب الأقصى أكثر من معلم غير شاكر كما يذكر أن كثيرا من المصامدة أسلموا على يديه يقول، وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ومنهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاة خلفاء بنى أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع الفهرى ولم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه »[١].

ولذلك يعود الدكتور حسين مؤنس بعد إنكاره لآثار عقبة فى تلك الغزوة إلى الاعتراف ببعض آثاره فيقول « لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه بقاض على كل أثر المسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضيا على بعض الأثر السياسى لأن عمل عقبة لم يكن سياسيا وإنما كان دينيا[٢] » وقفل عقبة بعد وصوله إلى البحر المحيط قاصد القيروان « فلما انتهى إلى ثغر أفريقية إذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموها فوجا فوجا وعند طبنة[٣] إذن لمن بقى معه بالانصراف إلى القيروان ومال فى خيل يسير يريد[٤] تهودة »[٥] وكان عقبة بن نافع قد أساء إلى كسيلة بن لمزم الزعيم البربرى ولم يحفل به عندما تولى أمارة أفريقية للمرة الثانية وتبالغ المصادر فى هذه الإساءة التى وجهها إلى كسيلة غير أن الشىء الذى لاشك فيه أن كثيرا من

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(٢) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠١ ، ٢٠٢

(٣) طبنة : بلدة فى طرف أفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب انظر معجم البلدان (٢٨/٦) .

(٤) تهودة : مدينة فى جنوب جبال أوراس وفى الجنوب الشرقى لمدينة طبنة وتبعد عنها ٣٧,٥ ميلا . شيت خطاب فتح المغرب ج ١ ص ١١١ .

(٥) المالكى رياض النفوس ص ٢٥ .

البربر والروم كانوا يتحينون الفرصة التي يتمكنون فيها من القضاء على عقبة بعد فل جموعهم وشتت شملهم وانتصر عليهم في كل المواقع التي خاضها ضدهم فما زالوا يتربصون به حتى واتتهم الفرصة عندما انفرد بعيدا عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه .

فقد « عرض له كسيلة بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن معه[1] .

وهكذا كان عدم الحذر حتى بعد الانتصار هو السبب الذي مكن الروم والبربر للتجمع واغتنام الفرصة للقضاء على عقبة وحمل الجيش الإسلامي على مغادرة أفريقية وترك القيروان حيث حاول كسيلة اغتنام كل أبعاد الفرصة التي واتته لجمع أهل المغرب وزحف إلى القيروان « فانقلبت أفريقية ناراً وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة[2] ويعلل الرقيق القيرواني خروج جيوش المسلمين من القيروان وعدم تصديهم لكسيلة والدفاع عن القيروان بعدم القدرة على مواجهته مع جموعه الغفيرة واعتقادهم بأن الهزيمة ستحل بهم حيث « لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما اجتمع معه من البربر والروم وأسلموا القيروان وبقي بها أصحاب الذراري والأثقال فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم وأجابهم وأقام كسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميرا على أفريقية وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده[3] » .

وبذلك تحقق لكسيلة بعد أن تمكن من اغتيال عقبة من أن يكون

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٨ .

(٢) رياض النفوس للمالكي ص ٢٨ .

(٣) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٤٦ .

أميرا على كل أفريقية حيث أمن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين وأقام بالقيروان أميرا على سائر أفريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان . ولقد حاول خليفة عقبة على القيروان زهير ابن قيس البلوى أن يقاتل كسيلة بمن بقى من الجيش مع الحامية التى تركها عقبة عند مغادرته القيروان وأن يدافع عن القيروان غير أن أثر قتل عقبة وما اجتمع حول كسيلة من الأعداد الكثيرة من الروم والبربر حمل حنش الصنعانى[1] أن يجاهر بتفضيل الانسحاب من القيروان على لقاء كسيلة بجموعه « لاعمل أفضل من النجاة بهذا العصابة من المسلمين إلى مشرقهم[2] » . واضطر زهير خليفة عقبة إلى مغادرة القيروان تحت هذه الظروف القهرية الخارجة عن إرادته بالنسبة للعدو وللحامية التى معه حيث خالفه حنش[3] الصنعانى وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العودة معهم فسار إلى برقة وأقام بها[4] .

ولاشك أن قتل عقبة فى تهودة كان مأساة حقيقية كما يقول الدكتور

---

(١) حنش الصنعانى : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة تابعى كبير ثقة روى عن رويفع بن ثابت ، وأبى هريرة غزا المغرب وسكن افريقية وهو أول من ولى عشور أفريقية فى الإسلام ، غزا الأندلس مع موسى بن نصير توفى سنة ١٠٠ هـ شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .

(٣) يذكر اللواء محمود شيت خطاب فى قادة فتح العرب للمغرب أن الصحيح هو حنش لاجيش ج ١ ص ١٥٢ وهو حنش فى البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣١ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٤ .

شكرى فيصل(١) وإن كان لم يفن الجيش كله فى تهودة وإنما استشهد عقبة والعدد القليل الذى كان معه ثلاثمائة مقاتل . ولقد قتل النعمان بن مقرن فى موقعة نهاوند ولكن كان النصر فى المعركة .

ولذلك فإننى ألقى بعض المسئولية فى خروج البلاد من طنجة إلى القيروان على بقية قوات الجيش التى آثرت الانسحاب ولم تمل إلى رأى زهير فى مقاومة كسيلة ولو حدث وانصتت القوات المقاتلة إلى حديث زهير وهو يناديهم « يامعشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك(٢) » لكان لهم النصر على هذه القوات التى انتصروا عليها من قبل وسينتصرون عليها بعد ذلك ولم يفضلوا الانسحاب على المواجهة .

زهير بن قيس البلوى : يسترد القيروان :

لاشك أن مدينة القيروان قد أسست لتكون مدينة إسلامية على على المسلمين أن يقطنوها ويدافعوا عنها ويضطلعوا بحمايتها ، ولقد كان تغلب كسيلة واضطراره الجيش الإسلامى إلى الرحيل عنها مخلفا « أصحاب العيال وكل مثقل من التجار وأهل الذمة(٣) » دافعا للمسلمين لاستردادها ثم بعد ذلك متابعة الفتح ، وهكذا نرى مركز القيروان ومكانتها تطالب المسلمين جميعا بأن يدافعوا عنها فيتحدث بشأنها أكابر المسلمين إلى الخليفة مطالبين باستردادها فيستشير الخليفة وزراءه فيجتمع الرأى على تعيين زهير ابن قيس البلوى ليتولى استخلاص القيروان واسترجاع هيبة المسلمين والأخذ

---

(١) حركة الفتح الإسلامى ص ١٧٠ .
(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .
(٣) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٥٥ .

بثأر عقبة بن نافع « فى سنة ٦٥ من الهجرة ولى عبد الملك ابن مروان فلما اشتد سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص أفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا ، فاستشار وزراءه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى وقالوا : هذا صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه فوجه عبد الملك إلى زهير ببرقة فأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى أفريقية ليستنقذ من بالقيروان فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم فأمده عبد الملك ابن مروان بالخيل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى أفريقية »[1] .

ولقد كان لكل من الشام ومصر أثر واضح فى هذا البعث الذى أسند إليه استرداد القيروان حيث قامت مصر بتقديم الأموال والشام بتقديم الرجال فقد « أرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد »[2] .

أما زهير فقد قضى هذه الفترة — منذ غادر القيروان بعد قتل عقبة إلى أن وجهه الخليفة عبد الملك بن مروان لاستنقاذ القيروان — مرابطا فى برقة يذود عنها من يريد بها سوءا وخاض كثيرا من المواقع هو ومن معه من الجيش الأفريقى[3] . فكانت له بها وقائع كبيرة .[4] .

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣١ .

(٢) رياض النفوس للمالكى ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) تاريخ أفريقيا والمغرب الرقيق القيروانى ص ٤٧ .

(٤) رياض النفوس للمالكى ص ٣٠ .

ولقد استمر حكم كسيلة للقيروان خمس سنين اتسع فيها سلطانه وأعطى الأمان للعرب الذين تخلفوا عن اللحاق بالجيش من أهل الذرارى والأثقال وعظم خلالها سلطانه على البربر(١) .

وكان إسناد عبد الملك ولاية أفريقية إلى زهير لكى يستنقذها من يد كسيلة سنة ٦٩ ووجه إليه جيشا كبيرا قدره صاحب تاريخ المغرب الكبير بعشرة آلاف جندى(٢) . وعندما أحس كسيلة بقدوم جيش المسلمين أحضر أشراف أصحابه وعرض عليهم اختيار ممس(٣) مكانا للمعركة بحيث يكون آمنا من عدو المسلمين فى القيروان ثم إذا هزم العرب تتبعهم وقطع أثرهم من أفريقية كلها وإذا هزمه العرب لجأ إلى الجبال ونجا من قبضة المسلمين فأجابه أصحابه إلى رأيه فغادر القيروان متجها إلى ممس ليتمكن من الفرار من وجه العرب عند الهزيمة(٤) .

وكان استعداد كسيلة لخوض المعرض المعركة استعدادا تاما فقد تمكن من حشد عدد عظيم من البربر والروم تحت لوائه بلغ أضعاف جند المسلمين كما استشار رؤساء الجند وأشرافهم وكل ذلك أعطى لجنوده روحا معنوية جعلتهم لا يهابون المسلمين(٥) .

وكما استعد كسيلة للمعركة وحدد مكانها فى ممس فإن زهيرا حدد زمانها فلم يلتق بكسيلة فور وصوله إلى القيروان بعد أن قطع جيشه مئات الأميال

(١) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٢) تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ممس / مدينة بيزنطية قديمة وتقع فى جنوبى القيروان المالكى رياض هامش ص ٢٨ .

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥

(٥) أنظر الرقيق تاريخ أفريقيا ص ٤٩ ، ٥٠ البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٢ .

بل نزل قريبا من القيروان ولم يدخلها ومكث بها ليستريح جيشه ويأخذ حظه من الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التى يأخذ بها الثأر لعقبة ويحمى القيروان ويستنقذها من كسيلة وبعد ثلاثة أيام من الراحة زحف فى اليوم الرابع فوقف على كسيلة وعسكره آخر النهار . فلم يناذله ولكن الجيش بقى على مصافه طوال الليل فلما أصبح صلى مغلسا ثم تزاحف الجيشان والتحموا فى قتال عنيف ونزل الصبر وكثر القتل فى الفريقين حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل بممس ولم يجاوزها[1] وكتب الله النصر للمسلمين فتتبعوا فلول الجيش المنهزم ولم يمكنوهم من اللحاق بالجبال التى كانوا يريدون الاحتماء بها وقد قتل فى هذه الوقعة كثير من ملوك البربر وأشرافهم وفرسانهم كما قتل من الروم أعداد كثيرة مما أدخل الرعب والفزع فى قلوب الروم والبربر ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطانها[2] .

لقد كان لموقعة ممس فى أفريقية أثر كبير فى إعادة هيبة المسلمين لما كانت عليه قبل مقتل عقبة كما أعادت للمسلمين ما اتسموا به من عدم الخوف من عدوهم مهما كان فى كثرة كاثرة ، وكان لهـــا من الأثر الكبير فى نفوس البربر الذين كانوا يقاومون المسلمين مثل الذى كان لمعركة تهودة فى نفوس المسلمين من أثر قبل ، فتا فى العضد وإثارة الرعب ،[3] وتقوية للروح المعنوية بين المسلمين .

وهكذا استطاع زهير أن يخلص القيروان وأن يسترد للمسلمين هيبتهم فى أفريقية ولكنه بعد أن يستقر له الامر ويطمئن إلى أن المسلمين قد أصبحوا فى أمان من أعدائهم يترك بالقيروان عسكرا كثيرا من أصحابه ويرحل فى جمع آخر قاصدا المشرق غير مصغ إلى طلب رؤساء أصحابه بالمقام فى القيروان .

---

(١) الرقيق تاريخ افريقيا ص ٥٠ ، ٥١

(٢) المالكى رياض ص ٣٠ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٣٢ .

(٣) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول وشكرى فيصل ص ١٧٢ .

وعند وصوله إلى برقة يلتقى بالروم المغيرين عليها حيث يلقى ربه شهيدا فى سبيل انقاذ اسرى المسلمين فى برقة .

فقد استغل الروم خروجه من برقة قاصدا أفريقية لقتال كسيلة واعدوا حملة بحرية كبيرة للاغارة على برقة خرجت إليها من صقلية وتمكنوا من سبى كثير المسلمين وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك عودة زهير من القيروان وشاهد مع رجال طليعته ما فعلته تلك الحملة ضد المسلمين فخاض المعركة ضد المغيرين استنقاذا لسبى المسلمين الذين استغاثوا به عند رؤيته غير مبالى بالا إلى تفوق الجيش المغير على من معه وباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب فتكاثر الروم عليه فقتلوا زهيرا ومن معه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية (١)

لقد اقتص زهير من البربر لمقتل عقبة ولكنه يعود ليستشهد فى برقة بقوة مغيرة من الروم مما سيوجه نظر حسان بن النعمان الذى سيتولى أمر أفريقية بعده إلى محاولة القضاء على النفوذ الرومى فى شمال أفريقية حتى يقضى على كل أمل للقسطنطينية فى الشمال الأفريقى كله .

ولكن لماذا عاد زهير من القيروان إلى برقة أو المشرق ؟ .

يشير ابن عذارى وابن الأثير إلى أسباب العودة بأن زهيرا رأى أفريقية ملكا عظيما فأبى أن يقيم بها وقال « إنى ما قدمت إلا للجهاد وأخاف أن نميل إلى الدنيا فأهلك (٢) » ويتفق معهما المالكى والدباغ بعبارة

---

(١) أنظر المالكى رياض ص ٣٠ ، ابن الاثير الكامل ح ٤ ص ٥٥ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٣٢ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٢ ، الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٥٥ .

أخرى قريبة من ذلك ، انما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا »[١] .

ويعلل ابن خلدون عودة زهير بقوله « ثم ترهب[٢] زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد[٣] برقة » أما الرقيق القيرواني فيذكر ما هو قريب من ذلك من رفض زهير لملك الدنيا ورغد عيشها « إنى قدمت إلى الجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك ولست أرضى بملكها ورغـــد عيشها[٤] » .

هذا مايعلل به المؤرخون القدامى عودة زهير ولم يطمئن إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس ويقول عنه : « تعليل ضعيف لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط على دار الحرب ... ثم يقول يبدو أن زهيرا اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بأفريقية من المسلمين .... ويبدو كذلك أن الرجل كان مستاحين م بمهمته تلك وأنه لم يقم بها ألا طلبا لثأر صاحبه فلما فرغ منه عجل بالعودة[٥] » .

أما صاحب قادة فتح العرب للمغرب فيرى « أن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة لذلك سارع إلى العودة حتى لايقطع الروم خطوط مواصلاته أولا ، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الإسلامية ثانيا خاصة أنه يعرف أن منطقة برقة

---

(١) رياض النفوس المالكي ص ٣٠ ، ومعالم الإيمان للدباغ ج ١ ص ٥٩ .

(٢) لعله يقصد زهد في الإمارة .

(٣) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

(٤) تاريخ أفريقية والمغرب الرقيق القيرواني ص ٥٢ .

(٥) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريبا[١] » .

ويوجز صاحب حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول رأيه بقوله : « وعاد زهير ادراجه إلى برقة مكتفيا بما حقق من نصر[٢] » ويقول صاحب المغرب الكبير « ولكن لسبب مالا يمكننا تعليله قرر زهير القفول إلى برقة[٣] » .

وهكذا نرى أن المحدثين من المؤرخين لايميلون إلى الأخذ برأى قدامى المؤرخين .

ويبدو لى أن زهيرا ربما كان لايزال متأثرا بما حدث عقب مقتل عقبة من اختلاف الناس عليه وأنه رأى ذلك طعنا فى قيادته فأثبت جدارته وانتصر لمقتل عقبة وبعدد أقل من جند عدوه واسترجع القيروان وأمنها وأقام عليها من يقوم بأمرها ثم بداله أنه قد اتم ما تطمئن إليه نفسه فترك ولاية أفريقية وعاد . يضاف إلى ذلك أنه كان يزهد فى الأمارة ويرى أن امارته كانت لمهمة قد قام بها وربما يشير إلى ذلك ماعبر عنه الدباغ بعد اختيار عبد الملك له بقوله « فلما اتصل ذلك بزهير سره ذلك وسارع إلى الجهاد وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه من الرجال وقلة الأموال[٤] . ومع ذلك فانى أقول مع الدكتور حسين مؤنس : « ذلك قصارى مايمكن افتراضه لتعليل تلك العودة وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لازال

---

(١) قادة فتح العرب المغرب شيت خطاب ج ص ١٦٠ .

(٢) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول شكرى فيصل ص ١٧٢

(٣) المغرب الكبير سيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٤) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٥٧ .

غامضا يحتاج إلى كثير من الايضاح [١] .

حسان بن النعمان الغساني [٢] يثبت اقدام المسلمين فى افريقية ويقضى على مقاومة الروم والبربر:

لقد استطاع زهيران ينتصر على كسيلة وبذلك تحقق الانتصار على بربر الشمال أو البرانس وبقى بربر الجنوب البتر الذى يسكنون الأوراس ، كما بقى الروم الذين يسكنون معقلهم الحصين قرطاجنة وما يليها من مدن الساحل .

ولقد كان استشهاد زهير محددا ان يأتى بعده للأخذ بثأره العدو الذى يجب أن يقضى عليه حتى يصير المسلمون فى مأمن من مثل هذه الهجمات ويتفرغوا للمهمة التى يضطلعون بها من نشر الإسلام وتعاليمه فى تلك البقاع ثم حمله إلى غيرها من البقاع أن استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

لقد استاء عبد الملك بن مروان الخليفة لاستشهاد زهير ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة [٣] .

وكان لقتله اثره البعيد فى افريقية فقد « اضطرمت افريقية نارا وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم [٤] مما دعا اشراف المسلمين واصحاب الرأى بأن يطلبون من الخليفة أن يوجه إلى افريقية من يستطيع أن يقوم بأمرها حتى تثبت اقدام المسلمين فيها فكان اختيار الخليفة لحسان بن النعمان

---

(١) فتح العرب المغرب حسين مؤنس ص ٢٢٨ .

(٢) انظر شيت خطاب قادة فتح العرب المغرب ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٣ ، المؤنس لابن ابى دينار ص ٣٣ .

(٤) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

ليتولى أمرها افريقية وزكاه بأنه لا يصلح لأفريقية أحد سواه ويعبر المالكي عن ذلك بأن أشراف المسلمين سألوا عبد الملك أن ينظر إلى أهل أفريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك « ما أعلم أحدا أكفأ بأفريقية من حسان بن النعمان الغساني [١] » .

واختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى توجه فيها حسان إلى افريقية اختلافا كثيرا فهو يتردد بين « سنة تسع وستين الدباغ [٢] والمالكي وسنة ثلاث وسبعين ابن عبد الحكم [٣] وأربع وسبعين ابن الأثير [٤] وست وسبعين وثمان وسبعين .... ابن ابى دينار [٥] وتسع وسبعين الباجى [٦] » ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن الأمر صدر بتعيين حسان ثم أمر بالبقاء فى مصر لما قد يجد من أمر آخر بالنسبة للدولة . يضاف إلى ذلك أن حسان عندما توجه بحملته الأولى فقاتل الروم فى قرطاجنة ثم قاتل الكاهنة فانهزم إلى قصور حسان ببرقة ومكث هناك إلى أن وصلته الأمداد مرة أخرى ليقود حملته الثانية التى قضى بها على الكاهنة ثم طهر قرطاجنة للمرة الثانية : كل ذلك قد جعل المؤرخين يظنون أنه سار إلى افريقية منذ اختياره وجعلهم يخلطون بين حملته الأولى والثانية يقول ابن عذارى « قدم حسان ابن النعمان افريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا : أقامه أولا فى مصر بالعسكر عدة لما يحدث . ثم كتب إليه

---

(١) رياض النفوس للمالكي ص ٣١ ، الرقيق القيروانى تاريخ أفريقيا والمغرب ص٥٣ ، ٥٤ .

(٢) معالم الإيمان جـ ١ ص ٦٠ ، رياض النفوس ص ٣١ .

(٣) فتوح مصر ص ٢٠٠ .　　　(٤) الكامل ص ٥٥ .

(٥) المؤنس ص ٧٣ .　　　(٦) الخلاصة النقية ص ١٠ .

يأمره بالنهوض إلى أفريقية ويقول له « إني أطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك وأعط الناس واخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه »[1] .

وهكذا نرى ثانيا أن أموال مصر توجه لأجل إتمام الفتح في أفريقية ويكون إعداد الجيش صادرا من مصر ثم ينضم إلى الجيش من أقام من العرب في برقة ومن أسلم من البربر في برقة أيضا بحيث نرى في الجيش قيادات من بين هؤلاء البربر الذين شرح الله صدرهم للإسلام وقد استفاد حسان بخبرة تلك القوات فيوجهها في المقدمة حيث مضى « في جيش كبير حتى نزل أطرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من أفريقية وأطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن بكير وهلال بن ثروان اللواتي »[2] وسار الجيش إلى أن وصل إلى القيروان فسأل حسان أهلها عن أعظم الملوك بأفريقية قدرا فقالوا : « صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية »[3] ولم يكن أحد من القواد السابقين قد تمكن من التغلب عليها فسار حسان إليها وخرجت إليه قواتها مع رئيسهم فقاتلهم حسان حتى هزمهم وقتل معظمهم ثم حاصرها

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ويتفق معه في أن عدد الجيش أربعون ألف كل من صاحب المؤنس ص ٣٣ وصاحب الخلاصة النقية ص ١٠ ويقول عنه ابن الأثير في الكامل لم يدخل افريقية جيش مثله ج ٤ ص ١٧٩ والمالكي في الرياض ص ٣١ والدباغ في معالم الإيمان ج ١ ص ٦ يذكران عدد الجيش ستة آلاف وأن ذلك سنة تسع وستين .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠٠

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ، ويزيد صاحب الخلاصة قوله هي المدينة العظمى قريبة رومة وضرتها واحدى عجائب الدنيا ص ١٠

حتى افتتحها و « كانت دار الملك بأفريقية[١] ويوضح ابن الأثير كيفية الاستيلاء عليها ويبين ماحدث للمدينة وسكانها وأنهم عندما أدركوا تصميم حسان على الاستيلاء عليها وعدم نجاتهم منه قرروا الهرب منها . ثم هدم حسان بعض أجزائها فقد قاتلهم « وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا فى مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا إليه خوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ماقدروا عليه[٢] » و « قطع القناة عنها »[٣] .

ولقد حاول الروم أن ينتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة فجمعوا عسكرا عظيما بموضع يسمى صطفورة[٤] وحاولوا الاستعانة بالبربر ليتمكنوا من الانتصار على حسان ولكن الجيش الإسلامى استطاع بعد قتال عنيف قدم فيه كثيرا من الشهداء أن يتغلب عليهم وأن يتبع آثارهم فينحاز الروم إلى باجة[٥] والبربر إلى بونة[٦] فقد « اجتمع عليه — أى

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ١٨٠

(٣) المالكى رياض النفوس ص ٣٢

(٤) صطفورة : بلدة من نواحى أفريقية : انظر معجم البلدان « ٣٥٦/٥ » نقلا عن قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠

(٥) باجة : بلدة بأفريقية تعرف « بباجة القمح » لكثرة محصولاتها من القمح انظر التفاصيل فى معجم البلدان « ٢٥/٢ » نقلا عن شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠ .

(٦) بونة : مدينة حصينة بافريقية تقع على البحر نفس المرجع السابق ونفس الصفحة « ٣٠٩/٢ »

حسان — الروم وغدوا عليه عسكرا عظيما لايعلمه إلا الله تعالى وأمدهم البربر وذلك فى بلد تسمى صطفورة فزحف إليهم فقاتلهم قتالا عظيما وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضى الله تعالى عنا وعنهم ثم إن الله تبارك وتعالى ضرب فى وجوه الذين كفروا من الروم والبربر فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلا عظيما واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فما نزل فى بلادهم موضعا الأوطئة بخيله ولجأ الروم خائفين هاربين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها وهرب البربر إلى إقليم بونة . . . ثم انصرف أى حسان إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه (١) .

بهذا انتهى حسان من القضاء على عقبة كأداء كانت تقف فى وجه من سبقه وهم الروم فى الشمال من أفريقية حيث لم يسبق أن تغلب عليهم أحد من المسلمين قبله وتمكن من فتح قرطاجنة وتطهيرها من سلطان الروم عليها وبقى عليه أن يتغلب على داخل البلاد على الأوراس ولذلك بعد أن اطمأن إلى أخذ الجيش لقسط من الراحة وبرء جراح جنوده ولى وجهه نحو داخل البلاد لكى يقضى على أية مقاومة تعترض سبيله أو تقف دون تبليغ دعوة الله . ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنه « سأل أهلها — أى القيروان — عمن بقى من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم »(٢) ومن هنا نرى أنه لم يكن القصد من الحرب هو التغلب وإنما الحرب عند الوقوف فى وجه تبليغ كلمة الله فإن قبلت فلهم مالنا وعليهم ماعلينا وإلا فامتشاق الحسام . فكانت الإجابة بإخباره عن الكاهنة التى صار إليها رياسة البربر وقيادة بربر الداخل آبن ويضيف ابن خلدون أنه قد صارت إليها

---

(١) رياض النفوس للمالكى صـ ٣٢ وانظر ابن عذارى ج ١ صـ ٣٥ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ صـ ٣٥ .

رياسة البربر بعد قتل كسيلة وانضمام قبائل بنى يفرن وغيرهم إليها ، فلما انقضى جميع البربر وقتل كسيلة ، رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس[١] وقد ضوى إليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر ،[٢] فإذا ماتمكن حسان من التغلب عليها فقد دان له المغرب كله وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة ولذلك توجه إليها حسان بجيوشه والتقى معها على نهر نيني[٣] ولكنه لقى هزيمة منكرة أدت إلى ضياع كل أفريقية بعد قتال عنيف وشاق كأنه الفناء ، وفقد عددا كبيرا من الشهداء ولقد تتبعته الكاهنة بعد الهزيمة حتى خرج من قابس ويعبر المالكى عن اللقاء بين حسان والكاهنة فى تلك الموقعة بأنهم « اقتتلوا قتالا شديدا فعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس[٤] فأسلم أفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل ثمانين رجلا منهم خالدبن يزيد العبسى وكان رجلا مذكوراً »[٥] .

وهكذا يتخلى الجيش الإسلامى عن أفريقية إثر هذه الهزيمة وإن كان المسلمون مازالوا فى عاصمتهم لم تتعرض لهم الكاهنة . ولكن الروم حاولوا استرداد عاصمتهم فى أفريقية قرطاجنة بعد أن أرغموا تحت ضغط جيش

---

(١) أوراس جبل بأفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر ويقع بالجزائر

(٢) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩ .

(٣) نني : نهر مشهور بأفريقية معجم البلدان (٣٦٩/٨) عن شيت خطاب قادة الفتح العربى ج ١ ص ١٨٣ .

(٤) قابس : مدينة طرابلس وسفاقس على ساحل البحر نفس المرجع السابق ١٨٣ .

(٥) رياض النفوس للمالكى ص ٣٢ ، ٤٣ .

المسلمين على الفرار منها وكان استردادهم لها من المسلمين متسما بالقسوة والعنف فاعدوا أسطولا كبيرا بقيادة البطريق يوحنا » وظهر الأسطول البيزنطى فى مياه قرطاجنة فى سنة ٦٩٧ م (٧٨ هـ) وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يسر وطرد المسلمين الذين كانوا فيها وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس وتقفورا »[١].

وكتب حسان يخبر الخليفة بهذه الهزيمة وما ترتب عليها ويقول : « إن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم وهى من الجهل والكثرة كسائمة النعم » فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه فى عمل برقة فأقام بها وبنى هناك قصورا تسمى إلى الآن بقصور حسان[٢] ، ولقد تأخر ورود المدد من الخليفة لمدة طويلة جعلت الكاهنة صاحبة الشأو فى أفريقية وفى تصريف شئونها حيث « ملكت أفريقية خمس سنين منذ هزمت حسان[٣] ، والمالكى والدباغ يحددان المدة التى ملكت فيها الكاهنة أفريقية بثلاث سنين ويعبران عن ذلك بأن حسان قد لقيه كتاب أمير المؤمنين » وهو نازل بمكان يقال له اليوم قصور حسان فبنى هناك قصرا لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين وملكت الكاهنة

---

(١) فتح العرب للمغرب الدكتور حسين مؤنس ص ٢٥٤ عن ديبل .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٦ ، قصور حسان : قصور بناها حسان فى منطقة برقة .

(٣) أنظر الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦١ ، البيان المغرب ج ١ ص ٣٦ .

إفريقية كلها »[1] .

وسواء ملكت الكاهنة ثلاث سنوات أو خمس سنوات فماذا فعلت خلال هذه المدة وماذا فعل حسان بن النعمان ؟ .

أما بالنسبة للكاهنة : فقد اخطأت الغرض من قدوم المسلمين إلى أفريقية وظنت انهم انما يقدمون للسلب والنهب للاستيلاء على المدن والذهب والفضة كما كان يفعل الغزاة سابقا وهداها تفكيرها إلى أنها إذا اتلفت ذلك فقد استطاعت أن تقطع أمل المسلمين فى العودة إلى أفريقية حيث لا يوجد بها ذهب أو مدن . ولقد كان ذلك خطأ كبيرا من الكاهنة مما عجل بالقضاء عليها وجعل أهل البلاد خارج الأوراس ينقلبون عليها بل دعا بعضهم إلى اللجوء إلى حسان يستغيثون به من الكاهنة وسياستها المخربة وما لحقهم منها خلال انسحاب القيادة الإسلامية إلى برقة . ويعبر الرقيق القيروانى عن ذلك بأن الكاهنة لما « ابطأ العرب عنها قالت للبربر : إن العرب انما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نطلب منها المزارع والمراعى فما نرى لكم ألا خراب أفريقية حتى ييأسوا منها ويقل طمعهم فيها فوجهت قوما إلى ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون »[2] كما يعبر ايضا عن استغاثة أهل أفريقية بحسان لينقذهم من الكاهنة ويصور حسن استقبالهم له بأنه قد « لقيه من النصارى فى طريقه ثلثمائة رجل يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ومضى أى حسان حتى وصل إلى قابس ، فخرج إليه أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مر بهم فأستأمنوا إليه وأدخلو عامله فأمنهم على مال معلوم فاستطال طريق القيروان فال إلى

(١) رياض النفوس المالكى ص ٣٣ ، الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٣ .

(٢) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص ٦١ .

طريق قفصة (١) وقسطيلية (٢) ونفزاوة (٣) وبعثوا إليه أيضا يستغيثون به من أمر الكاهنة فسره ذلك (٤). وهكذا ادرك السكان الفرق البعيد بين سياسة المسلمين وسياسة الكاهنة البربرية مما جعلهم يفضلون حكم المسلمين ويستغيثون بحسان ليخلصهم من الكاهنة.

أما بالنسبة لحسان: فقد قضى هذه المدة يستعد لخوض المعركة الفاصلة ويأخذ لها الأهبة كاملة ومن أهم ما قام به فى ذلك بعد طلب المدد من الخليفة هو استطلاع أحوال العدو والتمكن من معرفة مواطن القوة والضعف حتى يستطيع أن يوجه إليه الضربة القاضية. ولقد استعان فى ذلك بأحد الأسرى المسلمين الذى لقى من الكاهنة تقديرا عظيما وصل إلى أن تبنته على عادة البربر (٥) فأرسل إليه حسان رسولا لكى يستطلع حالة الكاهنة

---

(١) قفصة: بلدة صغيرة فى طرف أفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام أنظر التفاصل فى معجم البلدان (١٣٨/٧) شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٩٧.

(٢) قسطيلية: بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير معجم البلدان (٨٨/٧) نفس المرجع السابق والصفحه.

(٣) نفزاوة: مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب معجم البلدان (٣٠٣/٨) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) تاريخ أفريقية للرقيق ص ٦١، ٦٢.

(٥) وذلك كما يقول ابن عذارى ج ١ ص ٣٧ وحبست عندها خالد بن يزيد. فقالت له يوما: «ما رأيت فى الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدى وكان لها إبنان أحدهما بربرى والآخر يونانى وقالت له: نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به فعمدت إلى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت: كلا معه على ثديى ففعلا فقالت «قد صرتم أخوة».

وحالة البربر فأجابه بوصف كامل عن حالة جندهم ومقدار تماسكهم فى الرأى والمشورة وحث حسان على سرعة القدوم لأن الفرصة سانحة ويصور الدباغ كيفية هذه المخابرات ووسائلها بأن يزيد أرسل كتابا « إلى حسان مع رسوله وجعله فى خبزة مله قد انضجها ثم دفعها إلى الرسول ليخفى الكتاب ليظن من رأى الخبزة أنه زاد للرجل ... وفيه — أى الكتاب — كل مايحتاج إليه من خبر الكاهنة يقول فيه « ان البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم فى الرأى وانما ابتلينا بأمر قدره الله واكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة فإذا نظرت فى كتابى هذا فاطو المراحل وجد السير فإن الأمر إليك ولست اسلمك إن شاء الله ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم » (١) .

وعندما أتم حسان الاستعداد للقاء الكاهنة ووصلته الأمداد من جنود العرب وفرسانهم ومن انضم إليهم ممن أسلم من البربر سار إلى الكاهنة والتقى بها مع جيشها وتمكن من هزيمتها وقتلها . ورغم كثرة جمعها وضراوة المعركة فقد تمكن من « فض جموعهم وأوقع بهم وقتل الكاهنة واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف » (٢) .

وهكذا تمكن حسان من القضاء على الكاهنة واقتحام الأوراس وقدم إليه البربر يطلبون الأمان ويعلنون الاسلام والطاعة ولكن لما يعرفه حسان من كثرة ارتداد البربر أحب أن يشركهم معه فى الحرب ويكونوا من جنود الدولة يذودون عن حياضها . ثم بعد التفقه فى الدين يكون لهم نصيب كبير وحظ عظيم بالمشاركة فى الفتوح القادمة . ذلك أن البربر

---

(١) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩ .

قد استأمنوا إلى حسان « فلم يقبل أمانهم الا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوه واسلموا على يديه فعقد لوامين لولدى الكاهنه لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون فى أفريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر وحسن اسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان إلى مدينة القيروان [1] » .

وبذلك قضى حسان على البربر فى الداخل ولم يبق إلا أن يسترجع قرطاجنة من الروم الذين تمكنوا من طرد المسلمين منها اثناء إقامة حسان فى برقة فتوجه بقواته إلى قرطاجنة حيث قاتل أهلها قتالا شديدا شعر منه أهلها بأنهم لاطاقة لهم به مما جعلهم يصانعونه بأنهم يريدون الصلح . وكان ذلك خديعة منهم حتى يلهو رقباء حسان وعيونه ليتمكنوا من مغافلتهم ، فلما كان الليل ركبوا سفنهم فادين إلى صقلية والأندلس ظانين انهم سوف يعودون ثانيا عندما تتيح لهم الظروف ذلك ولكنه كان خروجا ابديا ودخل حسان المدينة وأزال منها ماكان يعتصم بة الروم وأقام بها مسجدا فكان الهداية المشعة لمن يقيم بها ممن شرح الله صدره للاسلام . والمالكى والدباغ من مؤرخى المغرب القدامى ينفردان بالحديث عن فتح قرطاجنة بعد تمكن حسان من القضاء على البربر فى الجنوب وانقيادهم للاسلام وأن كان يشاركهما باشارة موجزة صاحب المؤنس فقد سار حسان « يريد قرطاجنة ... فخرج إليه أهل قرطاجنة فحاربوه حربا شديدة فهزمهم الله وملك حسان لحصن تونس وقرطاجنة فلما رأت الروم قهرته لهم وعلموا أنهم لاقوام لهم به سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج فأجابهم إلى ذلك وأدخلوا ثقلهم فى مراكب كانت عندهم معدة فى البحر وهربوا من باب

---

(١) تاريخ أفريقيا والمغرب الرقيق القيروانى ص ٦٤ .

يقال له باب النساء فى الليل وحسان لاعلم عنده بذلك وتركوا المدينة خالية لا أحد فيها ونزلوا بجزيرة صقلية وبعضهم بالاندلس فدخلها حسان فأخربها واحرقها وبنى بها مسجدا » (١).

وبذلك تمكن حسان من القضاء على مقاومة البربر فى الداخل ثم القضاء على الروم فى الساحل وتوج أعماله بالشروع فى إقامة مدينة ساحلية تكون عينا للقيروان على شاطىء البحر ومحرسا ترقب تحركات الروم وترد عادياتهم ، كما تحتل المركز الممتاز الذى كان لقرطاجنة من قبل وتكون مدينة وميناء اسلاميا عوضا عنها ايقيم بها المسلمون ويبنوا بجوارها دار صناعتهم فتتحول إلى ميناء حربى وتجارى يشرف على حوض البحر المتوسط « لحسان هو الذى فرق البحر إليها — أى تونس — وجعلها دار صناعة فأخرج إليها الماء وأجراه من البحر إليها (٢) ، وبذلك تحقق للمسلمين فى أفريقية الأمن من البحر كما تحقق لهم الأمن من الصحراء .

وقد كان لانشاء دار الصناعة وتعميرها وجلب الخبراء إليها من مصر بأسرهم هو الاستعداد الحقيقى للدور الكبير الذى ستقوم به القيروان بأسطولها القوى من الإغارة على شواطىء الروم فى عقر دارهم وشغلهم عن بلاد الاسلام فى المشرق (٣) وبذلك توج حسان أعماله الحربية بالتوجه إلى الأعمال الادارية والانشائية المعمارية والصناعية التى كان لها الأثر البعيد فى إفريقية وتثبيت الإسلام فيها إلى الأبد أن شاء الله . فقد « استقامت

---

(١) رياض النفوس المالكى ص ٣٧ ، أنظر الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن أبى دينار المؤنس ص ٣٥

(٢) للدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٨ .

(٣) الرقيق القيروانى ص ٦٥ ، ٦٦ تاريخ أفريقية والمغرب .

بلاد إفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية [١] ، كما جدد بناء مسجد القيروان وأحسن بناءه وأقام حسان فى مدينة القيروان مقر الولاية الأفريقية يوجه منها شئونها ويدير أحوالها وقد عمرها المسلمون واطمأنوا إلى سكناها .

« وانتشروا وكثروا فيها وأمنوا وولى حسان على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى رضى الله تعالى عنه[٢]» .

وعندما تمهدت إفريقية وأمن أهلها رحل حسان عنها قادما على الخليفة فى دمشق بعد أن أدى واجبه عسكريا وإداريا واطمأنت نفسه إلى ما قام به من أعمال .

ذلك أن عبد العزيز بن مروان والى مصر « قد عزله عن أفريقية ، ليولى عليها أحد اتباعه وأرسل إليه أربعين رجلا من أشراف أصحابه ليتحفظوا على ما معه من الغنائم [٣] فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتى جارية من خيار ما معه ... فتخير ما أحب وأخذ منه خيلا كثيرة ورحل حسان بمن معه بن السبى والجمال والأنعام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك وانكره فقال حسان لمن معه « ايتونى بالقرب فأتى بها ففرغت بين يدى الوليد مما فيها من الجواهر والذهب والفضة فاستعظمه

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ص ٣٨ .

(٢) رياض النفوس المالكى ص ٣٨ .

(٣) الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية المغرب ص ٦٦ ، البيان المغرب لابن ج ١ ص ٣٨ .

وبهته فقال له : « يا أمير المؤمنين انما خرجت مجاهدا فى سبيل الله وليس مثلى خان الله ولا الخليفة » فقال له الوليد أردك إلى عملك وأحسن إليك « فحلف حسان : أنه لاولى لبنى أمية ولاية أبدا فلما رأى ذلك الوليد غضب على عبد العزيز وكان يسمى حسان الشيخ الأمين — رحمه الله (١)

لقد أدى حسان واجبه بصدق واخلاص جعله خليقا بلقب الشيخ الأمين فعلى يديه تم فتح أفريقية وصارت القيروان عاصمة لها لايحكمها غير المسلمين « واستقامت أفريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل مدة أهل الكفر ، وصارت القيروان دار اسلام وجميع مدن أفريقية إلى يومنا هذا وإلى آخر الدهر أن شاء الله تعالى ، (٢) » وقد كان لهذا الفتح أثر كبير فى الناحية العسكرية التى قام بها القواد والجنود من الصحابة والتابعين الذين تشرف بهم الشمال الأفريقى حيث تمكن سكان هذه البلاد أن يفقهوا حقائق الإسلام : ويكون لهم دور كبير فى الحفاظ على الإسلام ونشر تعاليمه السمحة .

---

(١) الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) رياض النفوس للمالكى ص ٣٨ ، الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٩ .

الفصل الثاني

الحالة السياسية في أفريقية بعد أن تم فتحها

عصر الولاة من بني أمية وبني العباس:

بعد أن تم فتح أفريقية على يد حسان بن النعمان وثبتت أقدام المسلمين فيها توافد الولاة على القيروان من قبل خلفاء بني أمية ثم من قبل خلفاء بني العباس لادارة شئون ولاية أفريقية التي كان مقرها القيروان.

وقد اتسع نطاق هذه الولاية حتى وصل إلى المغرب الأقصى وعبر المضيق إلى الأندلس التي انضوت تحت سلطان المسلمين. فكان والي القيروان هو المسئول عن إدارة هذه الأقاليم الشاسعة. ثم عاد سلطان والي القيروان فانكمش ثانيا بحيث اقتصر على إفريقية وحدها بعد أن استقل الأمويون بالأندلس والرستميون بتاهرت والمدراريون بسجلماسة والادارسة بفاس وبذلك انفصل الأندلس والمغرب الأقصى وبعض أقاليم المغرب الأوسط عن التبعية للسلطة الحاكمة في القيروان.

وقد عانت السلطة الحاكمة في القيروان خلال عصر الولاة كثيرا من الثورات العاتية وتعرضت في بعضها للحصار بل تمكن الثوار في بعض الأحيان من طردها من مقرها والاستيلاء على القيروان نفسها وانتهاك حرماتها ومقدساتها إلى أن قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ.

١ – ولاية موسى بن نصير:

وقد تولى أمر أفريقية بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير

سنة ٨٨ هـ [١] حيث قام بـكثير من الفتوح كان أولها فتح قلعة زغوان ونواحيها وبينها وبين القيروان مسيرة يوم [٢] كامل ثم تابع فتوحه فتوجه غربا إلى المغرب الأقصى ففتح طنجة وانتهت خيـــلة إلى السوس الأدنى [٣] ودان له أهل المغرب بعد حروب كثيرة خاضها ضدهم وأسر فيها كثيرا منهم فانقادوا له ودانو بالطاعة فولى على السوس الأدنى واليـا واستعمل مولاه طارقا على طنجة وما والاها فى سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين ثم انصرف إلى قيروان أفريقية ولم يبق فى أفريقية من ينازعه [٤].

وفى سنة ٩٢ هـ استطاع طارق بن زياد واليه على طنجة أن يغزو الأندلس وينتصر على حاكمها فى المعارك الأولى حيث لحق به موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ الذى تابع فتوح الأندلس [٥] وبذلك صارت الأندلس تابعة للقيروان ثم عاد موسى إلى القيروان — بعد أن ترك ابنه عبد العزيز واليـا على

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ صـ ٤٦ ويذكر البلاذرى فتوح البلدان أنها سنة ٨٩ صـ ٢٧٢ ويذكر ابن عبد الحكم فتوح أنها سنة ٧٨ هـ ويميل إلى أنها سنة ٨٧ وأن التاريخ فى ابن عبد الحكم قد عكس العدد وهذا ما يذكره المقرى فى نفح الطيب جـ ١ صـ ٢٢٣ .

(٢) انظر ابن عذارى جـ ١ صـ ٤٠

(٣) البلاذرى فتوح البلدان صـ ٢٧٢ .

(٤) انظر البلاذرى فتوح البلدان صـ ٢٨٢ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٤٣ ، ابن الأثير الكامل جـ ٤ صـ ٢٠٩ .

(٥) انظر البلاذرى فتوح البلدان صـ ٢٧٣ ، ابن عـــذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٤٣ ، ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠٧ .

الأندلس (١) ليجد كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالقدوم عليه فاستخلف على أفريقية (٢) أكبر بنيه عبد الله وعلى طنجة ابنه عبد الملك ثم توجه إلى دمشق ليصل إليها قبل وفاة الوليد بن عبد الملك بأيام قليلة (٣).

٢ — ولاية محمد بن يزيد :

تولى الخلافة بعد الوليد اخوه سليمان بن عبد الملك فأسند امر أفريقية والمغرب كله إلى محمد بن يزيد مولى قريش وأوصاه بقوله « يامحمد بن يزيد اتق الله وحده لاشريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل اللهم اشهد عليه فخرج وهو يقول « مالى عذر إن لم اعدل » (٤) . وقد وصل محمد بن يزيد إلى مقر ولايته سنة ٩٧ هـ ، ويتحدث المؤرخون عنه بأنه كان حسن السيرة عادلا كما قام ببعث السرايا إلى ثغور أفريقية وقد أسند أمر الأندلس إلى الحر بن عبد الرحمن الثقفي (٥) وقام بمصادرة أملاك أسرة موسى بن نصير فى القيروان وقد استمرت ولايته سنتين واشهرا .

٣ — ولاية اسماعيل بن عبيد الله :

وعندما توفى سليمان بن عبد الملك وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ولى على أفريقية اسماعيل بن عبيد الله بن ابى المهاجر مولى بنى مخزوم

---

(١) تاريخ فتح أفريقية للرقيق ص ٨٥ .

(٢) يقصد بأفريقية هنا القيروان .

(٣) انظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢١٠ ، الرقيق تاريخ أفريقية صـ ٨٨ توفى الوليد بن عبد الملك سلخ جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ المرجع السابق صـ ٩١

(٤) المرجع السابق صـ ٢٣ .

(٥) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ صـ ٤٧ ، الرقيق تاريخ أفريقية صـ ٩٣ ، ويذكر الرقيق أن اسمه الحسن بن عبد الرحمن القيسى .

سنة ١٠٠ هـ الذى بذل جهودا مخلصة لأجل اقرار العدل والسلام كما اهتم بنشر الإسلام والتعريف به بين البربر مما أدى إلى اعتناق كثير من البربر للإسلام ويذكر ابن عذارى « أنه مازال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام حتى اسلم بقية البربر بأفريقية على يديه (١) . كما بعث معه الخليفة بعشرة من التابعين لتعليم أهل أفريقية الحلال والحرام وقد ولى اسماعيل ابن أبى المهاجر على الأندلس السمح بن مالك الخولانى ويجمل المؤرخون الحالة السياسية فى أيام اسماعيل بقولهم « أنه كان خير أمير وخير وال »(٢).

٤ — ولاية يزيد بن أبى مسلم :

وعندما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك أسند ولاية المغرب إلى يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج بن يوسف فقدم إليها سنة ١٠٢ هـ وكان يتسم بالقسوة والظلم سواء بالنسبة للرعية حيث حاول أن يضع الجزية على من أسلم (٣) من أهل الذمة أو بالنسبة لحرسه حيث أراد أن يسمهم على أيديهم حتى يعرفوا بذلك مما أدى إلى تآمرهم عليه وقتله بعد شهر من ولايته .

٥ — ولاية بشر بن صفوان الكلبى :

واختار أهل القيروان محمد بن أوس الأنصارى واليا عليهم . وكان

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، والرقيق تاريخ أفريقية ص ٩٧ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، الرقيق تاريخ أفريقية ص ٩٧ ، وابن عبد الحكم فتوح ص ٣٨ يصفه بأنه كان حسن السيرة

(٣) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨ .

(٤) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ٩٩ ، ١٠٠ .

فى غزو صقلية فبعد عودته قام بالأمر وكتب إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حدث من قتل يزيد بن أبى مسلم واختيار أهل القيروان له [١] . فولى يزيد على أفريقية بشر بن صفوان الكلبى الذى قدم إلى القيروان سنة ١٠٣ هـ فقام بتصفية آل موسى بن نصير كما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى وفى سنة ١٠٧ هـ ولى على الأندلس ثانيا يحيى بن سلمة الكلبى كما أن بشرا مهدأمور أفريقية وغزا صقلية بنفسه فأصاب سبيا كثيرا وعند عودته إلى القيروان أدركته الوفاة فى سنة ١٠٩ هـ [٢].

ونلاحظ هنا سرعة تغيير والى أفريقية فى القيروان الذى كان يغير بالتالى الولاة التابعين له وخاصة فى الأندلس . وقد أدت سرعة هذا التغيير إلى عدم القيام بأعمال هامة سوى ما قام به اسماعيل بن أبى المهاجر من نشر للإسلام بين البربر وكذلك نلمح روح الثورة فى قتل والى القيروان يزيد بن أبى مسلم لعدم قيامه بالعدل فى الرعية والقسوة التى ابداها فى معاملة حرسه الخاص مما أدى إلى قتله .

٦ — ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى :

وفى سنة ١١٠ هـ قدم إلى القيروان عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ليقوم بحكم أفريقية خلفا لبشر بن صفوان من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث عبيدة من قبله إلى الأندلس مدة حكمه أربعة ولاة كان آخرهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الذى غزا فرنسا حيث استشهد سنة ١١٥ هـ

---

(١) انظر المرجعين السابقين البيان ص ٤٩ والرقيق ص ١٠٠ .

(٢) انظر ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٨٨ ، وابن عـــذارى البيان جـ ١ ص ٤٩ .

بموضع يعرف ببلاط الشهداء[١] كما وجه عبيدة المستير بن الحبحاب الحرشي غازيا إلى صقلية فغرقت السفن ولم تصل إلى الهدف المنشود[٢] .

وقد عامل عبيدة عمال الوالى السابق بقسوة وعنف وفرض عليهم بعض الغرامات فشكوه إلى الخليفة مما أدى إلى عزله عن أفريقية[٣] .

(٧) ولاية عبيد الله بن الحبحاب :

وأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب واليا على أفريقية والمغرب سنة ١١٦ هـ وكان كاتبا بليغا يقول الشعر وكان واليا على مصر قبل إسناد ولاية أفريقية إليه[٤] فقدم القيروان ونظم شئونها وقام فى تونس ببناء المسجد الجامع والزيادة فى دار الصناعة[٥] كما أرسل الولاة إلى أطراف الولاية فبعث إلى الأندلس عقبة بن الحجاج وولى على طنجة

(١) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٠ ولعل ابن عذارى يقصد أنه فى أيامه كان يسمى بذلك . ويذكر سيد أمير على أن المعركة التى استشهد فيها دارت فى نقطة واقعة بين تور وبواتيه واستمرت عشرة أيام . وسمى الميدان الذى جرت فيه تلك المعركة فى التاريخ العربى « بلاط الشهداء » بالنظر إلى كثرة من استشهد فيها من مشاهير الرجال مع عبد الرحمن . وما يزال الاتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء يمكن أن تسمع هناك وهى تدعو المؤمنين لصلاة الغروب . مختصر تاريخ العرب ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥١ . دبوز تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢١١ .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ . الرقيق تاريخ أفرقية والمغرب ص ١٠٧ .

(٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٥١ .

وما والاها ابنه اسماعيل ثم ولى بعده عمر بن عبدالله المرادى وأرسل جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه وفى سنة ١٢٢ ﻫ أرسل حبيب بن أبى عبيدة غازيا إلى صقلية فتمكن من فرض الجزية عليها[١] .

وكان عامله على طنجة والمغرب الأقصى عامل الرعية معاملة سيئة وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فىء للمسلمين مما أدى إلى قيام ثورة عنيفة تزعمها ميسرة المدغرى الذى تمكن من قتل اسماعيل بن عبيدالله الذى كان يلى أمر السوس[٢] وذر قرن الفتنة فى المغرب فقد كان ميسرة المدغرى ممن يدين بمذهب الخوارج الصفرية وادعى الخلافة وتسمى بها وكثر جمعه وأعلن استقلاله عن والى القيروان فأرسل إليه ابن الحبحاب جيشا بقيادة خالد بن حبيب فالتقى بالبربر الذين ولوا عليهم خالد بن حميد الزناتى خليفة ميسرة ودارت معركة عنيفة أنف العرب فيها من الفرار مما أدى إلى استشهاد خالد ابن حبيب وأصحابه حيث قتل فى تلك الوقعة حماة العرب وفرسانها فسميت لذلك غزوة الأشراف[٣] وانتقض المغرب الأقصى ضد حكم القيروان .

وبلغ استشهاد كماة العرب وانتقاض المغرب على والى القيروان إلى أسماع هشام بن عبد الملك فقال « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى ثم لا تركت حصن بربرى إلا جعلت إلى

(١) ابن عذارى البيان المغرب ﺣ ١ ص ٥١ ، الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) انظر ابن عبد الحكم فتوح .... ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان المغرب ص ٥٢ ، ٥٣ الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٠٩ وربما كان مذهب الخوارج هو سبب الفتنة لاظلم الولاة كما يذكر المؤرخون .

(٣) المراجع السابقة فتوح ص ٢١٧ ، الرقيق ص ١١٠ ، ١١١ ؛ البيان المغرب ص ٥٤ .

جانبه خيمة قيسي أو تميمي ، ثم كتب إلى ابن الحبحاب بقدومه عليه فخرج في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة »[1] . متوجها إلى دمشق .

(٨) ولاية كلثوم بن عياض القشيري :

وأسند هشام بن عبد الملك القيام بأمر أفريقية والقضاء على الثورة فيها إلى كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه اثني عشر ألفا من أهل الشام وأمر حكام مصر وبرقة وطرابلس بإرسال الجنود معه فوصل إلى أفريقية في رمضان سنة ١٢٣ هـ فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري قاضي أفريقية وسار كلثوم بن عياض في جيشه الذي بلغ ثلاثين ألفا[2] بعد أن انضم إليه جند أفريقية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة والتقوا مع ثوار البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي فدارت المعركة بينهما على وادي سبو بجنوب طنجة حيث انجلت عن قتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة وهزيمة العرب وقتل كثير من قادتهم وفرسانهم فانسحب بقية الجيش ولجأ بعضه إلى الأندلس والبعض الآخر إلى القيروان[3] . وبعد هذه المعركة انفصل المغرب الأقصى والأوسط[4] عن سلطة القيروان وأصبح

---

(١) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١١ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٥٤ .

(٢) انظر ابن عذارى البيان جـ ١ صـ ٥٥ نقلا عن ابن القطان .

(٣) انظر ابن عبد الحكم فتوح صـ ٢١٧ ، ابن عذارى البيان جـ ١ صـ ٥٥ ، حبيب الجنحاني القيروان عبر عصور الازدهار صـ ٤٧ ، دبوز تاريخ المغرب الكبير صـ ٢٦٩ .

(٤) أقسام المغرب : قسم العرب المغرب بحسب قربه وبعده عن مصر التي يسيرون منها لفتحه إلى ثلاثة أقسام :

=

م الولاة بعد ذلك هو المحافظة على أفريقية التى هى المغرب الأدنى وفيه مقر الولاة « مدينة القيروان » .

(٩) ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي :

بعـــد استشهاد كلثوم بن عياض ولى هشام بن عبد الملك على أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فوصل إلى القيروان فى شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين ومائة وطلب منه أهل الأندلس أن يرسل إليهم واليا فأرسل إليهم أبا الخطار بن ضرار الكلبى الذى ركب البحر من تونس إلى الأندلس واليا عليها فأدوا إليه الطاعة[1] ، ولم يمض على إقامة حنظلة بالقيروان وقت طويل حتى زحف إليه الخوارج الصفرية فالتقى بعكاشة بن أيوب الفزارى بالقرن قريبا من القيروان ودارت معركة حامية كان النصر فيها لحنظلة وفر عكاشة ثم قبض عليه فقتله حنظلة . وبعد ذلك أقبل عبد الواحد بن يزيد الهوارى فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع يعرف بالأصنام وكان فى جمع عظيم من البربر بلغ ثلاثمائة ألف قاصدا القضاء على السلطة فى فى القيروان فخرج إليه حنظلة بأهل القيروان بعد أن جهزهم بكل الأسلحة العسكرية الموجودة لدية وقد بذل صفوان الأموال للمجاهدين فخرج أهل القيروان للدفاع عن مدينتهم وهم مستميتون لحماية مدينتهم . وشارك فى هذه

= أ — الأدنى : من السلوم فى غرب مصر إلى بجاية ويشتمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالة قسنطينية .

ب — والى مغرب أوسط : وهو من بجاية شرقا إلى وادى ملوية ويشتمل على جبال القبائل وعمالة الجزائر ووهران إلى ملوية .

حـ — والى مغرب اقصى : من وادى ملوية إلى المحيط الأطلسى . انظر دبوز تاريخ المغرب الكبير حـ ٢ صـ ٢٣٨ .

(١) الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب صـ ١١٥ .

المعركة العلماء والقراء لتقوية الروح المعنوية كما شارك نساء القيروان حيث عقدن الألوية وخرجن بالسلاح عازمات على القتال ومشاركة الرجال فى ميادين القتال وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منهم موليا عن العدو ليقتلنه وبذلك أقبل أهـــل القيروان بقيادة حنظلة على قتال العدو بروح مستميته فى طلب النصر أو الشهادة ودارت المعركة واشتد القتال وأنزل الله نصره وهزم الصفرية وولوا منهزمين وقتل عبد الواحد بن يزيد الهوارى وحملت رأسه إلى حنظلة فخر لله ساجدا وبذلك حفظت القيروان من هذه الثورة العاتية . ولقد كان لهاتين الموقعتين وقع حسن فى دمشق عندما علم الخليفة بالانتصار فيهما وحماية القيروان من شر الثائرين وكان الليث بن سعد يقول : « ماغزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام »(١) لما كان لهما من أثر فى تاريخ الإسلام فى المغرب .

ولاشك أن حنظلة قد حفظ بحسن قيادته القيروان من هذه الثورة العاتية وتلك الأعداد الهائلة التى كانت تريد اجتياحها والقضاء على أى سلطة للأمويين فيها . ولكن فى سنة سبع وعشرين ومائة ثار بتونس عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة ابن عقبة بن نافع ودعا الناس إلى نفسه فأجابوه فأقبل بجموعه إلى القيروان طالبا من حنظلة مغادرتها وكره حنظلة سفك دماء المسلمين فغادر القيروان متجها إلى المشرق فى جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة(٢) .

---

(١) انظر : الرقيق تاريخ أفريقيه ص ١١٩ ، ١٢٠ ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ٩٠ ، ٩١ ؛ ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٩٤ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٢٤ ، ابن الأبار الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٤٢ ، مبارك الميلى الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٠ .

(١٠) ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى :

ودخل عبد الرحمن القيروان وتولى الأمر فيها وصار هو الحاكم لأفريقية ويبدو أن الذى ساعد الفهرى فى حركته هو اضطراب أمر الخلافة فى المشرق الذى كان فرصة مكنت لعبد الرحمن من أن يظفر بشبه استقلال فى الحكم وإن كان لم يعلن انفصاله عن الخلافة فى المشرق فقد أرسل عبد الرحمن إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميه هدايا وعلل خروجه على حنظلة بأشياء تقولها عليه فكتب إليه مروان بولايته على أفريقية[١] وقد استمر عبد الرحمن يحكم أفريقية عشر سنوات استطاع خلالها أن يقضى على كل الثورات التى قامت ضده وهزم كل ثائر حاول الانتقاض عليه ، وعندما اجتمع بتلمسان جمع كبير من البربر سار إليهم وفض جموعهم وظفر بهم وخافه المغرب ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية وقد بعث جيشا إلى صقلية وآخر إلى سردانية فانتصر على أهلها ثم صالحوه على الجزية »[٢] .

ولما قامت دولة بنى العباس أرسل عبد الرحمن كتابا إلى أبى العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس يعلن فيه طاعته فأقره السفاح على أفريقية فلما توفى السفاح وخلفه أبو جعفر المنصور أرسل إليه عبد الرحمن بهدية ومعها كتاب بين فيه قلة دخل أفريقية وإنها قد أصبحت إسلامية ويطلب ألا يسأله ماليس عنده فاستاء لذلك أبو جعفر وكتب إليه يتوعده مما حمل

---

(١) الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٢٩ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٦١ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٢ .

(٢) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٦١ ، ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ١٤٨ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٨٩ ، مبارك الميلى الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٠ .

عبد الرحمن على خلع أبي جعفر وإعلان عدم تبعيته له ، وانتهز أخوه إلياس ذلك فثار عليه وقتله وتولى أمر أفريقية بعده وبعث بطاعته إلى المنصور مع وفد فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى أفريقية(١) ، ولكن أفريقية لم تسكن لإلياس إذ ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتمكن من القضاء عليه بعد سنة ونصف من توليه الأمر ودخل حبيب القيروان وقام بأمر أفريقية وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية . إلا أن أفريقية لم تسلس قيادها له إذ أقبل عاصم بن جميل(٢) أمير ورفجومة من نفزة فهزم حبيبا ثم التقى عاصم مع خليفة حبيب على القيروان القاضى أبو كريب فقتل أبو كريب بعد أن قاتل ومن معه من أهل القيروان بكل بسالة وجرأة ودخلت ورفجومة القيروان فاستحلوا المحارم وانتهكوا الحرمات وولى عاصم على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومى الذى سام أهل القيروان سوء العذاب وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، ثم التقى حبيب مع عاصم مرة أخرى فتمكن من قتل عاصم وأصحابه إلا أن عبد الملك بن أبي الجعد تمكن بقبيلته ورفجومة من قتل حبيب فى شهر المحرم سنة مائة وأربعين هجرية وبذلك قضى على أسرة عبد الرحمن بن حبيب . وعاثت ورفجومة فى القيروان فسادا وفر كثير من أهل القيروان إلى المدن المجاورة وشاع ما حل بالقيروان

---

(١) الرفيق تاريخ ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦٨ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٤٩ .

(٢) عاصم بن جميل الورفجومى : رئيس قبيلة ورفجومة البربرية من نفزة ، ادعى النبوة والكهانة فبدل الدين وزاد فى الصلاة واسقط ذكر النبى ﷺ من الأذان وقد قتله حبيب بن عبد الرحمن فقام بأمر ورفجومة من بعده عبد الملك ابن أبى الجعد وهو من الخوارج الصفرية . انظر الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٤٩ وابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٧٠ .

بالآفاق . فأقبل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الأباضى من طرابلس قاصدا القيروان لقتال ورفجومة فالتقى معهم سنة ١٤١ هـ وهزمهم وشتت شملهم وتتبعهم حتى أخرجهم من القيروان وترك على القيروان نائبا عنه عبد الرحمن بن رستم وذلك فى صفر سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة(١) .

وبذلك خرجت القيروان قاعدة أفريقية عن التبعية للخلافة المركزية فى المشرق وصارت فى يد الاباضية .

(١١) ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى:

ولذلك أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ هـ ليسترد القيروان من الاباضية ولتكون تابعة لمركز الخلافة خاصة بعد أن وفد على أبى جعفر المنصور رجال من أفريقية يشكون إليه ما نزل بهم من ورفجومة ويستصرخونه لإنقاذ أفريقية . ولقد جهز المنصور محمد بن الأشعث بجيش بلغت عدته أربعين ألفا حيث التقى مع أبى الخطاب الإباضى الذى كان يعاضده قرابة مائتى ألف جندى عسكر بهم فى سرت منتظرا ابن الأشعث وعندما التقى الجيشان دارت معركة حامية قتل فيها أبو الخطاب وشتت جيشه وتوجه بعدها ابن الأشعث إلى القيروان التى فر منها عبد الرحمن بن رستم خليفة أبى الخطاب فدخلها ابن الأشعث فى صفر سنة ١٤٤ هـ وأقر فيها الأمن والهدوء ونشر الأمن فى أفريقية كلها وطهر ودان وزويلة من الاباضية كما قام بإحاطة القيروان بسور أتمه سنة ١٤٦ هـ وذلك

---

(١) انظر الرقيق تاريخ أفريقية سنة ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٠ .

لتأمين القيروان من الأعداء ولكن بعض الجند ثار عليه فغادر القيروان متوجها إلى المشرق فى ربيع الأول سنة ١٤٨ هـ [(١)].

(١٢) ولاية الأغلب بن سالم التميمى :

وأسند أبو جعفر المنصور ولاية أفريقية إلى الأغلب بن سالم التميمى فوصله العهد فى جمادى الآخرة سنة ١٤٨ واستقامت له الأمور وهدأ الجند ويذكر ابن عذارى أن المنصور أوصاه « بالعدل فى الرعية وحسن السيرة فى الجند وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها ومن يترك فيها إذا رحل إلى عدوه وغير ذلك من أموره »[(٢)].

وقد استقرت أمور أفريقيه على يديه غير أن أبا قرة البربرى من الخوارج الصفرية جمع جيشا كثيفا من البربر لقتال الأغلب فلم ينتظره الأغلب بل سار إليه يريد فض جمعه وعندما قاربه[(٣)] الأغلب فر أبو قرة وتفرق جمعه وأراد الأغلب مواصلة زحفه إلى تلمسان وطنجة إلا أن بعض قادة الجند كرهوا ذلك وجعلوا يتسللون إلى القيروان فاستغل الحسن بن حرب الكندى[(٤)] ذلك وثار على الأغلب ودخل القيروان أثناء غياب

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبى صـ ٤٦٤ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ صـ ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ صـ ٧٢ ، ٧٣ ، ابن خلدون العبر ج ٤ صـ ١٩١ ، السلاوى الاستقصا صـ ٥٥ ، ٥٧ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ صـ ٧٤ .

(٣) لم يذكر أحد من المؤرخين الذين رجعت إليهم أين اجتمع أبو قرة ومن معه .

(٤) كان الحسن بن حرب بتونس فكاتب جميع القواد فلحق به بعضهم وأقبل معهم إلى القيروان فدخلها . انظر البيان ابن عذارى ج ١ صـ ٧٤ .

الأغلب عنها إلا أن الأغلب رجع إلى القيروان وتمكن من إخراجه منها والانتصار عليه فعاود الحسن جمع الجند وقدم إلى القيروان فخرج إليه الأغلب فقاتله وأثناء المعركة أصابه سهم فقتله وسمى الشهيد وتابع جنده المعركة حتى انتصروا على الحسن وقتلوه فولى الثائرون معه منهزمين[١] .

(١٣) ولاية عمر بن حفص :

وبعد استشهاد الأغلب ولى المنصور على أفريقية عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب فقدم القيروان سنة ١٥١ هـ فمكث فى ولايته ثلاث سنين والأمور مستقيمة والأحوال هادئة وعندما شرع فى تسوير مدينة طبنة[٢] ثار عليه البربر فى جموع غفيرة وأعداد كثيرة يذكر المؤرخون أن منهم أباقرة فى أربعين ألفا من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفا من الاباضية والمسور الزناتى فى عشرة آلاف من الإباضية وغيرهم من خوارج صنهاجة وزناته وهوارة فى أعداد لاتحصى وحاصروه فى طبنة فحاول عمر صرف أباقرة بتقديم الأموال إلى بعض أنصاره الذين تخلوا عنه مما اضطر أباقرة إلى لحاقه بأنصاره الذين تخلو عنه ، ثم أرسل عمر جيشا إلى ابن رستم فهزمه حتى لحق بتيهرت ، وعاد عمر بن حفص إلى القيروان فاجتمعت عليه جموع البربر بقيادة أبى حاتم[٣] الأباضى وضربوا الحصار حول القيروان فكان عمر يقاتلهم فى كل يوم إلى

---

(١) انظر ابن الأثير ج ٥ صـ ٢٧٨ ابن عذارى البيان ج ١ صـ٧٥، السلاوى الاستقصا صـ ٥٧ .

(٢) طبنة : بلدة فى طرف أفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب . شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ صـ ١١١ :

(٣) هو يعقوب بن لبيب الملزوز الهوارى وكنيته أبو حاتم : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا طاهر الزاوى صـ ١٤٣ .

أن أجهده ومن معه الحصار ونفدت المؤن فخرج للقتال فلم يزل يطعن ويضرب حتى استشهد للنصف من ذى القعدة سنة ١٥٤ هـ ودخلها أبو حاتم فأحرق أبواب القيروان وثلم سورها وأخرج أكثر الجند إلى الزاب[١]. وبذلك تمكن الإباضية من أن يكون لهم حكم القيروان .

(١٤) ولاية يزيد بن حاتم :

وفى سنة ١٥٥ هـ أسند أبو جعفر المنصور ولاية أفريقية إلى يزيد بن حاتم وأمده بجيش بلغ ستين ألفا لإعادة السلام إلى أفريقية والقضاء على الثورات فيها وطرد الإباضية من القيروان فقدمها يزيد والتقى مع أبى حاتم الإباضى فى ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ فتمكن من قتله والقضاء على جنده الثائرين معه . ويقال : « إنه كان بين الجند - أى جند العرب — والبربر من لدن قاتلهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة » وبعد أن قضى يزيد على أبى حاتم توجه إلى القيروان فدخلها ونشر الأمن والسكينة فى أفريقية وقضى على الفتن بها كما جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان ورتب أسواقها وجعل لكل صناعة مكانا خاصا بها ومكث فى ولايته خمسة عشر عاما إلى أن أدركته الوفاة فى رمضان سنة سبعين ومائة هجرية فى خلافة هارون الرشيد[٢] .

---

(١) انظر الرقيق تاريخ فتح أفريقية والمغرب صـ ١٤٢ — ١٤٧ ، ابن عذارى البيان ج ١ صـ ٧٥ — ٧٨ ابن الأثير الكامل ج ٥ صـ ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ابن خلدون العبر ج ٤ صـ ١٩٢ ، ومنتصف ذى القعدة ذكره الرقيق وابن الأثير وابن عذارى يذكران أنه منتصف ذى الحجة .

(٢) انظر الرقيق تاريخ أفريقية صـ ١٥٩ — ١٦٢ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ صـ ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ابن خلدون العبر ج ٤ صـ ١٩٣ ، ابن عذارى البيان =

وقام بأمر أفريقية بعد وفاة يزيد بن حاتم ابنه داود الذى استخلفه أبوه فى مرضه فقام بأمر أفريقية ورد الثوار الذين حاولوا الخروج عليه من الإباضية فى جبال باجة وغيرها .

(١٥) ولاية روح بن حاتم :

ثم قدم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب واليا على أفريقية من قبل الرشيد سنة ١٧١ هـ ويذكر الرقيق أنه رغب فى موادعة عبد الوهاب بن رستم الأباضى صاحب تيهرت فوادعه(١) . وكانت البلاد هادئة فى أيامه والأمن منتشرا فى ربوعها والطرق آمنة وظل واليا على إفريقية مقيما فى القيروان عاصمتها إلى أن أدركته الوفاة فى رمضان سنة ١٧٤ حيث دفن إلى جوار أخيه يزيد بن حاتم(٢) .

(١٦) ولاية نصر بن حبيب المهلبى :

وأسند الرشيد أمر أفريقية بعد روح بن حاتم إلى نصر بن حبيب المهلبى الذى تولى أمرها فى آخر رمضان سنة ١٧٤ هـ فقام بتسيير شئون أفريقية خير قيام وذلك لحسن سيرته وعدله فى أحكامه ولم تقم بأفريقية فتن فى أيام حكمه . إلا أن الرشيد عزله فى بداية سنة ١٧٧ هـ

= ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ ويذكر ابن عذارى أنه توفى سنة ١٧١ هـ ، الاستقصا للسلاوى ص ٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٦٥ .

(١) ويعتبر هذا عمل سياسى هام من روح وأن كان فيه الاعتراف بانفصال تاهرت الاباضية عن سلطة الخلافة .

(٢) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٧١ — ١٧٣ ، الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٦ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٣ ؛ ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٤ .

(١٧) ولاية الفضل بن روح :

وقد ولى الرشيد الفضل بن روح بن حاتم أمير أفريقية فقدم القيروان فى محرم سنة ١٧٧ هـ وقد استبشر الناس بقدوم الفضل ونصبت له القباب من مسجد أم الأمير إلى دار الإمارة كما يقول الرقيق . إلا أن واليه على تونس — وكان ابن أخيه — أساء إلى الجند فيها مما جعلهم ينقمون عليه بالإضافة إلى ما كان يتسم به الفضل من استبداد برأيه دون أخذ رأى قادة الجند ، مما دعا . الجند فى تونس إلى الثورة على واليه وإخراجه من تونس وقدم الجند الثائرون بعد ذلك إلى القيروان فاستولوا عليها بقيادة عبدالله بن الجارود — ويعرف بعبدويه الأنبارى — الذى قتل الفضل بن روح فى شعبان سنة ١٧٨ هـ

(١٨) ولاية هرثمة بن أعين :

وقد غضب الرشيد لقتل الفضل وأرسل هرثمة بن أعين واليا على أفريقية ليقوم بإصلاح أمرها فدخل القيروان فى ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ وتمكن من القضاء على الفتنة ونشر الأمن والسكينة بين الناس وأعطى جند طرابلس أرزاقهم المتأخر إعطاؤها لهم ، وأرسل ابن الجارود الخارج على الفضل إلى الرشيد ، وينسب إلى هرثمة بن أعين أنه بنى القصر الكبير بالمنستير لسنة من قدومه إلى القيروان ، وبنى كذلك السور على طرابلس مما يلى البحر . وقد ثار عليه عياض ابن وهب الهوارى وكليب بن جميع الكلبى[١] فتمكن من القضاء عليهما بقيادة يحيى بن موسى . وقد أدرك هرثمة كثرة الثورات بأفريقية وشدة الخلاف فيها مما دعاه إلى أن يطلب من الرشيد إعفاءه من حكم ولاية إفريقية فاستعفاه الرشيد فخرج من أفريقية فى رمضان سنة ١٨١ هـ فكانت ولايته سنتين ونصفا .

---

(١) ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٤ .

(١٩) ولاية محمد بن مقاتل العكى :

وقد ولى الرشيد مكانه محمد بن مقاتل العكى الذى قدم القيروان فى شهر رمضان سنة ١٨١ هـ "ويقول المؤرخون عنه إنه كان سيء السيرة ضعيف الرأى مما أدى إلى اضطراب الأمور واختلاف الجند عليه . وقد ارتكب خطأ واضحا بضربه البهلول بن راشد عابد زمانه ظلما وعدوانا وحبسه له مما تسبب عنه موت البهلول . كما « اقتطع من أرزاق الجند وأساء معاملتهم ومعاملة الرعية »(١) وقد أدى ذلك إلى قيام بعض الجند بثورة ضده تزعمها تمام بن تميم التميمى عامله على تونس الذى التقى بابن العكى خارج القيروان فانهزم ابن العكى ولجأ إلى القيروان . وتمكن تمام من دخول القيروان وأمن ابن العكى الذى خرج إلى طرابلس ولكن ابراهيم بن الأغلب العامل على الزاب غضب لاخراج ابن العكى وقدم إلى القيروان مما جعل تماما يغادرها فدخل ابراهيم القيروان واستدعى ابن العكى ليكون الحاكم فيها حسب عهد أمير المؤمنين إلا أن الرعية والجند كرهوا عودة ابن العكى ويذكر الرقيق أن الرجل كان يقوم فى الجماعة فيقول « قد كنا استرحنا من ابن العكى فجاء ابراهيم ، فغلب على الثغر ورده فالموت خير من الحياة فى سلطان ابن العكى »(٢) مما جعل كثيرا من الناس يلجأ إلى تمام الذى حاول أن يزيل الوئام بين ابراهيم وابن العكى إلا أن هذه الوقيعة لم تلق أذنا صاغية . فأقبل تمام من تونس فالتقى معه ابراهيم بن الأغلب فهزمه فمضى تمام إلى تونس حيث لحق به ابراهيم بن الأغلب مستهل المحرم سنة ١٨٤ فاستأمن له تمام فأمنه وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من

(١) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٥ .

(٢) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٧ .

المحرم سنة ١٨٤ هـ . وقد استشار الرشيد خاصته — بعد أن بلغه سوء تصرف ابن المكى — فيمن يصلح لولاية افريقية فأشير عليه بتولية ابراهيم ابن الأغلب فكتب إليه عهده فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ليقوم بأمر إفريقية (١).

وبولاية ابراهيم بن الأغلب افريقية تبدأ صفحة جديدة فى حياة أفريقية وازدهارها حيث يبدأ حكم الأسرة الأغلبية التى استمرت فى الحكم اكثر من قرن من الزمن .

تلك هى الصورة التى نرى عليها الوضع السياسى فى إفريقية فى هذه الفترة من حكم ولاة بنى أمية وبنى العباس ونلاحظ فيها كثرة الولاة وعزل بعضهم عند اسناد الخلافة إلى خليفة جديد . مما أدى إلى عدم الاستقرار . يضاف إلى ذلك كثرة الثورات التى قام بها الخوارج من الصفرية والاباضية أو الزعماء الثائرون من العرب وقد تمكن بعضهم احيانا من فرض سلطته على إفريقية إلا أن سلطانهم كان لايدوم طويلا ليقظة الخلافة وحرصها على تبعية إفريقية لها . فكانت الخلافة فى دمشق وبغداد تتابع أرسال الجيوش إليها لتقضى على الثائرين وتسترد إفريقية من قبضتهم .

والذى يبدو لى أن الثورات التى كان يتزعمها قواد من العرب انما كان يقوم بها الوصول إلى مركز السلطة والجلوس على كرسى الأمارة . أما الثورات التى كان يقوم بها البربر وخاصة الصفرية فيظهر فيها ميلهم إلى أن

---

(١) انظر تاريخ أفريقية للرقيق ص ١٨٢ — ٢٠٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٥٤ — ٥٦ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٥ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٥ — ٩١ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٩٦ : النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٢ ص ٨٨ — ٩٠ ، ١١٠ ، الاستقصا للسلاوى ص ٥٩ ، ٦٠ .

يكون لهم الاستقلال عن مركز الخلافة وتسيير أمور بلادهم . ولقد كان الصفرية يقسون فى معاملتهم المسلمين ويشتطون فى مذهبهم ... أما الأباضية فإن ما يظهر من معاملتهم لأهل القيروان أثناء تغلبهم عليها يدل على انقيادهم لتعاليم الدين وعدم انتهاك الحرمات وإن كانوا خارجين على سلطان الخليفة ولا يعترفون به .

ولاشك أن هذه الثورات الكثيرة ذات الأهداف المتعددة كان لها تأثير قوى فى الحياة الفكرية فى القيروان ، سوف يظهر جليا عند دراستنا للحياة الفكرية خاصة من الناحية العقائدية . كما يبدو جليا لنا اهتمام العباسيين باسترجاع القيروان وذلك بإرسال كبار رجال دولتهم ذوى الخبرة السياسية والقدرة العسكرية والحنكة الأدارية ليقوموا بحكم امارة افريقية من أمثال محمد بن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم وروح بن حاتم . وذلك خشية أن تنفصل امارة افريقية عن التبعية للخلافة ، كما أنهم لم يولوا عليها أحدا من أهلها خشية محاولته الاستقلال بها . ولقد حدث هذا الاستقلال عند تولية إبراهيم بن الأغلب رأس أسرة الأغالبة . ولاشك أن كثرة تعداد الجيوش التى جاءت مع الولاة من المشرق كانت عبئا ثقيلا على ولاية افريقية مما جعلنا نقرأ فى المصادر عن الأعانة المالية من ولاية مصر إلى افريقية وان كان تتابع هذه الجيوش على افريقية قد ساعد على تعريب البلاد وسيادة سلطان اللغة العربية فيها .

* * *

الفصل الثالث

عصر الأغالبة

١ – قيام دولة الأغالبة

نحاول هنا الإجابة على هذا السؤال وهو كيف تم قيام هذه الدولة ومن هو مؤسسها ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال علينا أن نغوص فى أعماق المراجع لنرى كيف استطاع مؤسس هذه الدولة أن يظهر على مسرح الحوادث لكى يصل إلى أن يؤسس هذه الامارة وينفرد بامارتها وأن يورثها لبنيه من بعده لاسيما وهو لم ينتسب إلى بيت ملك يطالب به ولا إلى مذهب دينى مخالف يدعو إليه أو يتوسل به إلى الإمارة حتى يستطيع أن يظفر بالولاية على تونس.

والبلاذرى يروى لنا طرفا من حياة ابراهيم بن الأغلب قبل ظهوره على مسرح الحوادث فى المغرب بما يوضح بعض جوانب شخصية هذا الرجل يقول(١) :

وكان ابراهيم بن الأغلب من وجوه جند مصر . فوثب واثنا عشر رجلا معه فأخذوا من بيت المال مقدار أرزاقهم لم يزدادوا على ذلك شيئا وهربوا فلحقوا بموضع يقال له الزاب وهو من القيروان على مسيرة أكثر من عشرة أيام وعامل الثغر يومئذ من قبل الرشيد هارون هرثمة بن أعين ، واعتقد ابراهيم ابن الأغلب على من كان من تلك الناحية من الجند

---

(١) فتوح البلدان البلاذرى ص ٢٧٦ .

وغيرهم الرياسة واقبل يهدى إلى هرثمة ويلاطفه ويكتب إليه يعلمه أنه لم يخرج يدا من طاعة ولا اشتمل على معصية وأنه انما دعاه إلى ما كان منه الأحواج والضرورة ، فولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها ؛ فلما صرف هرثمة من الثغر وليه بعده ابن العكى .

ومن هذا النص نستطيع أن نفهم عدة أمور من شخصية هذا الرجل منها أنه كان من وجوه جند مصر ، وأنه لم يستكن انقطع رزقه أوراتبه مع وجود المال فى خزينة الولاية فى مصر ، كما أنه عندما عدا على بيت المال لم يأخذ إلا بمقدار حقه فقط ولم يسلب حق الدولة أو حق غيره مع استطاعته أن يفعل ذلك . ثم هروبه إلى الزاب مع رفاقه العشرة واستطاعته أن يصل إلى الرياسة على رفاقه وغيرهم من الجند والمواطنين فى تلك الناحية ، ثم ميله إلى الدبلوماسية السياسية مع الوالى على تونس بتقديم الهدايا إليه وملاطفته وإخباره بأنه مازال يقدم فرض الطاعة للخلافة ويعتذر عن أخذ حقه بالقوة بأنها الحاجة والضرورة ، ولاشك أن هذا تصوير رائع يكشف عن الشخصية القيادية والسياسية لهذا الرجل وعما يتمتع به من ذكاء وحنكة .

ولذلك كانت النتيجة أن ولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها . وذلك هو قدره الذى سوف تلقيه عليه الحوادث ليقوم به فى مستقبل أيامه .

وقد ذكر ابن عذارى[1] صفات ابراهيم ورأى عالم من علماء عصره فيه فقال «كان ابراهيم بن الأغلب فقيها أديبا شاعرا خطيبا ذا رأى ونجدة وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكائدها جرىء الجنان طويل اللسان لم تر أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا ارأف بالرعية ولا أوفى بعهد ولا أرعى بحرمة منه فطاعت له قبائل البربر وتمهدت أفريقية فى أيامه وعزله

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب ص ٨٣ ، ٨٤ ج ١

الحكم عنها واستقامت الأحوال فيها ، وكان إبراهيم قد سمع من الليث بن سعد ووهب له جلاجل أم ولد ؛ لمكانه منه ولقد قال الليث يوما ليكونن لهذا الفتى شأن .

ومن هذا النص أيضا نلاحظ ثقافة ابراهيم الدينية والأدبية وخبراته الحربية والعسكرية وتجاربه الادارية والسياسية وقدرته على قيادة الجماهير الشعبية أو الفرق العسكرية فهو رب سيف وقلم وصاحب علم بالدين والدنيا وقدرة على اجتذاب من حوله إليه .

وأنا لا أحب المبالغة فى الصفات الشخصية لفرد من الأفراد ولكن لا نستطيع إلا أن نفهم ذلك من تحليل النصوص التى أمامنا .

كما يؤيد ذلك ما سبق أن ذكرته من أنه لم يكن يطالب بحق مغصوب أو ملك مفقود أو داعية لمذهب من المذاهب وانما هى الكفاية الشخصية والامتاز الذاتى وقديما هتف الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما

ومع ذلك فانا آخذ عليه ما ذكره ابن خلدون [1] من أنه كان يتخذ الدس والخديعة والاغتيال وسيلة للقضاء على انصار الدولة المجاورة له وهى دولة الأدارسة إلا إذا عددنا ذلك من المكايد السياسية وذلك ربما تبيحه السياسة التى لاتستند إلى دين ولكن فى رجل دين كما يصفه المؤرخون فلا شك أن ذلك مما يؤخذ عليه .

هذا هو ابراهيم كما نتصوره فكيف استطاع أن يصل إلى تولى امارة الولاية والاستقلال بها وتأسيس امارة وراثية ؟ .

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ص ١٩٦ ج ٤

فقد تم ذلك عندما كان إبراهيم بن الأغلب عاملا على الزاب وطبنة فلما قدم هرثمة بن أعين إلى القيروان سنة سبع وسبعين ومائة هاداه إبراهيم ولاطفه فعقد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره . ثم لما تولى محمد بن مقاتل أمر أفريقية من قبل هارون الرشيد بعد هرثمة سنة أحدى وثمانين ومائة خرج عليه تمام بن تميم التميمي سنة ثلاث وثمانين واجتمع إليه الناس وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل ولقيه فانهزم امامه وسار محمد إلى طرابلس وبلغ الخبر إلى ابراهيم ابن اغلب بمكانه من الزاب فانتفض لمحمد وسار بمجموعة إلى القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس واعاده إلى امارته بالقيروان آخر سنة ثلاث وثمانين ومائة وزحف تمام لقتالهم فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب بأصحابه فهزمه وسار فى اتباعه إلى تونس واستأمن له تمام فامنه وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد.

يقول ابن الأثير(١) ولما استقر الأمر لمحمد بن مقاتل ببلاد أفريقية واطاعه تمام كره أهل البلاد ذلك وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية أفريقية فكتب إليه فى ذلك وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل إلى أفريقية معونة فنزل إبراهيم عن ذلك وبذل أن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار فاحضر الرشيد ثقاته واستشارهم فيمن يوليه أفريقية وذكر لهم كراهة أهلها ولاية محمد بن مقاتل فأشار هرثمة بإبراهيم ابن الأغلب وذكر للرشيد ما رآه من عقله ودينه وكفايته وأنه قام بحفظ أفريقية على ابن مقاتل فولاه الرشيد فى المحرم سنة أربع وثمانين ومائة فانقمع الشر وضبط الأمر وسير تماما وكل من يتوثب على الولاة إلى الرشيد فسكنت البلاد .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٥٦

وهنا نلاحظ عدة ملاحظات منها ١ — كراهية أهل البلاد لمحمد بن مقاتل وحملهم إبراهيم على أن يكتب إلى الرشيد يطلب ولاية أفريقية .

٢ — تنازل إبراهيم عن المعونة التى تحمل إلى إفريقية ودفعه هو لأربعين ألف دينار .

٣ — ذكر هرثمة لصفات إبراهيم ثم ماقام به فى حفظ الولاية على محمد ابن مقاتل .

٤ — صدر مرسوم الولاية فى المحرم سنة أربع وثمانين ومائة .

٥ — سيادة الأمن والسكينة .

هذا ما ذكره ابن الأثير نتيجة لتولى إبراهيم أمر أفريقية لأننا نرى محى الدين التميمى المراكشى[١] يذكر أن الاغالبة هم الذين استبدوا بملك أفريقية وكأنه لم يصدر لهم مرسوم بولاية أفريقية يقول [٢] « وهى كانت أعنى القيروان دار ملك المسلمين بأفريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يولون عليها الأمراء من قبلهم إلى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبد الأغالبة بملك أفريقية بعض الأستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن إبراهيم ابن أغلب التميميون فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها .

بينما يذكر الدكتور سليمان محمود شروطا تتفق مع ابن الأثير فى بيان رغبة الأهالى فى تولية إبراهيم وتختلف فى بيان المال المدفوع ويزيد عليها ذكره لجعل الولاية وراثية فى ابنائه يقول :

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لمحي الدين التميمى المراكشى ص ٢٠٠

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لمحي الدين التميمى المراكشى ص ٢٠٠

ولى(١) الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب على أفريقية بناء على رغبة الأهالى وكان إبراهيم فى هذا الوقت واليا على الزاب من قبل الرشيد ولكن إبراهيم قبل هذا التعيين بعد أن أقر الرشيد شروطه وهى تتلخص فيما يلى .

١ — أن يستقل بادارة شئون أفريقية الداخلية عن الخليفه .

٢ — أن يتولى امارة أفريقية ذريته من بعده أى أن تكون وراثية فى بيته .

٣ — ألا يدفع ـ أى الرشيد ـ الاعانة السنوية التى كانت تدفعها مصر لإفريقية وقدرها مائة ألف دينار وانما يدفع إبراهيم بدلا منها أربعين ألف دينار للخليفة .

ويتفق الدكتور حسن إبراهيم حسن مع ابن الأثير فى طلب إبراهيم الولاية وفى مقدار المال المدفوع والمتنازل عنه وكذلك فى تاريخ توليته على افريقية يقول « (٢) وقد طلب إبراهيم بن الأغلب وكان يلى بعض نواحى الزاب إلى الرشيد ان يوليه أفريقية على ان ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله اليها مصر من الأموال التى اعتادت ان ترسلها إليها فى كل سنة ومقدارها مائة الف دينار كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال فى بغداد اربعين دينار واشار هرثمة بن اعين على الرشيد بتولية ابراهيم ابن الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفايته فولاه الرشيد اياها فى شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ وما ذكره ابن خلدون يؤيدهم فى طلب الولاية ومقدار المال يقول (٣) فكتب ابراهيم الى الرشيد فى ذلك على ان يترك المائة الف دينار التى كانت

(١) ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٣٢ الالف كتاب .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٣) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

من مصر إلى أفريقية وعلى أن يحمل هو من أفريقية أربعين ألفا وبلغ الرشيد غناؤه فى ذلك واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته فكتب إليه بالعهد إلى أفريقية منتصف أربع وثمانين ».

وابن أبى[1] دينار يتردد فى تاريخ تعيينه حين يقول « ومنهم إبراهيم ابن الأغلب كان سنة أربع وثمانين ومائة من قبل هارون الرشيد وقبل خمس وثمانين.

ويقول ابن عذارى[2] وصلة عهد الرشيد فى العشر الوسط لجمادى الأخرى من سنة أربع وثمانين ومائة ».

ومن هذا العرض لأقوال المؤرخين نرى أن :

١ — ابن الأثير وابن خلدون وحسن إبراهيم يتفقون على طلب إبراهيم الولاية ويزيد ابن الأثير وحسن سليمان محمود أن ذلك بناء على رغبة الأهالى.

٢ — يتفق ابن الأثير وابن خلدون وحسن إبراهيم على مقدار المال المدفوع والمتنازل عنه بينما يخطىء فيما يدفع من المال حسن سليمان محمود.

٣ — يتفق ابن الأثير وحسن إبراهيم على شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ بداية لتوليته الإمارة ويتردد ابن أبى دينار بين أربع وثمانين وخمس وثمانين ومائة.

أما ابن عذارى فيظهر فى روايته الدقة حيث يقول وصلة عهد الرشيد

---

(١) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار.

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ١٧٧ — ١٧٨.

فى العشر الأوسط لجمادى الآخرة من سنة ١٨٤ ﻫ وابن خلدون يقول فكتب إليه بالعهد إلى أفريقية منتصف أربع وثمانين .

٤ — ينفرد حسن سليمان محمود بذكر أن تكون الولاية وراثية فى أسرته هذا مايتفق ويختلف فيه المؤرخون القدامى والمحدثون والذى يظهر لى أن مسألة المال قد جاوز الصواب فيها حسن سليمان محمود حيث لم يوافقه أحد من القدامى والمحدثين من المؤرخين وإن كان قد انفرد بذكر وراثة الولاية .

أما تاريخ التولية فالذى تستنتجه أن الولاية أسندت إليه فى المحرم سنة ١٨٤ ﻫ أما وصول المرسوم إليه فكان فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ ﻫ كما حدده ابن عذارى .

وهذه الأقوال المختلفة تبين كيف تم لإبراهيم الوصول إلى الإمارة لكى يستقل بإمارة أفريقية بعد ذلك .

ولكن لماذا تم ذلك ؟

وبهذه الصورة هل نفهم من ذلك أن إبراهيم قد اشترى ولايته بالمال الذى كان بارعا فى عرضه حين أخذ يغرى الخليفة بالمال من ناحيتين :

الأولى أنه يتنازل عما كان يأخذه الوالى على أفريقية من مصر وقدره مائة ألف دينار الثانية أنه سوف يدفع للخليفة أربعين ألفا وبذلك يكون الخليفة قد كسب بتولية إبراهيم بن الأغلب على أفريقية مائة وأربعين ألفا دينار ، ويبدو لى أن هناك أسبابا عدة لتولية إبراهيم بن الأغلب نذكرها فيما يلى :

(أ) فلاشك أن المال كان أحد الدوافع إلى قبول الخليفة أن يوليه الإمارة إلا أننا لانستطيع أن نهمل العوامل الأخرى .

(ب) فالشهامة والنجدة وسيرته الحسنة واهتمامه بأن يقاتل من خرج على والى الخليفة حتى يعود الأمر إلى الوالى من قبـــل الخليفة من المرشحات لتوليته .

(حـ) كذلك كراهية أهل البلاد لمحمد بن مقاتل وحبهم لإبراهيم ويبدو لى أنهم مع طلبهم من إبراهيم أن يكتب إلى الخليفة فى ذلك قد كتبوا هم أيضا إلى الخليفة وإن لم يذكر أحد من المؤرخين ذلك إلا أن ابن خلدون يروى حادثة ذات مغزى وهى أنهم كانوا يحاولون أن يكون لهم شأن فيمن يولى عليهم وذلك فى مطلع القرن الثانى فقد ذكر[1] « أنهم قتلوا واليهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج . . . ثم رجوعهم إلى محمد بن يزيد مولى من الأنصار الذى كان عليهم قبل اسماعيل بن المهاجر وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبى مسلم فأجابهم بالرضاء واقر محمد بن يزيد على عمله » وهذا يؤيد ما أذهب إليه من أنهم كتبوا إلى الخليفة يقترحون ترشيح أو تولية إبراهيم ابن الأغلب عليهم .

(ء) كذلك لانستطيع أن نهمل حالة البلاد وانتشار الفتن والثورات فيها وعجز الوالى السابق عن التغلب عليها ثم كفاءة إبراهيم وما أظهره من نشاط فى التغلب على المصاعب وذلك بدون أن يكلف الدولة أن يتحرك جيشها المركزى مسيرة سبعة أشهر ، وفى ذلك إرهـــاق للجيش وكثرة للنفقات .

(هـ) كما نلاحظ أنه أراد أن يجعل إبراهيم بن الأغلب بصفته واليا مستقلا وبما يتمتع به من كفاية قادرا على أن يحافظ على إمارته من أعداء

---

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

الدولة المحيطين به والذين يتمثلون فى دولة الأدارسة والرستميين والأمويين فى الأندلس .

(و) كما أن بعد المغرب عن مركز الخلافة فى المشرق الذى يتكون منه الجيش الخاص للدولة وما يتكلفه إرسال الجيش من النفقات والمشقات التى تقابله والتى قد تكون سببا فى هزيمته كانت أيضا من العوامل التى مهدت لإبراهيم لكى يظفر بأن يعطى استقلالا عن مركز الخلافة .

بعد ذلك اسأل لماذا أعطى له حق الوراثة ؟

ولاشك أن إعطاء حق الوراثة بهذه السهولة سابقة خطيرة أقل نتائجها أن يطلب يعمل كل وال الاستقلال بعد ذلك وأن تكون الولاية وراثية فى أبنائه أو أن يعمل هو على الاستقلال وجعل الولاية وراثية . إلا أنه يبدو لى أن الرشيد بعد أن رأى استقلال الأطراف فى الأندلس والمغرب الأقصى رأى أن يجرب هذا النوع من الاستقلال الذى يكون تابعا للخلافة ومقرا بها ويرفع علمها ويدعى فيه لمركز الخلافة وتتداول فيه مراسيمها كما أنه يحفظ جسم الخلافة من الانقسام التام الذى لا يعترف فيه بأى تبعية لمركز الخلافة كما أن هذه الدولة المستقلة التابعة لمركز الخلافة تكون حاجزا وحصنا بين الأجزاء المنفصلة انفصالا تاما وبين جسم الخلافة التابع تبعية كاملة لمركزها .

أقول ذلك مع انى لم أر من المؤرخين الأقدمين من تحدث عن طلب إبراهيم أن يكون الحكم وراثيا فى أسرته ولم يشر إليه إلا دكتور حسن سليمان محمود فى كتابه[1] وبين أن ذلك كان من شروط إبراهيم لقبول

---

(١) ليبيا بين الماضى والحاضر دكتور حسن سليمان محمود ص ١٣٢

الإمارة كما يقول ابن خلدون « وتوارثها بنوه خالفا عن سالف[١] .

وإذا كانت الوراثة جاءت تابعة لأخذه الإمارة وأنه هو الذى عمل على أن تكون الإمارة لأسرته فيظهر هنا شخصية البطل فى جعلها وراثية كما أنه من الممكن أنه بدا لمركز الخلافة بعد أن رأت تثبيت إبراهيم الأمن والسكينة ونشاطه فى رفع شأن إمارته مع قيامه بالدور الذى كانت ترجوه منه من الوقوف فى وجه الإمارات المنفصلة . قد جعلها تميل إلى أن تجعلها وراثية فى أسرته لكى تستفيد من خبرة هذه الأسرة القوية التى ظهرت على مسرح الحوادث .

يقول دكتور السيد عبد العزيز سالم[٢] « ولما توفى إبراهيم بن الأغاب بالقيروان سنة ١٩٦ هـ ٨١٢ م خلفه ابنه أبو العباس عبدالله بن إبراهيم وكان غائبا وقت وفاة أبيه بمدينة طرابلس فقام له أخوه زيادة الله بالأمر وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وبعث إليه بذلك وهكذا استحدث مبدأ الوراثة فى هذه الولاية لأول مرة . . . ولما قتل الخليفة الأمين بن الرشيد سنة ١٩٨ هـ على يدى ابن طاهر عامل المأمون واستخلف أخوه المأمون أقر عبدالله بن الأغاب على أفريقية » .

ويفهم من قوله وهكذا استحدث مبدأ الوراثة أن هذا المبدأ لم ينص عليه عند تولية إبراهيم بينما يذكر آخرون أنه نص عليه . ويسكت عن ذلك بعض المؤرخين والذى يظهر — بناء على طلب إبراهيم الولاية ثم عرضه التنازل عن المال المدفوع لولايته ودفعه أربعين ألفا زيادة على ذلك

---

(١) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١١٣

(٢) المغرب الإسلامى دكتور السيد عبد العزيز سالم ج ١ ص ٩٣

ولعدم ذكر المؤرخين الأقدمين شيئا عن وراثة الحكم كما أن وضع إبراهيم لم يكن موضع من يفرض شروطا للوراثة وإنما يطلب الولاية فقط — أن الوراثة لم ينص عليها فى تولية إبراهيم ولكنها جاءت نتيجة لترتيب إبراهيم بعد ذلك أمور ولايته وإسناده الأمر من بعده لأحد أبنائه .

إبراهيم يثبت أركان دولته :

لاشك أن ما امتاز به إبراهيم بن الأغلب من الشجاعة ورجاحة العقل قد أدى إلى رقى فى حالة البلاد وانتشار للأمن وزيادة فى دخل الدولة مما ساعد على بناء عاصمة جديدة لإمارته بجوار القيروان والانتقال إليها يقول ابن خلدون[1] «فقام إبراهيم بالولاية وضبط الأمور وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته » وكذلك أدى زيادة دخل الدولة إلى مساعدته للانفاق على الحروب التى قام بها ضد الخارجين على ولايته ولتثبيت أركان دولته وكان يتألف جند الخارجين عليه بالمال مما يدل على غنى الدولة فى عهده يقول ابن خلدون فيمن خرج على ابنه الذى ولاه على طرابلس[2] «وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة » ويقول حسن إبراهيم[3] «ولما آلت إلى إبراهيم مقاليد الحكم فى أفريقية ضبط أمورها وبنى فى سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان وسماها العباسية ونقل إليها أهله وعبيده وأهل

---

(١) كتاب العبر جـ ٤ ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ١٧٨

ثقته ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسي والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه » .

ورغم اهتمام إبراهيم بحالة البلاد والعمل على رقيها وتسكين الأمن فيها ونشر السلام بين ربوعها إلا أنه كانت بالبلاد ثورات فى تونس وفى طرابلس ثم محاولته هو الوقوف وجه توسع دولة الأدارسة فى المغرب وخوفه من الانتقاص من ولايته .

ففى تونس سنة ١٨٦ خرج عليه حمديس وهو من العرب النازلين بمدينة تونس[1] أو نزع السواد كما يسميه ابن خلدون[2] فأرسل إليه ابن الأغلب جيشا بقيادة عمران بن مخلدا كما يقول د . حسن إبراهيم أو مجالد كما يقول ابن خلدون فانتصر عليه وقتل عشرة آلاف من الخارجين معه .

وفى سنة ١٩٥ هـ خرج عليه بتونس أيضا عمران بن مجالد الربعى ووافقه على الخروج قريش بن التونسى وكثرت جموعهما وسار عمران إلى القيروان فملكها وقدم عليه قريش من تونس فاعتصم إبراهيم بالعباسية وحصر خندقا حولها فحاصروه سنة كاملة وكانت بينه وبينهم حروب ظفر إبراهيم بن الأغلب فى نهايتها وقد ساعد الرشيد ابن الأغلب فى حصاره بالمال الذى استطاع به أن يجذب إليه جند عمران مما أدى إلى أن يترك عمران حصاره ويلحق بالزاب يقول ابن خلدون « ثم بعث الرشيد إلى إبراهيم بالمال فنادى فى الناس بالعطاء ولحق به أصحاب عمران وانتقض أمره ولحق بالزاب فأقام به إلى أن توفى بن الأغلب[3] أما فى طرابلس فقد

---

(١) حسن إبراهيم الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٧٨

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٦

(٣) المرجع السابق .

حدث فيها فتنة سنة ١٨٩ فأخرج أهلها عامل بن الأغلب سفيان بن المهاجر من داره وطاردوه إلى المسجد وقتلوا أصحابه فيه ثم آمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج سفيان لشهر من ولايته وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي فأرسل إليهم ابن الأغلب جيشا هزمهم ودخل طرابلس وقبض على مثيرى الفتنة وأرسلهم إليه ولكنه عفا عنهم .

واستقرت الأمور فى طرابلس إلى سنة ١٩٦ هـ فثارت من جديد يقول ابن خلدون[1] بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبدالله سنة ست وتسعين فثار عليه الجند وحاصروه بداره ثم آمنوه على أن يخرج عنهم فخرج واجتمع إليه الناس وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة ثم عزله أبوه وولى سفيان بن المضاء فثارت هوارة بطرابس وهجموا على الجند فلحقوا بإبراهيم ابن الأغلب وأعاد معهم ابنه عبدالله فى ثلاثة عشر ألفا من العساكر ففتك بهوارة وأثخن فيهم وجدد سور طرابلس وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبـــد الرحمن بن رستم فجمع البربر وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة وكان يقاتل من باب هوارة ثم جاءه (أى عبدالله) الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبدالله وأعمالها لعبد الوهاب وسار إلى القيروان وكانت وفاة إبراهيم فى شوال سنة ست وتسعين » .

تلك هى الحروب التى استعمل فيها السيف وجيش فيها الجيوش أما بالنسبة لدولة الأدارسة فى المغرب فقد سلك فيها طريقة أخرى غير الجيوش الظاهرة والسيوف المسلولة بل سلك إلى التغلب عليها طريق الدس

---

(١) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧

والأموال والهدايا يبعث بها إلى أنصار الأدارسة فيحول بعضهم عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسيين ويحضهم يعمل أن يأتي برأسه إليه يقول ابن خلدون في موقفه من دعوة الأدارسة (١) ثم صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى وقد ظهر فيه دعوة العلوية بإدريس ابن عبد الله وتوفى ونصب البرابرة ابنه الأصغر وقام مولاه راشد بكفالته وكبر إدريس واستفحل أمره براشد فلم يزل إبراهيم يدس إلى البربر ويسير فيهم الأموال حتى قتل راشد وسبق رأسه ثم قام بأمر إدريس بعده بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رءوس البربر فاستفحل أمره فلم يزل إبراهيم يتلطفه ويستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية فصالحه إدريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه ».

فابن خلدون هنا يوضح الطرق التي لجأ إليها إبراهيم بن الأغلب في موقفه من دولة الأدارسة وأنه اتخذ المال والهدايا والدس وسيلة إلى القضاء على بعض أنصار دولة الأدارسة أو استمالة بعضهم إليه حتى تركوا دعوة الأدارسة وتحولوا إلى الدعوة العباسية .

وإذا كنا قد تحدثنا عن أسباب قيام هذه الدولة وعما قام به مؤسسها منذ قيامها إلى وفاته ، فمن الممكن أن نسأل ثانيا .

هل تحقق فى عهد إبراهيم ابن الأغلب الأغراض التى ذكرناها فى فى أسباب قيامها ؟

وفى عرضنا الموجز السابق مايدل على أن إبراهيم قد أدى الدور المطلوب منه خير أداء نقول ذلك بدون محاباة . فقد استطاع أن يسكن

---

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩٦

الفتن ويقضى على الثورات كما منع الأدارسة من الإغارة على دولته وأدى لمركز الخلافة المال الذى تعهد بحمله إلى بغداد ثم كفى الدولة مؤنة إرسال جيش وتحمل نفقاته كما يتحدث المؤرخون عن إزدهار الحيــــاة الإقتصادية والثقافية والعمرانية فى أيامه مما يدل عليه بناؤه لمدينة جديدة وتكوينه لجيش يحمى به أمارته . ولا نتكلم هنا عن توسع رقعة الدولة مما لم يكن يحلم به الرشيد عندما أسند الإمارة إلى إبراهيم والذى قد تحقق بعد ذلك على يد ابنه زيادة الله واستمر أحفاده يوسعون رقعة دولته مما سوف نعرض له بعد حين .

٢ — أمراء دولة الأغالبة

١ — إبراهيم الأول	١٨٤ هـ	٨٠٠ م
٢ — عبد الله الأول	١٩٦ هـ	٨١١ م
٣ — زيادة الله الأول	٢٠١ هـ	٨١٦ م
٤ — أبو عقال الأغلب	٢٢٣ هـ	٨٣٧ م
٥ — محمد الأول أبو العباس	٢٢٦ هـ	٨٤٠ م
٦ — أحمد	٢٤٢ هـ	٨٥٦ م
٧ — زيادة الله الثانى	٢٤٩ هـ	٨٦٣ م
٨ — محمد الثانى	٢٥٠ هـ	٨٦٤ م
٩ — إبراهيم الثانى	٢٦١ هـ	٨٧٤ م
١٠ — عبد الله الثانى	٢٨٩ هـ	٩٠٢ م
١١ — زيادة الله الثالث	٢٩٠ هـ	٩٠٣ م
	٢٩٦ هـ	٩٠٩ م[1]

إذا ألقينا نظرة على فترة حكم ولاة هذه الدولة التى بلغ عدد حكامها أحد عشر أميرا نجد أن اثنين منهم حكم كل منهما سنة واحدة بينما أربعة آخرون حكم كل منهم فترة أقل من عشر سنوات واثنان حكم أحدهما أحدى عشرة سنة ومؤسسها حكم أثنا عشرة سنة بينما حكم محمد الأول ست عشرة سنة وزيادة الله الأول قرابة اثنتين وعشرين سنة وإبراهيم الثانى ثمانية وعشرين سنة .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٧٦

ومع انى لا انظر إلى الحاكم بمقدار السنوات التى يعيشها وانما بمقدار ما انجزه من أعمال الا انى أرى أن طول فترة حكم الحاكم لابد أن تحدث تغيرات خاصة فى الشعب وفى الدولة .

ولذلك أوثر بعد أن تحدثت عن مؤسس الدولة أن اتحدث عن زيادة الله الأول ومحمد الأول وإبراهيم الثانى ، أما بقية الأمراء فسوف اشير إليهم عرضا أما زيادة الله الأخير الذى ختمت به الدولة وانتهت به حياتها فسوف اتحدث عنه فى سقوط هذه الدولة كما تحدثت عن المؤسس فى قيامها.

١ — زيادة الله الأول :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة تولى بعده ابنه عبد الله الذى استمر فى الحكم خمسة أعوام ولم يحدث فى أيامه فتن لأن أباه قد مهد له الأمر ولما توفى عبد الله تولى الأمر بعده أخوه زيادة الله وقد استطاع زيادة الله أن يظهر استقلال الدولة عن مركز الخلافة وأن كانت تابعة لها ولكن لاترغم على شيء لاترضاه فقد اراد المأمون أن تدعو الدولة لعبد الله بن طاهر على منابرها ولكن ذلك لم يرق للاغالبة وعرضوا المأمون بالتحول عن العباسيين إلى دعوة الادارسة يقول ابن خلدون [1] وجاءه (أى زيادة الله) التقليد من قبل المأمون وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله ابن طاهر على منابره فغضب من ذلك وبعث مع الرسول بدنانير من سكة الادارسة يعرض له بتحويل الدعوة ، وكان زيادة الله من اطول الأغالبة عهدا بالحكم كما حدث فى عهده قيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرة سردينية وفتح جزيرة صقلية فى البحر المتوسط وسوف نعرض لذلك فى فتوح هذه الدولة . وقد قضى زيادة الله الست سنوات الأولى من عهده

---

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧

آمنا مطمئنا حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب واستوزر اخاه الأغلب وهاجت الفتن واستولى كل رئيس بالناحية التي يحكمها حتى كادت افريقية ان تخرج عن طاعته .

وقد قام في عهده ثورات كادت تودي بالدولة حتى لم يبق معه من افريقية سنة ٢٠٩ هـ إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس(١) .

واول هذه الثورات كان سنة ٢٠٧ هـ حيث ثار زيادة بن سهل بن الصقلبية على زيادة الله بن الاغلب وزحف إلى باجة فحاصرها اياما فاخرج إليه زيادة الله العساكر فهزموا ابن الصقلبية وقتلوا من وجدوا معه على الخلاف وغنموا الاموال .

وبعد ذلك بعام ثار عليه احد عماله عمرو بن معاوية القيسي فارسل إليه جيشا كثيفا استطاع ان يحصره إلى ان سلم وكان ذلك سنة ٢٠٨ (٢) .

وفي سنة ٢٠٩ انتقض عليه منصور الطنبذي بطبنة وسار إلى تونس فملكها وكان العامل عليها اسماعيل بن سفيان وسفيان اخو الاغلب فقتله لتستخلص له طاعة الجند وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون ابن عمه ووزيره وتهددهم بالقتل ان انهزموا فهزمهم منصور وخشوا على أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون وافترقوا على افريقية واستولوا على باجة والجزيرة وصطفورة والادبس وغيرها واضطربت افريقية ثم اجتمعوا إلى منصور وسار بهم إلى القيروان فملكها وحاصر زيادة الله في العباسية اربعين يوما وعمر سور القيروان الذي خربه ابراهيم بن الاغلب فكانت

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي دكتور حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٨١

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٨٠ .

بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ودامت الحرب بين منصور وبين زيادة الله أربعين يوما ثم التقت الفئتان فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم منصور وولى هاربا منتصف جمادى الآخرة وانتهى زيادة الله إلى القيروان فأمر برفع القتال وتمادى منصور فى هزيمته إلى أن دخل قصره بتونس والناس لايشعرون وعفا زيادة الله عن أهل القيروان وصفح عن جميعهم غير أنه جعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى الصقة بالأرض [١].

ولم تنته هذه الفتن بهزيمة منصور الطنبذى وانشغال الدولة بفتح صقلية كما سيأتى بل انتقض فضل بن أبى العين بجزيرة شريك سنة ثمان عشرة ومائتين فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربيعى وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوهما وقتل عبد السلام وانهزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها وحاصرته العساكر حتى اقتحموها عليه وقتلوا كثيرا من أهلها وهرب آخرون حتى امنهم زيادة الله وهكذا مكنت يقظة زيادة الله واحكامه لسياسته من أن يقضى على من خولت له نفسه أن ينشق على الدولة او يحاول الانتقاض عليها وان يبسط سلطان الدولة فى كل ارجائها مع عدم اغفاله للجوانب الأخرى العمرانية والاجتماعية والقضائية وكذلك الحربية بتعبئة الجيش والاسطول لغزو صقلية يقول ابن عذارى مصورا عناية زيادة الله بالشئون العمرانية والتحصين الحربى[٢] « وكان زيادة الله يقول ما ابالى ما قدمت عليه يوم القيامه وفى صحيفتى اربع حسنات بنيانى المسجد الجامع بالقيروان وبنيانى قنطرة ابى الربيع وبنيانى حصن مدينة سوسة وتوليتى احمد بن ابى محرز قاضى افريقية » .

---

(١) ا — أنظر كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
ب — البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٧٠ — ٩٣
(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب ص ٩٩ ج ١

واستمر زيادة الله فى القيام بواجبات الدولة حتى أدركته الوفاة منتصف سنة ثلاث وعشرين ومائتين لأحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته .

خلف زيادة الله أخوه الأغلب الذى حكم ثلاث سنين احسن فيها السيرة واجزل العطاء للعمال كما قبض ايديهم عن الرعية وقطع النبيذ من القيروان وعاقب على بيعه وشربه وقضى على فتنة قامت بها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر .

٢ — محمد الأول :

ثم ولى بعد الأغلب ابنه أبو العباس محمد الأول ٢٢٦ — ٢٤٢ الذى استمر فى الحكم حوالى ستة عشر عاما ودانت له أفريقية وشيد مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين [١] .

هذا مايذكر ابن خلدون فى اسم المدينة وتاريخ بنائها ولكن البلاذرى يذكر لتاريخ بنائها سنة تسع وثلاثين ومائتين كما يوضح أنها غير العباسية التى بناها إبراهيم ابن الأغلب جده فيقول [٢] وكان محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أحدث فى سنة تسع وثلاثين ومائتين مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية أيضا فاخربها افلح بن عبد الوهاب الأباضى وكتب إلى الأموى صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا إليه به فبعث إليه الأموى مائة ألف درهم »

ومع ذلك فقد قامت ثورة لأغتصاب الأمارة منه ولكنه تمكن من أن يقضى عليها وأن يمسك بمقاليد الحكم . كما نشر الأمن والسكينة وقضى

---

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) فتوح البلدان القسم الأول ص ٢٧٨

على من حاول أن يعيث فى الأرض فساداً وبذلك تمكن من استمرار حركة الفتح والجهاد فى صقلية وأن يمد الجيش الإسلامى فيها بما يحتاجه من عدة وسلاح .

وفى سنة ٢٤٢ هـ توفى أبو العباس محمد بن الأغلب صاحب أفريقية لليلتين خلتا من المحرم فكانت ولايته ١٥ سنة ٨ أشهر ١٢ يوما ومات وعمره ٣٩ سنة (١) .

٣ — ومن سنة ٢٤٢ إلى سنة ٢٦١ تولى الحكم ثلاثة أمراء (٢) .

(ا) أحمد بن محمد بن الأغلب واستمر فى الحكم ست سنوات وكان حسن السيرة كثير العطاء للجند مولعاً بالعمارة فقد بنى بأفريقية نحو عشرة آلاف حصن بالحجارة واتخذ العبيد جنداً وفى أيامه فتحت قصريانه من مدن صقلية فى شوال سنة ٢٤٤ هـ . يقول ابن عـــذارى وفى سنة ٢٤٥ هـ أخرج صاحب أفريقية أبو إبراهيم بن الأغلب مالا كثيراً لحفر المراجل وبنيان المساجد والقناطر كما كمل بناء ماجل باب تونس الكبير وتمت الزيادة فى جامع القيروان وكمل إصلاح قنطرة باب أبى الربيع .

(ب) ثم ولى بعده ابنه زيادة الله الأصغر وكان حسن السيرة جميل الأفعال ذا رأى ونجده وجود وشجاعة ولم تطل مدة ولايته فكانت سنة واحدة وسبعة أيام .

(حـ) ولما توفى زيادة الله تولى بعده أخوه محمد بن أحمد بن محمد بن

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠١

(٢) أنظر ا ـ كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ صـ ٢٠٠ ـ ٢٠٢

ب ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ صـ ١٠٥ ـ ١٠٨

الأغلب ويلقب بأبي الغرانيق لأنه كان يهوى صيدها حتى بنى قصراً بخرج إليه لصيدها أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب وكان مسرفا فى العطاء مع حسن سيرة فى الرعية ثم غلب عليه اللهو والشراب ولم تكن له همة فى جمع المال فلما مات لم يجد أخوه فى بيت المال شيئا يذكر وفى عهده فتحت جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين ومائتين وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية وبنى حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة إلى جهة المغرب وفى سنة ٢٦٠ كانت المجاعة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون وتوفى سنة ٢٦١ هـ فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر .

٤ — إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ٢٦١ — ٢٨٩ هـ (١) .

قبل أن يتوفى أبو الغرانيق عقد لابنه أبى عقال العهد وكان صغيراً واستحلف أخاه إبراهيم بن أحمد وكان والياً على القيروان ألا ينازعه فى ملكه — بخمسين يمينا — وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان وأمره أن يتولى الأمر ويكون نائباً عنه إلى أن يكبر ولده فلما مات أبو الغرانيق أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وهو الوالى على القيروان وقالوا له قم فادخل القصر فأنت الأمير وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم فقال لهم قد علمتم أن أخى قد عقد البيعة لابنه واستحلفنى خمسين يمينا ألا أنازع ولده ولا أدخل قصره فقالوا له تكون أميراً فى دارك بالقصر القديم ولا تنازع ولده فنحن كارهون لولايته ومبايعون لك وليس فى أعناقنا له بيعة فركب

---

(١) أنظر ا — الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٠١
ب — البيان المغرب لابن عذارى ص ١٠٩ — ١٢٥
ج — كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣

من القيروان ومعه أكثر أهلها فحاربوا أهل القصر حتى دخل إبراهيم داره فبايعه مشايخ أهل أفريقية ووجوهها وبايعه جماعة بنى الأغلب وباشر الأمور وأقام فيها قياما مرضياً وكان عادلا حازما فى أموره فنشر الأمن فى البلاد وقتل أهل البغى والفساد وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان يوم الخميس والإثنين يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم .

ومن هنا ندرك أن إبراهيم كان متمسكا بوعده لأخيه ولكن أهل القيروان ووجوهها حملوه على تولى الإمارة لما لمسوه من صلاحه لها ، كما نلاحظ تدخل أهل القيروان ومشايخها وأهل الرأى من سكانها فى تنصيب الوالى وإن كان إختياره من بين أفراد الأسرة الحاكمة .

وقد اهتم إبراهيم بالناحية التجارية والعمرانية فكان تجار القوافل يسيرون فى الطرق آمنين كما بنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت النار توقد فى ساحل سبتة للنذير بالعدو فيصل إيقادها إلى الإسكندرية فى الليلة الواحدة وبنى على سوسة سوراً وفى سنة ٢٦٣ هـ إبتدأ إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ببناء مدينة رقادة وفى السنة التالية كمل بناء القصر المعروف بالفتح وانتقل إليه وقد غير مقر الإمارة فى سنة ٢٨١ حيث انتقل إلى تونس وأقام بها القصور واستوطنها .

ورغم هذه الإصلاحات الاقتصادية والعمرانية وما اتصف به إبراهيم من عدالة وإنصاف فقد قامت بعض الفتن والثورات فى عهده ففى عهده خالفت وزداجة ومنعوا الرهن وفعلت مثل ذلك هوارة ثم لواتة وقتلت ابن قهرب فى حروبهم فسرح اليهم إبراهيم إبنه عبـــد الله فى العساكر سنة تسع وستين فأثخن فيهم وفى سنة ثمانين كثر الخوارج وفرق العساكر اليهم فاستقاموا .

كما حدثت فتنة فى صقلية سنة ٢٨٥ بين عربها وبربرها فأرسل ابن الأغلب(١) كتابا يدعوهم فيه إلى الطاعة ويؤمنهم أجمعين ماعدا أربعة رجال ويختلف المؤرخون فى الحكم على إبراهيم فنجد ابن خلدون راويا عن ابن الرقيق يقول(٢) « وفى سنة ثمان وثمانين جاء رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم لشكوى أهل تونس له فاستقدم ـ أى إبراهيم ـ ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل هو إليها مظهر لغربة الانتجاع هكذا قال ابن الرقيق وذكر أنه كان جائرا ظلوما سفاكا للدماء وأنه أصابه آخر عمره ماليخوليا أسرف بسببها فى القتل فقتل من خدمه ونسائه وبناته مالا يحصى وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به وافتقد ذات يوم منديلا لشربه فقتل بسببه ثلثمائة خادم » .

ويقول ابن عذارى فى نهاية حكمه(٣) أنه فى سنة ٢٨٩ أظهر صاحب أفريقية إبراهيم بن أحمد التوبة لما استقام أمر أبى عبدالله الداعى بكتامة فأراد إبراهيم بن أحمد أن يرضى العامة ويستميل قلوب الخاصة بفعله فرد المظالم وأسقط القيالات وأخذ العشر طعاما وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل واعتق مماليكه وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة لتفرق فى الضعفاء والمساكين فاستوكلت وأعطيت لمن لا يستحقها وأنفقت فى اللذات وصرفت فى الشهوات وقدم ولده أبو العباس من صقلية مستدعى فأسلم إليه أبوه الملك فولى أبو العباس على الكور من أحب

أما ابن الأثير فيذكر شيئا آخر يقول(٤) « وعزم — أى إبراهيم —

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٤

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠٣

(٣) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢٥

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٠١

على الحج فرد المظالم وأظهر الزهد والنسك وعلم أنه إن حمل طريقه إلى مكة على مصر منعه صاحبها ابن طولون فتجرى بينهما حرب فيقتل المسلمون فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد ويفتح ما بقى من من حصونها فأخرج جميع ما ادخره من المال والسلاح وغير ذلك وسار إلى سوسة فدخلها وعليه فرو مرقع فى زى الزهاد أول سنة تسع وثمانين ومائتين وسار منها فى الأسطول إلى صقلية وسار إلى مدينة بلرم فملكها سلخ رجب وأظهر العدل وأحسن إلى الرعية وسار إلى طبرمين فاستمد أهلها لقتاله فلما وصل خرجوا إليه والتقوا فقرأ القارىء إنا فتحنا لك فتحا مبينا فقال الأمير اقرأ هذان خصمان اختصموا فى ربهم فقرأ فقال اللهم إنى اختصم أنا والكفار إليك فى هذا اليوم وحمل معه أهل البصائر فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ودخلوا معهم المدينة عنوة فركب بعض من بها من الروم مراكب فهربوا فيها والتجأ بعضهم إلى الحصن وأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم فاستنزلوهم قهرا وغنموا أموالهم وسبوا ذراريهم وذلك لسبع بقين من شعبان وأمر بقتل المقاتلة وبيع السبى والغنيمة ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه وبقى سبعة أيام لايلبس التاج وقال لايلبس التاج محزون وتحركت الروم وعزموا على المسير إلى صقلية لمنعها من المسلمين فبلغهم أنه سائر إلى القسطنطينية فترك الملك بها عسكرا عظيما وسير جيشا كبيرا إلى صقلية أما الأمير إبراهيم فإنه لما ملك طبرمين بث السرايا فى مدن صقلية التى بيد الروم وبعث سرية إلى ميقش وسرية إلى دمنش فوجدوا أهلها قد أجلوا عنها فغنموا ما وجدوا بها وبعث طائفة إلى رمطة وطائفة إلى الباج فأذعن القوم جميعا إلى أداء الجزية فلم يجبهم إلى ذلك ولم يقبل منهم غير تسليم الحصون ففعلوا فهدمها وسار إلى كسنتة فجاءته الرسل منها يطلبون الأمان فلم يجبهم وكان قد ابتدأ به المرض وهو علة الذرب فنزل العساكر على المدينة فلم يجدوا فى قتالها

لقيبة الأمير عنهم وإنه نزل منفردا لشدة مرضه وامتنع منه النوم وحدث به الفواق وتوفى ليلة السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين . وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير تصدق بجميع مايملك ووقف املاكه جميعها وكان له فطنة عظيمة باظهار خفايا العملات .

هذه هى آراء المؤرخين القدامى فى نهاية إبراهيم ولاشك أن مايرويه ابن خلدون عن ابن الرقيق فيه كثير من التجنى على إبراهيم ومجاوزة للحد فى وصفه بالحلوسة وفى اسرافه فى سفك الدماء فابن خلدون يروى ذلك بما يدل على عدم تصديقه لهذه الأحداث التى يذكرها فيقول هكذا ذكر ابن الرقيق مع موافقتهم جميعا على خروجه إلى صقلية وابلائه بلاء حسنا فى القتال إلى آخر أيامه

وإن كان ابن عذارى يشير إلى عودته إلى الاستقامة بعد ظهور أبى عبدالله الشيعى واستفحال امره بكتامة ولكنه لم يتوجه بالحرب إلى عبد الله ليقاتله وإنما يذهب إلى صقلية لكى يقود الجهاد والفتح ثم يعلل ابن الأثير ذلك بأنه كان قد أزمع على الحج ولكن حجا لاتراق فيه دماء المسلمين وذلك حين يصطدم بابن طولون فى مصر فجعل طريقه يجمع ثوابين ثواب الحج وثواب الجهاد ولست أدرى ماذا كان سيحدث ، لو طالت حياة إبراهيم هل كان سيذهب إلى مكة للحج عن طريق صقلية كما فعل ذلك ابن جبير أم أنه كان سيكتفى بالجهاد والمرابطة فى سبيل الله ؟ على أننى لا أستسيغ كتاب المعتضد بعزل الأمير إبراهيم مع قيام الدولة الطولونية بينة وبين إبراهيم وما كان المعتضد بقادر على عزله وإن كان يستطيع أن يحدث له بعض المشاكل كما يثنى عليه ابن الأثير بكمال العقل وحسن السيرة وحبه للخير ليس هذا فقط بل يذكر حذقه فى معرفة النقود وتمييزه بين المغشوش منها والنقى .

وقد توفى إبراهيم فى صقلية سنة تسع وثمانين اثمان وعشرين سنة من امارته وكان عمره تسعا وخمسين سنة واتفق ابن خلدون وابن عذارى على دفنه بصقلية ولكن ابن الأثير يقول إنه حمل إلى القيروان فدفن بها .

وقد قام بالأمر بعد إبراهيم ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ابن أحمد (١) وعظم أمره وكتب إلى العمال ليأخذوا له البيعة وبشرهم بالعدل والرفق والجهاد وجالس أهل العلم وشاورهم وكان لايركب إلا إلى الجامع واعتقل ابنه زيادة الله لما بلغه من اعتكافه على اللذات واللهو وأنه يروم التوثب عليه وكان أبو العباس حسن السيرة عادلا بصيرا بالحروب وكانت أيامه صالحة وكان نزوله بتونس ، وقد صانع زيادة الله بعض الخدم على قتل أبيه فقتل نائما بعد سنة من ولايته فى شعبان سنة تسعين ومائتين .

ولما قتل عبد الله أطلق زيادة الله من الاعتقال واجتمع أهل الدولة وبايعوا له فقتل الذين قتلوا أباه وأقبل على اللذات واللهو ومعاشرة المضحكين وأهمل أمور الملك .

وقوى أمر ابن عبد الله الشيعى فانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلا وأخذ عبد الله الشيعى القائم بدعوة الفاطميين يستولى على المدن واحدة بعد أخرى وكثر الإرجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان العطاء وأجمع الخروج فخرج إلى الأدبس سنة خمس وتسعين ثم أخذ عبدالله الشيعى يوالى الاستيلاء على المدن حتى وصل إلى قودة . فحمل زيادة الله أمواله وأثقاله ولحق

---

(١) أنظر ا ـ الكامل لابن الأثير جـ ٨ صـ ٧

ب ـ كتاب العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٥

حـ ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى جـ ١ صـ ١٢٨ — ١٢٩

بطرابلس معتزما على الشرق وأقام بطرابلس سبعة عشر يوما انصرف بعدها إلى مصر فمنعه عاملها النوشرى من دخولها فاقام بظاهر البلد ثمانية أيام وانصرف إلى ابن الفرات وزير المقتدر يستأذن له فى الدخول فاتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلى أفريقية وأمر النوشرى بامداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوة بأفريقية ووصل إلى مصر فاصابته بها علة مزمنة وسقط شعره ويقال إنه سم وخرج إلى بيت المقدس فتوفى بالرملة سنة ٣٠٣ هـ ودفن بها وانتهت بموته دولة الأغالبة بعد أن حكمت مائة واثنتى عشرة سنة .

٣ — فتوحات دولة الاغالبة

بعد أن ثبتت أركان دولة الأغالبة واستقر سلطانها اتجهت إلى توسيع رقعتها ولكنها لم تتجه إلى داخل أفريقية حيث تحدها الصحراء من الجنوب ولا إلى الشرق أو الغرب حيث تقوم أمارات أو ولايات مسلمة وإن كانت قد حصنت نفسها من هؤلاء الجيران غير أن الشمال كان يغير عليها ويقلق بالها وكان فى ذلك فرصة لها لكى توسع أملاكها .

أهمية موقع صقلية :

والذى يقع فى شمال دولة الأغالبة هو البحر المتوسط وأقرب الشواطىء فيه هى جزيرة صقلية وإيطاليا التابعين للروم . وإيطاليا وصقلية وشمال تونس تقسم البحر المتوسط إلى حوضين / الحوض الشرقى وهو ما بين هذه الأقاليم الثلاثة وسواحل الشام وآسيا الصغرى والحوض الغربى وهو ما بين تلك الثلاثة وشبه جزيرة أيبيريا — أسبانيا

وللحوض الغربى بابان : الأول مضيق جبل طارق ويفصل أوربا — أسبانيا — عن أفريقية بمقدار ٢٩ كيلو مترا والباب الثانى مضيق صقلية

الذى يفصلها عن شمال تونس ويبلغ اتساعه ١٣١ كيلو مترا ومن خصائص هذين البابين أن الدولة التى تسيطر على ضفة أحدهما لا بدأن تحاول الاستيلاء على الضفة الأخرى .

وقد فطن الفينيقيون إلى ذلك فاستولوا على مضيق جبل طارق فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد واستولى الرومان على أسبانيا نحو سنة ٢٠٢ ق م ثم أخذوا جزءا من بلاد المغرب فى عهد أغسطس قيصر (٣٠ ق . م) وبلغ من شدة ارتباط الضفتين أن كانت ممتلكاتهم فى أسبانيا وفى المغرب بمثابة مستعمرة واحدة ، ولما ملك الوندال أسبانيا بعد الرومان أمتد نفوذهم منها إلى شمال المغرب وبلغ حتى تونس فتخطوا منها إلى صقلية وإيطاليا وأصبحوا سادة الحوض الغربى تقريبا ، ولما جاء القوط عن طريق جنوب فرنسا وغزوا أسبانيا ضغطوا على الوندال جنوبا ثم جاءت دولة الروم الشرقية — فيما بعد — فانتزعوا المغرب من الوندال كما أمتلكوا مالهم فى جنوب أسبانيا غير أن نفوذهم تقلص بعد ذلك فمد القوط سيادتهم على باقى أسبانيا وتخطوا المضيق واستولوا من جانبه الآخر على مدينة سبتة .

وأما مضيق صقلية ، فقد ملكته دولة قرطاجنة بالسيطرة على صقلية وهى دولة فينيقية الأصل نشأت فى ما يعرف الآن بتونس وانشأت مدينة قرطاجنة عاصمة لها وسيطرت على صقلية والمغرب وشواطىء أسبانيا . وانشأوا فى أسبانيا أيضا مدينة قرطجنة الجديدة ، واستمرت على ذلك حتى ظهرت الدولة الرومانية فى روما وشملت املاكها إيطاليا ثم تطلعت إلى صقلية وشمال إفريقية فاخذت تنازع قرطاجنة على أملاكها وكانت بين الفريقين حروب تعرف بالحروب البونية ، وكانت أولى هذه الحروب سنة ٢٤٠ ق.م وفيها انتزعت منها صقلية وآخر هذه الحروب كان سنة ١٤٦ م وفيها قضى الرومان على دولة قرطاجنة واستمدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع

كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين فى الفترة المبكرة من فتوحاتهم وغدت المعقل الذى يمكنه الصمود تماما أمام الزحف الإسلامى كما مكنت الروم من سهولة إستعادة إفريقيا من العرب أثناء الفتح .(١)

حالة المجتمع الصقلى

إن جذور المجتمع الصقلى تستمد من العصر البيزنطى الذى بدأ فى الجزيرة حينما استولى بلزاريوس قائد جستنيان على الجزيرة من يد القوط سنة ٥٣٥ م ليخلصها من حكم القوط وظلت تخضع للبيزنطيين حتى كانت أحداث الفتح الإسلامى .

وأول ما يلاحظ فى طبيعة تكوين المجتمع الصقلى قبل الفتح أن الجزيرة بحكم موقعها الجغرافى كانت فى مهب الهجرات والإغارات فلم تكتسب طابعاً عنصرياً متحداً إنما كانت تعانى من البعثرة العنصرية والتفكك الإجتماعى ولم يستطع الحكم البيزنطى أن يعطى الجزيرة إستقرارها الإجتماعى المنشود رغم أن هذا الحكم إستمر نحو ثلاثة قرون بل ضاعفوا عوامل التفكك فيها فقد إعتمدوا على جلب البرابرة وإشراكهم فى الجيش وفتحوا باب الهجرة أمام المغامرين من السوريين واليهود يتدفقون إليها ويقيمون فيها .

---

(١) انظر ا ـ الأمويون ، والبيزنطيون د . إبراهيم أحمد العدوى ص ٩٧
ب ـ تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى د . على محمد جمودة ص ١٦ - ٢٧ .

وثمة ملاحظة أخرى على المجتمع الصقلى قبل الفتح وهى أن البيزنطيين اعتمدوا فى الإنتاج الاقتصادى على جماعات من العبيد يستقدمون للجزيرة بأعداد وفيرة كما أن كثيرين من الفلاحين الأحرار كانوا يختارون حياة العبيد بسبب فداحة الضرائب وثقل الأعباء الإقتصادية ، هذا فضلاً عن الظروف الإقتصادية الصعبة التى عاشتها الجزيرة فى ظل السيادة البيزنطية فقد كانوا يفرضون الضرائب الفادحة لخزينة الدولة وعين جستنيان برايتورا Praetor ينفذ هذه السياسة الاقتصادية وخضعت صقلية للأنظمة البيزنطية الجائرة التى جرت عليها التعاسة والشقاء ويرى بروكوبيوس فى تاريخه السرى أن البلاد إقفرت من سكانها ورزحت تحت عبء ثقيل من الضرائب والاضطهاد الدينى والثورات العسكرية .

كانت صقلية تدفع ضرائب على الأملاك والرؤس وأتاوات على التجارة والصناعة وضرائب للجند وأخرى للبحارة وأموالا يبتزها الموظفون بل إن أحد الجباة فى نهاية القرن السادس أجبر الرعايا العاجزين عن الدفع إلى تقديم أبنائهم وكانت الكنيسة تشارك الدولة النفوذ والسلطان .

ولم تنج الجزيرة من الفتن الدينية والصراع المذهبى فى النصف الثانى من القرن الثامن أذاع ليبو فى الناس منشوراً يحرم به الصور فى الكنائس ويأمر بنزعها ودخلت الدولة فى نزاع مع الكنيسة فى روما بسبب هذه السياسة .

وجملة القول أن صقلية البيزنطية فقدت كما يرى الأستاذ إمارى شخصيتها ومقوماتها العمرانية ولم ينعم المجتمع الصقلى بالاستقرار إنما كان مجتمعاً محموما كأنه المعسكر الحربى المسلح .

ورغم ذلك فإن هذه الجزيرة كانت فى العهد البيزنطى مركزاً قوياً

للثقافة الإغريقية الجديدة هذا الثقافة التى ستترك أثراً فى تكوين الدولة الصقلية ليكون لها لونها الخاص واتجاهها الخاص .

من هذا كله نخلص إلى أن جميع هذه البلاد كانت مهيئة تماما لتقبل الفتوح العربية [١] .

محاولات المسلمين غزو صقلية وما حولها :

١ — كانت أولى المحاولات لغزو صقلية فى أيام معاوية بن أبى سفيان وقد كان مهتماً بالجزر والإستيلاء عليها قال ابن خلدون [٢] غزا معاوية ابن حديج الكندى أيام معاوية بن أبى سفيان (صقلية) وكان أول من غزاها .

وبعد ذلك تتابعت الحملات التى كانت تغير على صقلية فقد عقد موسى ابن نصير لعياش بن أخيل على مراكب إفريقية فسار فى البحر إلى صقلية فأصاب مدينة يقال لها سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالما غانما[٣]

ثم غزا [٤] بشير بن صفوان الكلبى صقلية بنفسه فى أيام هشام بن عبد الملك سنة تسع ومائة فأصاب سبيها كثير ورجع إلى القيروان منصوراً كما أغزى عبد الله بن الحبحاب والى إفريقية سنة ١١٤ هـ حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى جزيرة صقلية فركب البحر إليها سنة

---

(١) الحضارة الإسلامية فى بلاد المغرب والأندلس د . حسن أحمد محمود صـ ٢٨ — ٣٠

(٢) كتاب العبر لابن خلدون جـ ٤ صـ ٢٧٨

(٣) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ صـ ٢٧

(٤) الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى السلاوى صـ ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣

إثنتين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثخن فى سائر الجزيرة . كما أرسل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى سنة خمس وثلاثين ومائة جيشاً فى البحر إلى صقلية وآخر إلى سردينيه فأثخنوا فى أمم الافرنج حتى أذعنوا للجزيه ويذكر ابن عذارى (١) أن المسلمين غزو جزيرة سرديفية وعليهم محمد بن عبد الله التميمى فأصابوا وأصيب منهم ثم قفلوا .

وكانت هذه المحاولات بمثابة تمرين بحرى لأجل حملة الفتح كما أنه كان فرصة لبناء الأسطول البحرى العربى وتدريب بحارة مكافحين لا يخشون البحر ويستطيعون القتال على لججه وإن كان كل ذلك قد استغرق فترة طويلة منذ بدء المحاولات الأولى إلا أنه كان نمواً طبيعياً حسب مالاقاه من معاكسات واضطرابات .

أسباب فتح صقلية :

يذكر ابن الأثير(٢) أن سبب إنفاذ زيادة الله جيشاً إلى صقلية أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقا اسمه قسطنطين سنة إحدى عشرة ومائتين فلما وصل إليها استعمل على جيش الأسطول إنساناً روميا إسمه فيمى كان حازما شجاعا فغزا إفريقيا وأخذ من سواحلها تجارا ونهب وبق هناك مديدة ثم أن ملك الروم كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمى مقدم الأسطول وتعذيبه فبلغ الخبر إلى فيمى فأعلم أصحابه فغضبوا له وأعانوه على المخالفة فسار فى مراكبه إلى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة فسار إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهزم

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج١ ص ٤٩

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢١

قسطنطين إلى مدينة قطانية فسير إليه فيمى جيشاً فهرب منهم فأخذ وقتل وخوطب فيمى بالملك واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة فخالف على فيمى وعصى واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل وهو والى مدينة بلرم وجمعا عسكراً كثيراً فقاتلا فيمى وانهزم فاستولى بلاطة على مدينة سراقوصة وركب فيمى ومن معه فى مراكبهم إلى إفريقية وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية ويزيد اللواء الركن محمود خطاب [١] أن أوفيموس Euphemios الذى يسميه العرب فيمى وكان مقدما من بطارقة القيصر على مايقوله مؤرخو العرب أو (طورمارخا Tormarxha) أى قائد فرقة فى جيش صقلية المحلى برتبة فريق على ماتقوله المراجع الإيطالية والبيزنطية

كانت قد وقعت عداوة بينه وبين والى صقلية العام لأسباب شخصية لأن الوالى العام قد خطف منه خطوبته على مايذكره أحد المراجع الإيطالية أو لأن فيمى قد خطف راهبة من ديرها فعاقبه الوالى بالعزل فلجأ إلى بنى الأغلب يطلب منهم المعونة وقدم نفسه لزيادة الله دليلا وعوناً على فتح صقلية

وهكذا يذكر ابن الأثير ويؤيده ابن خلدون [٢] وتتفق معهما المراجع الإيطالية والبيزنطية أن سبب حملة فتح صقلية هى قدوم هذا القائد واستنجاده بزيادة الله وهذا التعليل للحملة يبدو لى أنه يمكن أن يكون سبباً مباشراً .

---

(١) مجلة العربى مقال أسد بن الفرات ص ١٠٦ عدد ١٠٤

(٢) أنظر كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ — ٢٠٠

ولكنى أرى أن هناك أسبابا أبعد من ذلك ترجع إلى فرض السيادة البحرية على البحر المتوسط وإلى تأمين الساحل الإفريقى لا سيما وقد خرجت الإغارات البحرية على جزيرة صقلية وأثبتت تلك الإغارات المتكررة مدى إدراك المسلمين لخطورة قاعدة الروم البحرية فى جزيرة صقلية وضرورة إنتزاعها من أيديهم ولم يبق أمام العرب غير انتهاز الفرصة المواتية لتحقيق حلمهم البحرى القديم بالاستيلاء على صقلية واتخاذها قاعدة لأسطولهم .

وابن الأثير نفسه يذكر أن فيمى هذا غزا إفريقية سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذ من سواحلها تجاراً ونهب وبقى هناك مدة يده . فحالة الحرب كانت قائمة فى السنة السابقة على حملة زيادة الله لفتح صقلية كما أنه ما زال هناك أسرى من المسلمين فى صقلية أنكرهم الصقليون على خلاف شروط الهدنة كما يوضح ذلك اللواء الركن محمود خطاب[١] وكانت بين صقلية وإفريقية هدنة لم تنقض مدتها فعرض زيادة الله أمرها على أبى محرز وأسد أما أبو محرز فآثر التريث وأما أسد فآثر أن يسأل الصقليين ليعرف هل لديهم فى صقلية أسرى من المسلمين قال أبو محرز كيف نقبل قول الرسول عليهم أو دفعهم عنهم فقال أسد بالرسل هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين قال عز وجل (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) فكذلك لا نتماسك به ونحن الأعلون .

وحلت العقدة وتحلل زيادة الله من الهدنة بعد أن أقر الرسل بوجود الأسرى من المسلمين فى صقلية وكانت الهدنة تنص على « أنه من دخل

---

(١) مجلة العربى مقال أسد بن الفرات ص ١٠٦ ، ١٠٧ عدد ١٠٤

إليهم من المسلمين وأراد أن يردوه إلى المسلمين كان ذلك عليهم وقد ثبت باعتراف رسل (صقلية) أن أسرى المسلمين فى صقلية خلافاً لشروط الهدنة .

ومن هنا ندرك أن حالة الحرب التى أوقفتها الهدنة ثم نقضهم لها بالاحتفاظ بأسرى المسلمين بالإضافة إلى استعانة فيمى بزيادة الله كانت من الأسباب المباشرة لحملة الفتح .

حملة الفتح

جمع زيادة الله بجلسه الحربى المؤلف من وجوه أهل القيروان وفقهائها ومنهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضيان وسحنون بن سعيد واستشارهم فى أمر فتح صقلية وبعد أخذ ورد استقر الرأى على إرسال الحملة وما كان لهم ألا يفعلوا وقد واتتهم الفرصة لتوسيع رقعة الدولة وبسط نفوذها على مواقع إستراتيجية وهامة وإيجاد قواعد لأسطولهم فى البحر المتوسط ثم القضاء على القوة البحرية للروم التى كانت تغير عليهم بين آونة وأخرى .

وتحرك الأسطول الأغلبى حاملا القوات البرية والبحرية بقيادة أسد ابن الفرات القاضى وشيخ الفتيا ومؤلف الأسدية وكان جيش الفتح مؤلفاً من عشرة آلاف رجل منهم ألف فارس حملتهم مائة سفينة .

وخرج لتوديع الجيش وجوه أهل العلم والشعب وعلى رأسهم زيادة الله وصهلت الخيل وضربت الطبول وخفقت البنود وكان الإبحار من سوسة يوم السبت النصف من شهر ربيع الأول سنة إثنتى عشرة ومائتين .

ورست سفن الأسطول الإسلامى على ساحل صقلية فى ميناء مازر على

ساحل صقلية الغربي وهو أقرب ثغور صقلية إلى افريقية وهناك جرى إنزال قوات المسلمين حيث لم يجدو مقاومة في ذلك الثغر وسار أسد على رأس جيشه إلى شرق الجزيرة لمقابلة الروم الذين اجتمعوا حول صاحب صقلية بلاطه حتى بلغ جيشه مائة وخمسين ألفاً واجتمع إلى أسد فيمى — القائد الروماني وأنصاره — ليقاتلوا معه فأبى أسد وطلب إليهم أن يعتزلوهم واشتد القتال بين المسلمين والروم فانهزمت الروم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم وهرب بلاطه إلى قلورية فقتل بها واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة الكراث وبعد انتصار المسلمين فر الروم نحو الجبهة الشرقية وحشدوا جموعهم حول مدينة سرقوسة فرأى أسد أن يستثمر الفوز فسار بجيشه يقتفي أثر المنهزمين قاطعاً مسافة مائتي كيلو متر وهي المسافة الفاصلة بين رأس الجسر الذي نزل فيه المسلمون في مدينة مازر وبين سرقوسة .

وكان هناك عدة من المدن والحصون في شمال صقلية لا تزال بيد الروم وكان خط القتال الناشب بين المسلمين والروم ممتداً في الحقيقة من سرقوسة في شرقي الجزيرة إلى بلرم في شمالها الغربي .

وحاصر أسد سرقوسة براً وحاصرتها سفن المسلمين بحراً ووصلت الامداد من إفريقية فبعث أسد إلى بلرم الجند والسفن لحصارها .

وفي ذلك الحين وصل إلى مياه سرقوسة أسطول بيزنطي بعثه الإمبراطور من القسطنطينية لإنجاد الجزيرة فاشتدت مقاومة الروم للمسلمين وارتفعت معنوياتهم فنشبت بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة في البر والبحر .

وتحرج موقف المسلمين لتكاثر الروم عليهم من جهة إذ أصبحوا يصاولوا جيش الأمبراطورية لاجيش صقلية المحلى كما انتشر الوباء فى معسكرهم من جهة أخرى وذلك سنة ثلاث عشرة ومائتين فهلك منهم خلق كثير ولكن أسد دأب على القتال فتوفى وهو محاصر لسرقوسة فى ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين وتولى القيادة بعد أسد محمد بن أبى الجوارى فلما رأى تفاقم الأمر على المسلمين حاول الإنسحاب فى السفن إلى أفريقية ولكن السفن البيزنطية منعته من ذلك فأمر عندئذ بحرق السفن .

وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة وتفرقوا فيها سرايا يغزون بسائطها ويحاصرون قلاعها يقول ابن الأثير(١) ورحلوا إلى مدينة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن فسارت طائفة منهم إلى جرجنت فقاتلوا أهله وملكوه وسكنوا فيه واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا إلى مدينة قصريانة ووصل جيش كبير من القسطنطينية مددا لمن فى الجزيرة فتصافوا والمسلمون فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ودخل من سلم قصريانه وتوفى محمد بن أبى الجوارى أمير المسلمين وولى بعده زهير ابن غوث وصار القتال بين الروم والمسلمين سجالا ولكن كفة الروم كانت راجحة وضيقوا الخناق على بعض المسلمين فدخلوا ميناو ودام الحصار عليهم حتى أكلوا الدواب والكلاب فلما سمع من فى مدينة جرجنت من المسلمين ماهم عليه هدموا المدينة وساروا إلى مازر ولم يقدروا على نصرة أخوانهم ودام الحال كذلك إلى أن دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وقد أشرف المسلمون على الهلاك .

---

(١) أنظر ا ـ الكامل لابن الأثير جـ ٦ ١٢٤ ، ١٢٥

ب ـ كتاب العبر لابن خلدون جـ ٤ صـ ١٩٩ ، ٢٠٠

وفى سنة ٢١٤ هـ وصل مدد من أفريقية لجيش الفتح ولكن المؤرخين يجمعون على مشاركة أسطول من الأندلس بقيادة فرغلوش ساعد المسلمين المحاصرين فى محنتهم وذلك بعد أن استغاث بهم المسلمون فى صقلية وبلغت عدة أسطول الأندلس بقيادة أصبغ ابن وكيل المعروف بفوغلوش والمدد القادم من أفريقية ثلاثمائة مركب فنزل الجنود إلى الجزيرة فانهزم الروم عن حصار المسلمين وسار المسلمون إلى مدينة بلرم فحصروها وضيقوا على من بها فطلب صاحبها الأمان لنفسه ولأهله ولماله فاجيب إلى ذلك وسار فى البحر إلى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد فى رجب سنة ستة عشرة ومائتين .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة فى قصة الفتح فقد كانت هذه المدينة ميناء سهل على المسلمين الاتصال الدائم بإفريقية وأصبح فى استطاعتهم أن يعتمدوا على أمدادات ومؤمن لاتنقطع وكانت المنطقة المحيطة بها تزود الجنود بحاجتهم من المؤمن وتحولت إلى قاعدة إسلامية تخرج منها الغارات إلى كافة أرجاء الجزيرة وأخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير فى انحاء الجزيرة ثم تعوذ محملة بالغنائم .

وكانت المقاومة الشديدة للفتح الإسلامى فى صقلية تنبع من بطريق صقلية الذى كان يقود القوات البرية والبحرية ويواجه المسلمين بحرب عصابات شديدة الوطأة ثم الأسطول البيزنطى فكانت الغارات السريعة الخاطفة هى خير ماخلص المسلمين من قوات البطريق ومن حرب العصابات هذه(١) .

والمصادر عندما تذكر هذه المشاركة من الأندلسيين لا تذكر أن الفاتحين طلبوا المعونة من الأندلس بقوتهم البحرية وإنما يذكر ابن خلدون أنهم

---

(١) أنظر الحضارة الإسلامية فى بلاد المغرب والأندلس د. حسن أحمد ص ٥٢ — ٥٣ .

خرجوا للجهاد وابن الأثير أنهم خرجوا غزاة أما إبن عذارى فيسكت عن ذلك وكأنه كان مصادفة .

ويمكن لنا أن نفترض فرضين :

١ — أنه ربما كان الأندلسيون قد قصدوا بحملتهم صقلية فوجدوا الأغالبة فسبقوهم إليها وطلب جيش الأغالبة منهم المعونة فأعانوهم وعملوا على إنقاذهم من حصارهم وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على بعض المدن والحصون ومن يروى هذا يشير إلى المنافسة والنزاع بين الأندلسيين والفاتحين من إفريقية .

٢ — ويمكن أن نقول إن الأسطول الأندلسى كان يجرى مناورات أو يتجول فى البحر المتوسط بقصد التدريب والاستكشاف فاستعان بهم قائد حملة الفتح فأعانوه .

إستمرار الجهاد

رحل الأسطول الأندلسى وثبتت أقدام المسلمين فى صقلية ولكن ليس معنى ذلك أنهم تغلبوا على كل صقلية وتم فتحها وتبعيتها للأغالبة وإنما بقيت جيوب ومدن وحصون لم تسلم وصارت الحرب سجالا بين الروم والمسلمين إلى أن تم الإستيلاء عليها بعد حوالى قرن من بداية حملة أسد بن الفرات وكان تمام الاستيلاء عليها فى نهاية حكم الأغالبة .

وإننا عندما نتتبع سير الحرب والجهاد والسرايا والغزوات إلى أن تم الاستيلاء على صقلية سوف نسرف فى القول ويطول بنا الحديث وإن كان ذلك مهما إلا أن طبيعة هذا البحث لا تحتمل مثل ذلك .

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى أن أهم المدن والحصون التي استولى عليها في غضون تلك المدة وبعض السرايا البرية والبحرية التي تخللتها مع شرح الاستيلاء على مدينتين مهمتين مدينة قصريانة ومدينة سرقوسة مع إشارة موجزة إلى القواد ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام .

١ — من رجوع الأسطول الأندلسي إلى سقوط قصريانة من سنة ٢١٦ — ٢٤٤ هـ .

٢ — من سقوط قصريانة إلى سقوط سرقوسة من سنة ٢٤٤ - ٢٦٤ هـ

٣ — من سقوط سرقوسة إلى إنتهاء دولة الأغالبة من سنة ٢٦٤ — ٢٩٦ هـ

فقد توجه إلى صقلية في سنة ٢١٦ هـ أو ٢١٧ هـ (١) محمد بن عبد الله بن الأغلب التميمي لولايتها بأمر زيادة الله بن الأغلب ونجح في الاستيلاء على بلرم التي اتخذها عاصمة لولاية صقلية .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة في سبيل إفتتاح صقلية كلها إذ كانت ميناء بحريا سهل تلقي المؤن والإمدادات من أفريقية عن طريق الأسطول الإسلامي .

ثم استمرت الحملات والسرايا إلى وقت وفاته في سنة ٢٣٦ هـ ففي سنة ٢٢٢ هـ نجح المسلمون في فتح حصن مد نار ومعاقل كثيرة في حملة قام بها الفضل بن يعقوب(٢) .

كما سير أبو الأغلب سرية إلى قسطليانة وقصريانه فانتصرت الأولى

---

(١) المغرب الإسلامي د . السيد محمود عبد العزيز سالم

(٢) البيان المغرب لابن عذارى حـ ١ صـ ٩٤

وهزمت الثانية ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب برجالها وشلندى[1] ومن سنة ٢٢٥ إلى ٢٣٢ هـ استأمن عدة حصون من جزيرة صقلية إلى المسلمين منها حصن البلوط وإبلاطين وقرلون ومرو وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحها ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال فعاد أسطول الروم إلى القسطنطينية مهزوما فكان فتحاً عظيما كما سارت سرية إلى حصن الغيران وهو أربعون غاراً فغنمت جميعها ثم خرجت سرية فبلغت شزة فقاتله أهلها قتالا شديداً وكانت الهزيمة على الروم وقتل منهم خلق كثير[2].

وفى سنة ٢٣٢ هـ حصر الفضل بن جعفر مدينة مسيني فانفتح الطريق أمامهم إلى جنوبى إيطاليا وقد أرسل الروم عشر شلنديات أرست بمرسى الطين ولكنهم لم يتمكنوا من الإغارة على المسلمين كما تصالح أهل رغوس وحامية المدينة مع المسلمين .

وبعد هذه الغارات والسرايا المتوالية التى كان يرسلها محمد بن عبد الله ابن الأغلب توفى فى سنة ست وثلاثين ومائتين بعد أن استمر واليا على صقلية قرابة عشرين سنة فتولى إمارة صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب فأخذ يخرج قائداً للسرايا والغزوات المتتالية ويرد حملات الروم التى ترسلها القسطنطينية على أعقابها خاسرة فاشلة وأخذ يحاربهم حربا إقتصاديه يغير عليهم فيأخذ ما يستطيع ويتلف ما لا يستطيع أخذه . يقول ابن عذارى[3] فى سنة ٢٣٧ هـ أغزى العباس بصقلية أرض الروم فغنم غنائم

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٦ ص ١٢٤ — ١٢٦
(٢) الكامل لابن الأثير بتصرف ج ٦ ص ١٧٢ — ١٨٢
(٣) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٦

كثيرة وسبى سبيا كثيرا وأداخ بلادهم وفى سنة ٢٢٨ اغزى العباس بن الفضل صاحب صقلية الروم فقتل الله المشركين وبعث برؤسهم إلى مدينة بلرم وأقام ينتسف زرعهم ويطأ أرضهم ويسبى من ظفر به منهم ثم قفل إلى صقلية وفى سنة ٢٢٩ هـ كان الجهاد بصقلية فى غزوة العباس بن الفضل فى الصائفة فافسد زرع النصارى وبث السرايا فى كل موضع وغنم قصريانه وقطانية وسرقوسة وغيرها وحاصر مدينه بثيرة ستة اشهر حتى صالحوه على ستة آلاف رأس قبضها منهم وقفل إلى حضرة بلرم وفتح مدينة سورنته وهكذا كان العباس يخرج فى الصائفة والشاتية ليغير على الحصون ويبث السرايا ويحاصر المدن والحصون حتى تسلم إليه أو تصالحه فقد صالحه أهـــل قصر الحديد بعد أن حاصرهم شهرين بخمسة عشر ألف دينار وصالحه أهل حصن شلفودة على أن يخرجوا منه ويهدمه ففعل .

ولقد ساعدت هذه الغزوات والسرايا المتكررة والمستمرة صيفا وشتاء والتى تدل على سرعة حركة الجيش الإسلامى فى بلاد كانت تستعمل فيها حرب العصابات والحرب الاقتصادية التى لجأ إليه العباس أن يتمكن من الاقلال من فائدة حملات الروم المتتابعة لمساعدة بطريق صقلية الذى كان يقيم فى قصريانه حتى تمكن المسلمون أخيرا من الاستيلاء على قصريانه عاصمة البطريق بعد قتال عنيف وجهد شاق يذكره ابن الأثير حين يتحدث عن فتح قصريانه فيقول[1] « فى سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون قصريانه وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل الملك إلى قصريانه لحصانتها وسبب فتحها أن أبا العباس سار فى جيوش المسلمين إلى مدينة قصريانة وسرقوسة وسير جيشا فى البحر فلقيهم أربعون شلنديا للروم فاقتتلوا أشد

(١) الكامل لابن الاثير جـ ٧ ص ٢١ ، ٢٢ .

قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها وعاد العباس إلى مدينته فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانه فنهبوا وخربوا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال استبقنى ولك عندى نصيحة قال ماهى قال أملكك قصريانه .

والطريق فى ذلك أن القوم فى هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين ترسل معى طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة فانتخب العباس ألف فارس انجاد أبطال وصار إلى أن قاربها وكمن هنالك مستترا وسير عمه رباحا فى شجعانهم فساروا مستخفين فى الليل والرومى معهم مقيد بين يدى رباح فأراهم الموضع الذى ينبغى أن يملك منه فنصبوا السلاليم وصعدوا الجبل ثم وصلوا إلى سور المدينة قريبا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من نحو باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقذار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف فى الروم وفتحوا الأبواب وجاء العباس فى باقى العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال وبنى فيها فى الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وابناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية فى ثلثمائة شلندى وعسكر كثير فوصلوا إلى سرقوسة فخرج إليهم العباس من المدينة ولقى الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا فى مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندى وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب وفى سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من فلاحى صقلية وهى سطر وابلا وابلاطنوا وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبو ثور وغيرها من القلاع فخرج العباس إليهم فلقيهم عساكر الروم فاقتتلوا

فانهزم الروم وقتل منهم كثير وسار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة ابلاطنوا فحصرها فأتاه الخبر بأن كثيرا من عساكر الروم قد وصلت فرحل إليهم فالتقوا بجفلودى وجرى بينهم قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا إلى سرقوسة وعاد العباس إلى المدينة وعمر قصريانه وحصنها وشحنها بالعساكر .

٢ — من سقوط قصريانه إلى سقوط سرقوسة من سنة ٢٤٤ — ٢٦٤ﻫ

بعد فتح قصريانه أرسل والى صقلية حملاته وسراياه تغير على القلاع والحصون ففتح قلاعا متعددة منها جبل أبي مالك وقلعة الأرمنين وقلعة المشارعة وفى جمادى الأول سنة ٢٤٨ ﻫ ولى الأغالبة خفاجة بن سفيان أميرا على صقلية فتابع حملاته وغزواته وبث سراياه وفى أيامه فتحت مدينة نوطس كما شدد حملاته على سرقوسة وافتتح حصونا كثيرة وفى سنه ٢٥٤[1] بلغه أن بطريقا قد سار من القسطنطينيه فى جمع كثير فوصل إلى صقليه فلقيه بجمع من المسلمين فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة كما والى مناوشاته على سرقوسه فأفسد زرعها ويذكر بن خلدون[2] فتح جزيرة مالطه سنه خمس وخمسين ومائتين وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية .

ثم كان الاستيلاء على سرقوسه فى سنه أربع وستين ومائتين فى الرابع عشر من رمضان وهى من أعظم مدن صقليه واكثرها حصانة فسار إليها جعفر بن محمد أمير صقلية فافسد زرعها وزرع قطانيه وطبرمين ورمطه وغيرها من بلاد صقليه التى بيد الروم ونازل سرقوسه وحصرها برا وبحرا وملك بعض أرباضها ووصلت مراكب من الروم نجدة لها فسير إليها

(١) انظر الكامل لابن الأثير البيان المغرب لابن عذارى .

(٢) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

أسطولا فأصابوها وبذلك تمكن من إحكام حصارها وكانت معركة سرقوسة هذه المرة من أعظم المعارك أهمية فى قصة النضال الطويل بين العرب والروم فقد بذل الروم كل المحاولات لانقاذها وظل المسلمون يحاصرون المدينة تسعة أشهر ثم سقطت المدينة آخر الأمر وكان سقوطها نهاية محاولات استمرت أكثر من خمسين سنة منذ حملة أسد بن الفرات الأولى وإن استمرت بعض الجيوب تقاوم فى المنطقة الشرقية من صقلية(١)

٣ ـ من الاستيلاء على سرقوسة إلى سقوط دولة الأغالبة ٢٦٤-٢٩٦هـ

لم يكن سقوط سرقوسة دليلا على أن الروم قد فقدوا قواتهم البحريه. وأصبحوا عاجزين عن المقاومة وأن المسلمين ملكوا ناصية البحار وإنما ظل الروم محتفظين بقوتهم البحرية يناوشون بها المسلمين أو يردون بها غاراتهم ففى سنة ٢٦٦ كما يقول ابن عذارى(٢) أغزى صاحب صقلية الروم فالتقى فى البحر بمراكبهم وهم فى نحو مائة وأربعين مركبا فدارت بينهم حرب شديدة حتى أسلم المسلمون مراكبهم وأخذها الروم وانصرف من كان فى تلك المراكب إلى بلرم فأقاموا بها شهوراً يبشون السرايا ويغنمون أرض الروم المجاورين لهم .

ولكن فى سنة ٢٦٨(٣) ولى على صقلية محمد بن الفضل فبث السرايا فى

---

(١) أنظر أ ـ الحضارة الإسلامية فى بلاد المغرب الأندلسى د حسن أحمد محمود ٥٢ ، ٥٣

ب ـ الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ١١٤

جـ ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى جـ١ صـ ١١٠

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ صـ ١١١

(٣) الكامل لابن الأثير بتصرف جـ ٣ صـ ١٣٢

كل ناحية من صقلية وخرج فى جمع عظيم إلى مدينة قطانية فأهلك زرعها ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم وأكثر القتل فيهم ثم رحل إلى طبرمين فأفسد زرعها كما تلاقى مع جند الروم فهزم الروم وقتل منهم ثلاثة آلاف قتيل وتوجه بعد الموقعة إلى قلعة كان الروم بنوها وسموها مدينة الملك فملكها المسلمون عنوة وقتلوا مقاتليها وسبوا من فيها .

كما أرسل المسلمون سرية سنة ٢٧١ إلى رمطة فخربت وغنمت وسبت وأسرت كثيرا من أهلها كما غزا سوادة بن محمد بن خفاجة التميمى قطانية وطبرمين فأرسل بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلثمائة أسير من المسلمين ورجع سوادة إلى بلرم .

ويذكر بن خلدون(١) أن إبراهيم بن أحمد بعث ابنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنه سبع وثمانين ومائتين فوصل إليها فى مائة وستين مركباً وحصر طرابنة وأحبط فتنة كانت هناك ضد الدولة وفى سنه ٢٨٨ هـ تجهز للغزو فغزا دمقش ثم مسينى ثم جاز فى البحر إلى ريو ففتحها عنوة وشحن مراكبه بغنائمها ورجع إلى مسينى فهدم سورها وجاء مدد القسطنطينية فى المراكب فهزمهم وأخذ لهم ثلاثين مركباً ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بامم الفرنجة من وراء البحر ورجع إلى صقلية .

ويستمر ابن خلدون ذاكرا قدوم الأمير إبراهيم بن أحمد من أفريقية إلى صقلية وأنه نزل طرابنة ثم تحول عنها إلى بلرم ثم فتح مسينى وهدم سورها وفتح طرميس آخر شعبان من سنه تسع وثمانين ثم بعث حفيده زيادة الله ابن إبنه أبى العباس عبد الله إلى قلعة بيقش فافتتحها وابنه أبا محرز

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

إلى رمطة فأعطوه الجزية ثم عبر إلى عدوة البحر وسار فى بر الفرنج ودخل قلورية عنوة وقتل وسبي ورهب منه الفرنجة ثم رجع إلى صقلية وسار إلى كنيسة فحاصرها واستأمنوا إليه فلم يقبل ثم هلك وهو محاصر لها . وفى سنه ٢٩٦ هـ سقطت طبرن آخر الحصون الساحلية الهامة فى جزيرة صقلية وتم للأغالبة السيادة التامة على تلك الجزيرة العظمى بعد أن استغرق فتحها نحوا من مائة سنة كانت صفحة حافلة بالأعمال الجليلة التى قام بها الأسطول الإسلامى فى غرب البحر المتوسط

وهكذا ظل الأغالبة يكافحون لبسط نفوذهم على صقلية إلى أن سقطت دولتهم وما زال هناك بعض الجيوب يقاوم فى المنطقة الشرقية حتى عام ٣٥١ هـ [1] .

ومع ذلك فلم يكن الفتح موجها إلى صقلية وحدها بل تعداها إلى غيرها من الجزر والشواطىء الأوربية الغربية يقول د غستاف ليبون[2] ولم يقتصر العرب فى أثناء مقاتلتهم الروم على غزو صقلية فقد استولوا على جنوب إيطاليا وبلغوا فى تقدمهم ضواحى رومة وحرقوا كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولص اللتين كانتا قائمتين خارج أسوار رومة ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية لهم وقد استولوا على مدينة بريد بزى الواقعة على شاطىء البحر الإدرياتى ومدينة تارانت وأغاروا على دوكية بليغنت وقد صاروا بفتحهم صقلية وأهم جزر إيطالية وكورسيكا وكنديه ومالطة وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط سادة البحر المطلقين ولم يسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم .

---

(١) الحضارة الاسلامية فى بلاد المغرب والأندلس د حسن أحمد محمود ص٥٣

(٢) حضارة العرب د غستاف لوبون ص ٣٢٤ — ٣٢٥

نتائج فتح صقلية

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى تاريخ البحرية الإسلامية فإن سيطرة الأغالبة عليها جعل مفتاح حوض البحر المتوسط الغربى فى أيديهم وصار الأسطول الإسلامى ينعم بقاعدة هامة جعلت له السيادة فى البحر التيرانى الذى تطل عليه إيطاليا وقد تدخل أسطول الأغالبة فعلا فى شئون البلاد الإيطالية بعد أن سيطر على الشطر الأعظم من جزيرة صقلية ذلك انه بعد سقوط بلرم بمدة قليلة صار أمراء البحار الأغالبة يتدخلون فى المنازعات المحلية التى قامت بين القوى المتنافسة فى جنوب إيطاليه ولا سيما فى الإيهام الجنوبى الغربى المعروف باسم قلورية .

ومن أمثلة تدخل الأغالبة البحرى فى شئون إيطاليا ما حدث سنة ٨٣٧ م حين استنجدت نابل وهى (نابلى) بالقوات الإسلامية فى صقليه ضد جيرانها المعادين لها إذ شجع هذا النزاع المحلى الأغالبة على إرسال أساطيلهم للاغارة على سائر شواطىء إيطاليا شمالى نابل وبعد عدة سنوات من دخول الأغالبه نابل وقف أسطولهم أمام أوستيا ميناء روما على حين اقتحمت قواته البريه أسوار تلك المدينة الرومانية العتيدة وتكرر هجوم أسطول الأغالبه على تلك الميناء الهامه حتى أن البابا يوحنا الثامن ٨٧٢ - ٨٨٢ م رأى إنقاذ روما بدفع الجزية مدة عامين للأغالبه .

ودخل أسطول الأغالبه كذلك البحر الإدرياتى واستولى على مدينه بارا (أى بارى الآن) سنه ٨٤١ م واتخذها قاعدة له مدة ثلاثين عاما وكانت تلك المدينة ذات موقع هام فى شبه جزيرة إيطاليا وتعتبر منفذها الرئيسى للاتصال بشرق البحر المتوسط وكان أهالى إيطاليا وتجارها يفدون على بارى

فى طريقهم إلى اليونان أو آسيا الصغرى وكذلك الذهاب إلى إقليم الشام طلباً للحج فى فلسطين حيث الأماكن المسيحية المقدسة .

وتعتبر الحقيقة السالفة مثالا لسمو رجال البحرية الإسلامية فى تلك الفترة الحاسمة من نشاطهم ذلك أن أفراد البحار المسلمين سمحوا للمسيحيين بركوب البحر المتوسط فى سفنهم لأداء فريضة الحج إلى بيت المقدس وكان الطريق البحرى إذ ذاك يبدأ من بارى إلى صقلية ومنها إلى مصر حيث يتابع الحجاج بعد ذلك براً إلى فلسطين وقد خلف لنا أحد الحجاج المسيحيين وهو برنارد رشيد صورة عن ذلك الطريق البحرى منذ خروجه من مدينة بارى قاصداً الحج إلى بيت المقدس وعن التسهيلات التى قدمتها البحرية الإسلامية للحجاج المسيحيين .

ولم يقف نشاط الأسطول الأغلبى عند جنوب إيطاليا فحسب وإنما اتجهت سفنه إلى تدعيم أقدام المسلمين فى بعض جزر البحر المتوسط التى سبق للسفن الإسلامية الاكتفاء بالإغارة عليها سريعاً والعودة بعد ذلك إلى قواعدها سواء فى مصر أو الشام ومن ذلك فتح الأسطول الأغلبى لجزيرة مالطة التى تتمتع بموقع استراتيجى عظيم فى الحوض الأوسط للبحر المتوسط وساعد الأغالبه على تحقيق هذا الهدف الهام إقتراب قواعدهم البحرية من مالطة ولا سيما بعد فتحهم لجزيرة صقلية .

ويعتبر الأغالبة بذلك أصحاب سياسة بحرية ثابتة الأركان تهدف إلى الاستيلاء على الجزر ذات المواقع الاستراتيجية فى البحر المتوسط والتى تتحكم فى ممرات مياهه وكان وضع دولتهم الجغرافى يساعدهم على إدراك أهمية تلك الجزر الصغيرة التى امتلأت بها مياه البحر المتوسط والتى تعد مفتاح السيطرة على جهاته الوسطى والغربية ومن ذلك أن جزيرة مالطة ما تزال إلى اليوم تحتفظ بمكانتها الاستراتيجية وأهميتها الحربية .

وقد اتسمت أعمال الأغالبة إزاء جزر البحر المتوسط التي خضعت لهم بالتعمير ونشر أسباب الرفاهية بين سكانها ذلك أن بعض تلك الجزر كانت نائية أو صغيرة ويعيش أهلها عيشة متواضعة بسبب قلة إمكانياتهم الاقتصادية فعمد الأغالبة إلى نقل السكان من تونس إلى تلك الجزر مثـــل جزيرة قوصرة ومالطة وتركوا آثاراً إسلامية كثيرة بها مازالت مظاهرها ملموسة إلى اليوم فى لغة أهالى تلك الجزر وعاداتهم (١) .

كما فتحت الجزيرة أمام هجرة واسعة من جميع الشعوب الساكنة فى الامبراطورية الإسلامية من عرب عدنانيين وقحطانيين وخراسانيين وفرس ودخل الجزيرة جماعات كبيرة من البربر سكنوا النواحى الشمالية من مازر وكانت مدينة جرجنت عاصمة للجماعات البربرية (المغربية) ذكر الراهب بتيودوسيوس فى حديثه عن بلرم أنها كانت حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتى كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال إلى جنوب وبين أهلها من صقلية وإغريق ولمبارديين ويهود ترى الشرقى والبربرى والفارسى والتتارى والزنجى (٢)

وهكذا يتبين لنا بعد أن عرضنا لجهود هذه الدولة فى توسيع رقعتها فى جزر البحر المتوسط أن هـذا الفتح لم يتم فى معركة واحـدة أو فى عام واحد أو عشرة أعوام وإنما نرى الحرب متصلة منذ استقر جند المسلمين فى صقلية بقيادة أسد بن الفرات ووطأتها أقدامهم بقصد الاستيلاء عليها ثم استمر الحرب والقتال طيلة مدة حكم دولة الأغالبة ونرى الحملات تتتابع

---

(١) قوات البحرية العربية د إبراهيم العدوى ص ٩٠ — ٩٥

(٢) الحضارة الاسلامية فى بلاد المغرب والأندلس د . حسن أحمد محمود ص ٥١ — ٥٣

واحدة بعد الأخرى سواء من أفريقيا أو من الجند المقيم فى جزيرة صقلية وهذا يوضح لنا المشقة التى بذلها الأغالبة لكى يبسطوا نفوذهم على هذه الجزيرة ويحتفظوا بالبقاء فيها ثابتى الأقدام ويبثوا الحضارة الإسلامية وينشروا تعاليمها التى مازال بعض تأثيرها إلى الآن .

٤ — علاقتها بجيرانها وسقوطها

كان ميلاد دولة الأغالبة ميلاداً شرعياً صدر به مرسوم من الخلافة فى بغداد وقد سبق أن بينا أن دولة الأغالبة كانت تعتبر نهاية الحدود من الغرب بالنسبة للبلاد التابعة للخلافة العباسية فى المغرب بعد أن انفصلت الأندلس وقام فيها الأمويين والمغرب الأقصى وقام فيه الأدارسة والرستميون أما الشمال ففيه الروم فى صقلية والشمال الغربى فيه الأمويون فى الأندلس .

أما جيرانها من الشرق عند قيامها فكانت مصر وهى ولاية تابعة للخلافة قبل أن يستقل بها أحمد بن طولون وفى الجنوب كانت الصحراء الكبرى حيث لا خطر منها ولا علاقة تقوم بالنسبة لها .

وقد بينا أن من أسباب قيام دولة الأغالبة أن تكون سياجا لحماية دولة الخلافة ومعنى ذلك أن ترد كيد من أراد أن يقتطع جزءا من كيانها وتحاول بسط سلطانها على هذه الأجزاء المنفصلة فإن عجزت عن ذلك فلا أقل من أن تحافظ على كيانها هى على أسوأ الفروض .

جيرانها من الغرب والشمال :

ولذلك نرى إبراهيم بن الاغلب مؤسس الدولة يحاول أن يبسط نفوذه من ناحية الغرب ويعمل على أن يقوض دولة الادارسة ويضمها إلى دولته

ويتخذ إلى ذلك كل الاسباب التى يستطيع بها أن يضعفها لكى يستولى عليها فيرسل إلى وجوهها الاموال والهدايا لكى يميلوا إليه كما يلجأ إلى طريقة الاغتيالات عندما لاتجدى الاموال وقد حاول أن يمتشق الحسام ويحارب الادارسة ولكن اصحاب إبراهيم مؤسس الدولة نصحوا له بالعدول عن رأيه وقالوا له اتركه ماتركك كما أن ادريس كتب إليه يستعطفه ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق انصاره ويذكر له قرابته من الرسول ﷺ فكف عنه [1].

يقول ابن خلدون [2] ، ثم صرف إبراهيم بن الاغلب همه إلى تمهيد المغرب الاقصى وقد ظهر فيه دعوة العلوية بادريس بن عبد الله وتوفى فنصب البرابرة ابنه الاصغر وقام مولاه راشد بكفالته وكبر ادريس واستفحل أمره براشد فلم يزل إبراهيم يدس إلى البربر ويسرب فيهم الاموال حتى قتل راشد وسيق رأسه إليه ثم قام بأمر ادريس بعده بهلول بن الرحمن المظفر من رؤس البربر فاستفحل امره فلم يزل إبراهيم يتلطفه . ويستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الادارسة إلى دعوة العباسية فصالحه (أى ابن الاغلب) ادريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه .

وكانت علاقة الدولة بالرستميين فى تاهرت وبالامويين فى الاندلس علاقة عداء وصلت إلى حد الاغارة على املاكها وتخريب مدنها .

يقول دكتور السيد محمود [3] ثم توفى عبد الرحمن بن رستم بتاهرت

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى د حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٧٩ .
(٢) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣ .
(٣) المغرب الاسلامى د . السيد محمود عبد العزيز سالم ص ٩١

فى سنة ثمان ومائتين فبويع ابنه ميمون أبو سعيد أفلح بالإمامة من بعده فتابع سياسة أبيه وكان لايقل دهاء عنه فصادق الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأندلس لاشتراكهما فى معاداة العباسيين والأغالبة فخرب مدينة العباسية وكافأه أمير الأندلس على ذلك

وإن كنا مع ذلك نذكر مساعدة أسطول الأندلس للأغالبة فى فتح صقلية وفك الحصار عن المسلمين هناك كما سبق أن ذكرنا فى فتح صقلية .

وقد كانت هناك علاقة لأعداء فيها مع شالمان فى بلاد الغال يذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب(١) أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء شالمان فى العباسية حاضرة ولايته ويظهر أن إبراهيم قد علت منزلتـــه واشتهرت ولايته حتى إن شرلمـان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسى .

أما صقلية وإيطاليا أو الروم فقد كانت الحرب مستمرة بينهما منذ الإغارة على شمال أفريقية كما ذكرنا فى فتوحات دولة الأغالبة .

جيرانها من الشرق

فى أثناء حكم الأغالبة قامت دولة الطولونيين فى مصر ولكنها كانت تخضع للخلافة العباسية وتقر بسلطانها وتدفع لها قدراً من المال وهى فى ذلك تشبه دولة الأغالبة ويفهم من ذلك ألا تقوم بينهما عداوة أوخصومة ولكن الخصومة والحرب جاءت عفواً وبدون تخطيط من أحمد بن طولون

---

(١) خلاصة تاريخ تونس حسنى عبد الوهاب ص ٦٩

نفسه ، فى سنة ٢٦٥ خرج أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر فلما أبعد أبوه عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والذهاب إلى برقة ففعل وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه فلم يرجع إليه وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد أفريقية فساد إليها وكانت وجوه البربر فأتاه بعضهم وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول أن أمير المؤمنين قد قلدنى أمر أفريقية وأمر أعمالها(٢)

وهكذا يخرج العباس على أبيه ثم يحاول أن يموه على ابن الأغلب بأن أمير المؤمنين ولاه أفريقية وبهذه السهولة يظن أن الأغالبة سيتركون له حكم أفريقية كما يذكر ابن الأثير فى روايته بدون أن تنشب الحرب حماية الدولة وتترك ابن عذارى يروى هذه المغامرة عن العباس بن أحمد بن طولون يقول(٢) .

وفى سنة ٢٦٧ كانت فتنة ولد ابن طولون حين أراد التغلب على أفريقية وها أنا أذكر قصته إلى أن هزم وذلك أن العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر قدم فى هذه السنة فى ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه على خمسة آلاف جمل إلى مدينة برقة فى ربيع الآخر يريد أفريقية والتغلب عليها وإخراج بنى الأغلب منها وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهباً فأعطى أصحابه الأرزاق بها وقيل أن مبلغ ما حمل من المال ألف دينار ومائتى ألف دينار ومعه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب مكبلا لأنه أظهر الامتناع عن الخروج معه وكان أشار عليه بأن يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر فقال أخشى

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١١١

أن تقدم العساكر من الشام قبل احكام هذا الأمر يعنى عساكر أبيه لأنه كان ثائراً على أبيه ويكون أيضاً فى ذلك فسحة لإبراهيم بن أحمد فيتمهل فى الاستعداد ولكن أمضى على فورى هذا فآتى لبدة وطرابلس فجأة ثم آخذ فى استمالة البربر بعد ذلك بالعطاء والأفضال وأبعد من مصر فلايقوم لأحمد بن طولون يعهد أباه أمل فى مطالبتى لبعدى عنه وخرج يريد لبدة فاتصل خبره بإبراهيم بن أحمد فأخرج إليه أحمد بن قهرب فى ألف وستمائة فارس خيلا مجردة لا رجل فيها بأعداد السير والسرى بالليل حتى دخل أطرابلس قبل وصول العباس بن أحمد ابن طولون الى لبدة ثم حشد بن قهرب من أمكنه من جند أطرابلس وبربرها ثم بادر إلى لبدة ودخلها وأقبل العباس بن طولون فوضع له ببرقة خمسة آلاف بند فحمل له على كل جمل راجلا ببنده وزحف بثمانمائة فارس وخمسة آلاف راجل فالتقى به أحمد بن قهرب على خمسة عشر ميلا من لبدة وقد تأخرت الجمال بالرجالة أصحاب البنود فلم يكن بينهم إلا مناوشة يسيرة حتى انهزم أحمدبن قهرب وهو يظن أن من ناوشة القتال من أصحاب بن طولون كانوا مقدمة للجيش ووصل أحمد بن قهرب إلى طرابلس منهزما وركب العباس بن أحمد بن طولون أثره حتى نزل طرابلس ونصب عليها المجانيق وناصبهم الحرب وأقام محاصراً لهم ثلاثة وأربعين يوما فتعدى سودانه على بعض حرم البوادى وهتكوا الحجب فاستغاث أهل طرابلس بأبى منصور صاحب نفوسة فقام محتسباً وناصر جيرانه المسلمين وزحف فى إثنى عشر ألفاً من نفوسة إلى العباس بن أحمد بن طولون فناصبوه الحرب وألح أهل نفوسة فى محاربة بن طولون فانهزم وخرج إلى برقة بعد انتهاب أهل طرابلس لجميع عسكره .

وهكذا انتهت هذه المغامرة بالفشل وحفظت حدود دولة الأغالبة من المشرق .

ولكن يذكر بن خلدون أن إبراهيم - أى بن الأغلب - أراد أن يغير على ابن طولون فى مصر فى سنة ٢٨٣ هـ وكأنه أراد أن يرد على جرأة ابنه وإن كان لم يوفق فى حملته أيضاً يقول[1] ثم تحرك إبراهيم بن أحمد أخو أبى الغرانيق إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمحاربة ابن طولون واعترضته نفوسه فهزمهم وأثخن فيهم ثم انتهى إلى سرت فانفضت عنه الحشود فرجع .

سقوط دولة الأغالبة

إن عوامل الفناء لأى بنية حية إنما يكون بأحد سببين سبب داخلى أو سبب خارجى أو هما معاً يتعاونا فيقضيان على الحياة لأى كائن حى .

ودولة الأغالبة إجتمع عليها العاملان الداخلى والخارجى قاديا إلى سقوطها .

(١) الأسباب الداخلية :

عند ما نبحث عن الأسباب الداخلية التى أدت إلى إنهيار هذه الدولة وكانت من العوامل التى أدت إلى زوالها نستطيع أن نرجعها إلى ثلاثة عوامل .

١ — قتل أنصار الدولة والمدافعين عنها ضد أعدائها .

٢ — قتل أعضاء الأسرة الحاكمة .

٣ — الميل إلى اللهو والفساد وإهمال شئون الدولة .

وربما ينفرد ابن عذارى عن بقية المؤرخين القدامى فى الحديث بإسهاب وضرب الأمثال عن هذه الأمور .

---

(١) كتاب العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٣ .

١ — قتل انصار الدولة :

فهو يتحدث عن قتل انصار الدولة فيقول[1] « فى سنة ٢٨٠ كان الإيقاع برجال بلزمة وقصتهم أن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب كان قدحاربهم واستقدم منهم إلى مدينة رقادة نحوا من سبعمائة رجل من أبطالهم فانزلهم ووسع وبذل لهم دارا كبيرا تشتمل على دور ترجع إلى باب واحد واسكنهم فيها فلما سكنوا واطمأنوا جمع ثقاة رجاله لأخذ أرزاقهم ثم أمرهم بمصاحبة ابنه عبد الله لما أمره به فلما اجتمعوا إليه ركب إلى دار البلزميين فى الجند فقتلهم عن آخرهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم إلى وقت العصر وكان ذلك من أسباب انقطاع دولة بنى الأغلب إذكان أهل بلزمة نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين إلى أفريقية عند افتتاحها وبعده وكان اكثرهم من قيس وكانوا يدبون كتامة فلما قتلهم إبراهيم استطالت كتامة ووجدت السبيل للقيام مع الشيعى على بنى الأغلب .

٢ — قتل أعضاء الأسرة الحاكمة :

رغم ما يرويه ابن الأثير عن كفاح إبراهيم بن الأغلب الثانى ودفاعه عن الدولة إلى أن ذهب بنفسه إلى صقلية ومات، وهو مجاهد فى سبيل الله إلا أن ابن عذارى يروى عنه أفعالا فيها كثير من الغرابه من قتل أصحابه وحجابه ثم تعداهم إلى قتل إخوته وبناته وأحد ابنائه يقول[2] « وبعد سبعة أعوام من ولاية إبراهيم بن الأغلب (الثانى) تغيرت أحواله وأخذ فى جمع الأموال ثم هو فى كل سنة يزداد تغيرا وسوء حال ثم اشتد نكره فأخذ

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٦

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٦ بتصرف

فى قتل أصحابه وحجابه حتى قتل ابنه المكنى بابى الأغلب وقتل بناته وأتى بأمور لم يأتها أحد غيره وكان كثير الملل شديد الحسد غلب عليه خلط سوداوى فتغير وساءت اخلاقه قيل انه افتقد منديلا صغيرا كان يمسح به فمه وكان سقط من يد بعض جواريه فاصابه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم وكان سبب قتله لولده ظنا منه به فضربت عنقه بين يديه وقتل اخوته ثمانية ضربت أعناقهم بين يديه وكانت أمه إذا ولدت له ابنة أخفتها وربتها لئلا يقتلها حتى احتمع عندها منهن ست عشرة جارية كأنهن البدور فقالت له يوما وقد رأت منه رقة ياسيدى قد ربيت لك وصائف ملاحا وأحب أن تراهن قال نعم فلما رآهن قالت له هذه بنتك من فلانه وهذه بنتك من فلانه حتى عدتهن فلما خرج من عند أمه قال لخادم له أمض اليهن وجئنى برؤسهن فوقف استعظاما لذلك فقال له أمض وإلا قدمتك قبلهن فلما دخل على أمه كبر ذلك عليها وعظم فى قلبها وقالت له راجعه فقال لها لاسبيل إلى ذلك فقتلهن وأخذ رؤسهن وجاء بها إليه معلقة بشعورهن فطرحها بين يديه وأدخل كثيرا من فتيانه الحمام وأغلق عليهم باب البيت السخن فماتوا جميعا واخباره كثيرة فى هذا المعنى ذكرها الرقيق وغيره .

وقد سار على هذا المنوال حفيده زيادة الله آخر امراء الأغالبة فقد عمل على قتل أبيه وتولى الحكم بعده . وجمع أعمامه ووجوه الناس والجند وأخذ عليهم البيعة وأعطاهم الصلات ومطل عمومته ثم كبلهم أجمعين وأدخلهم فى شيني ووكل بهم ثقاته وامرهم أن يمضوا بهم إلى جزيرة الكرات وهى على اثنى عشر ميلا من مدينة تونس فضربت هناك رقابهم وقتل أيضا عمه أبا الأغلب الزاهد الساكن بسوسة وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن استقدمه من طبنة[1].

---

(١) انظر (أ) البيان المغرب فى اخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٨ =

٣ — الميل إلى اللهو والفساد وإهمال شئون الدولة :

بون شاسع بين إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة وبين زيادة الله الثالث آخر امراء دولة الأغالبة فالأول حازم عاقل حكيم ذا علم بأمور الدنيا والدين خبير بالسيف والقلم بينما الثانى عابث لاه غافل عن شئون أمارته وأحوال رعيته غارق فى لذاته وشهواته فكان ذلك من بعض الأسباب فى نزع الملك منه .

يقول ابن عذارى فى ميله إلى اللهو والشراب والكلف بالغلمان

وفى سنة ٢٩٤ بنى زيادة الله سور مدينة رقادة بالطوب والطوابى والتزم التنزه على البحر وغيره واتباع اللذات ومنادمة العيارين والشطار والزمامرة والطراطين وكان إذا فكر فى زوال ملكه وغلبة عدوه على أكثر مواضع عمله يقول لندمائه أملأ واسقنى واشتد كلفه بغلام له يسمى خطاب فكتب اسمه فى سكة الدنانير والدراهم ثم وجد عليه فحبسه وقيده فغنت له جارية تستعطفه على خطاب .

يا أيها الملك الميمون طائره ... رفقا فإن يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلد والأحشاء خافقة ... اعيذ كفك أن تسطو على كبدك

فرضى عن خطاب وإعاده إلى منزلته :

وهكذا نرى هذه العوامل الداخلية الثلاثة قد تضافرت على الدولة حتى نخرت عظامها وعملت على ضعفها ثم سقوطها .

(ب) الأسباب الخارجية :

استطاعت دولة الأغالبة أن تقف فى وجه الإدارسة والأمويين

(ب) المؤنس فى اخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار ص ٥٠

(ج) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٧

والرستميين وأن ترد حملة الطولونيين وتتمكن من قطع دابر الروم بل استولت على صقلية منهم .

ولكنها مع وقوفها فى وجه الأدارسة لم تستطع أن تمنع الدعوة الشيعية من أن تتسرب إلى داخل الدولة وأن تتمكن أخيرا من محاربتها واسقاطها والاستيلاء عليها .

فقد ظهر أبو عبد الله الشيعى بكتامة يدعو للرضا من آل محمد ويبطن الدعوة لعبيد الله المهدى من ابناء اسماعيل الأمام واتبعته كتامة فنظمهم عسكريا وزحف بهم على افريقية واستولى على مدنها الواحدة بعد الأخرى إلى أن حلت الهزيمة الكبرى على الجيش الأغلبى وصفا الجو للداعى فاستولى على القيروان ثم استولى على بقية أفريقية .

وكان وصول عبد الله الشيعى إلى أفريقية فى أيام إبراهيم ابن أحمد (إبراهيم الثانى) ، يقول ابن خلدون(١) وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعى بانكجان يهدده ويحذره فلم يقبل واجابه بما يكره .

ويقول د / حسن إبراهيم : إن إبراهيم حاول أن يجذب الشيعى إليه أول الأمر وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها فلم يجبه أبو عبد الله إلى ماطلب ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لمحاربة الأسماعيلية وكانت أولى هذه الحملات فى سنة ٢٨٧ هـ أى قبل وفاة إبراهيم الأغلبى بسنتين وكان النصر فيها حليف أبى عبد الله ولكن إبراهيم الأغلبى عول على مواصلة القتال فأرسل جيشا آخر لكنه لم يلبث أن حلت به الهزيمة (٢) .

---

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) انظر تاريخ الدولة الفاطمية د / حسن إبراهيم صـ ٥٠ .

ولما ولى زيادة الله وأخذ فى قتل أعمامه وأخوته اشتدت شوكة أبى عبدالله الشيعى وقوى أمره وأخذ زيادة الله يرسل الحملات فتبوء بالهزيمة أمام أبى عبدالله الذى انتزع منه البلاد واحدة بعد أخرى ففى سنة ٢٩٢ هـ أرسل زيادة الله جيشا بقيادة إبراهيم بن حبشى فالتقى بجيش عبدالله بكبوتة فكانت بينهما وقعة عظيمة فانهزم إبراهيم ووقع فى القتل أصحابه فذهب كثير منهم ونجا الباقى فى ظلمة الليل واشتغلت عنهم كتامة بالغنيمة وبالأموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة وهى أول غنيمة أصابها الشيعى فكثر عندهم السلاح وقويت روحهم المعنوية وتحققت آمالهم وادى ذلك إلى ضعف الروح المعنوية بين جند زيادة الله .

وجهز زيادة الله بعد ذلك جيشا يتكون من أربعين ألفا انتهى إلى قسنطينة فاقام بها ولكن عبدالله الشيعى تمكن من التغلب عليه واستولى على طبنة ومدينة ينجيت وشاع عن الشيعى وفاؤه بالأمان فأمته الناس وكثر الأرجاف بزيادة الله فجهز زيادة الله جيشا آخر سار إلى الأربس بقيادة إبراهيم بن أبى الأغلب سنة ٢٩٦ هـ فزحف إليه عبدالله الشيعى فى مائتى ألف من العساكر فاقتتلوا أياما فانهزم إبراهيم وفر إلى القيروان ودخل الشيعى الأربس فاستباحها[١] فلما رأى زيادة الله تتابع الهزائم على جيوشه استعد للخروج من رقاده وجمع ماخف من الجواهر والمال وحرك خاصته للخروج معه فلما كان وقت صلاة العتمه من ليلة الإثنين لأربع بقيت من جمادى الآخرة ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الجمال تمر بين يديه وخرج متوجها إلى مصر وأغذ السير حتى وصل إلى طرابلس وتابع السير إلى مصر .

---

(١) أنظر (أ) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٣٥

(ب) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٥

(ج) البيان المعرب لابن عذارى ج ١ ص ١٤٢

وأصبح الناس من ليلة خروج زيادة الله هاربا من رقادة فانتهبوها وأخذوا من بقايا أموال بنى الأغلب ومتاعهم وصنوف الآنية من الذهب والفضة .

محاولة لإنقاذ الدولة :

ولما وصل إلى القيروان إبراهيم بن الأغلب المنهزم من الأربس ومن بقى معه من القواد نزل بدار الإمارة وبعث فى وجوه الناس وجعل يظهر لهم تقصير زيادة الله وإهماله فى إسناد شئون المسلمين إلى من كان يسعى فى زوال ملكه وبين لهم فساد كتامة وأبى عبدالله وطلب منهم أن يمدوه بالرجال والمال حتى يتمكن من رد كتامة والتغلب على أبى عبدالله الشيعى وحضر صلاة الظهر فسلم على رأسه بالإمارة فاجتمع إليه الناس وقالوا له بلدنا لا يعرف الفتن ونحن لا نقوم بالحرب وأنت لم تستطع دفع كتامة بالعساكر والسلاح والمال فكيف نقوى نحن على دفعهم بأموال الرعية ثم صاح الناس به لا طاعة لك علينا ولا تبعة فى أعناقنا فاخرج عنا فركب فرسه وشهر سيفه ودفع الفرس ونجا هاربا ولحق بزيادة الله .

استيلاء أبى عبد الله الشيعى على رقادة والقيروان

وبلغ هروب زيادة الله أبا عبدالله الشيعى فتحرك من الأربس يريد القيروان وقدم بين يديه غروية بن يوسف وحسن بن أبى خنزير فى ألف فارس إلى رقادة فوجدوا الناس ينهبون ما بقى من الأمتعة والأثاث فأمنوهم ولم يتعرضوا لأحد وتركوا لكل واحد ما حمله فأتى الناس إلى القيروان فأخبروهم بالخبر ووصل أبو عبدالله يوم السبت غرة رجب فخرج إليه أهل القيروان من الفقهاء والوجوه وجلة التجار فالتقوا به على ساقية ممس وسلموا عليه وأظهروا له الرغبة فى دولته وسألوه الأمان فأمنهم وصوب فعلهم ووعد بالإحسان والعدل فيهم وكان قد وعد قبل ذلك قواد كتامة

ورجالها بأن يوكلهم القيروان ويبسط أيديهم فيها ويقطعهم جميع أموال أهلها فلما سمعوا بأمنته للقوم ساءهم ذلك وكلموه فيه وذكروا ما كان وعدهم به فتلا عليهم « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط بها[١] » وقال لهم هى القيروان فقبلوا قوله وسلموا لأمره ثم تقدم بإنزال عساكره حول مدينة رقادة ودخلها وقارىء يقرأ بين يديه «هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ويقرأ « كم تركوا من جنـــات وعيون[٢] » إلى آخر السورة ونزل بالقصر المعروف بقصر الصحن .

وفرق دورها على كتامة ولم يكن بقى أحد من أهلها فيها وأمر فنودى بالأمان فرجع الناس إلى أوطانهم وأخرج العمال إلى البلاد وطلب أهل الشر فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير ذلك فاجتمع كثير منه وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار وحظ من الجمال فسأل عمن يكفلهن فذكر له امرأة صالحة كانت لزيادة الله فأحضرها وأحسن إليها وأمرها بحفظهن وأمر لهن بما يصلحهن ولم ينظر إلى واحدة منهن. ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ولم يذكروا واحدا وأمر بضرب السكة وأن لا ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجه « بلغت حجة الله » ومن الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » ونقش على السلاح « عدة فى سبيل الله » ووسم الخيل على أفخاذها « الملك لله » وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ[٣] .

أما زيادة الله فوصل إلى مصر وبها النوشرى عاملا عليها وكتب إلى

---

(١) سورة الفتح آية ٢١

(٢) سورة الدخان آية ٢٥ ألخ

(٣) أنظر (أ) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٤ ١٦ .

(ب) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٦ بتصرف .

المقتدر يخبره بزيادة الله ثم سار زيادة الله إلى أن بلغ الرقة فوافاه كتاب أمير المؤمنين يأمره بالعودة إلى بلاده لقتال الشيعي ويأمر عامله على مصر أن يمده بما يحتاج إليه من المال والرجال ، فرجع إلى مصر فماطله العامل بها طال وزيادة الله فى أثناء ذلك منعكف على لذاته واستماع الملاهى وشرب الخمر فلما مقامه تفرق جمعه وتخلى عنه أصحابه وتتابعت عليه الأمراض فتوجه إلى بيت المقدس لقصد الإقامة بها فمات بالرملة وذفن بها ولم يبق بالمغرب من بنى الأغلب أحد وكانت فترة ملكهم مائة واثنتى عشرة سنة تقريبا[١] .

وهكذا انتهت دون الأغالبة بسبب تفريط أواخر حكامها وميلهم إلى اللهو والفساد وقتلهم لأنصارهم وأقاربهم وإهمالهم فى المحافظة على شئون الدولة ولم يفدهم أثناء كفاحهم مع أبى عبدالله الشيعى تأييد العباسيين بالقول لهم شيئا فقد ورد كتاب المكتفى بالله يحث أهل أفريقية على نصرة زيادة الله ومحاربة الشيعى وقرىء كتابه على الناس[٢] لأن الناس قد كرهوا أسرة الأغالبة لسوء فعال حكامهم فى نهاية أيامهم وعدم معاملتهم الرعية معاملة حسنة ولذلك لم تتحرك الرعية للدفاع عن الأغالبة أو تأييد إبراهيم عندما حاول أن يتولى الأمر بعد زيادة الله ويقوم بحفظ الدولة والدفاع عنها .

---

(١) المؤنس فى أخبار أفريقية تونس لابن أبى دينار ص ٥٠

(٢) البيان المغرب لابن عذارى .

الفصل الرابع

فتح الأندلس

حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامى :

كانت الأندلس التى تشمل شبه جزيرة أسبانيا تابعة لروما القديمة ، إلى أن تمكن القوط[١] الذين أتوا إليها فى شكل هجرات متتالية من الاستيلاء عليها . وقد أطلق على الجماعة الأولى اسم الوندال وسميت البلاد فى عهدهم فاندولوسيا أى بلد الوندال وسماها العرب بلاد الأندلس .

ظل الوندال يحكمون الأندلس إلى أن هاجمهم القوط ، الغربيون ؛ وتمكنوا من طردهم إلى أفريقية سنة ٤٥٦ م واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها فى نهاية القرن الخامس الميلادى .

وقد اتخذ القوط طليطلة عاصمة لملكهم[٢] . وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية فى قوانينهم ونظمهم . واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قدم المسلمون وتغلبوا عليهم سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م .

وقد ساد البلاد خلال حكم القوط وضع شاذ من الناحية الإجتماعية والاقتصادية حيث كان المجتمع مقسما إلى طبقات يتحكم بعضها فى البعض الآخر بعنف وقسوة .

(١) القوط : هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التى هبطت من شمال أوربا وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . دولة الإسلام فى الأندلس ، محمد عبدالله عنان ، القسم الأول ط ثالثة مكتبة الخانجى .

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١١٧ منشورات مؤسسة الأعلمى .

فكان هناك طبقة النبلاء ورجال الدين والأعيان الذين يتمتعون بخيرات البلاد ويملكون الإقطاعات الشاسعة المعفاة من الضرائب ولا هم لهم الا التفنن فى حياة الأموال وزيادة ثروتهم حتى استحوذوا على ثلثى الأرض الزراعية بدون ضرائب(١). لينفقوا دخلها فى لهوهم ومتعهم وبناء القصور الشامخة التى ينعمون فيها بأطايب الحياة.

أما بقية الشعب فتوجد فية الطبقة الوسطى من التجار وصغار الملاك والحرفيين وعليهم يقع كل العبء فى دفع الضرائب الفادحة التى تفى بحاجات الدول وتحصل منهم بقسوة وعنف ثم طبقة شبه الأرقاء الذين يعملون بالزراعة ويباعون ويشترون مع الأرض التى يعملون فيها ولا حرية لهم ولا كرامة.

ومع هذه المغارم الفادحة التى كانت تلقى على كاهل طبقات الشعب الكادحة والفقيرة التى ألقى عليها كذلك مهمة الحرب والدفاع عن الوطن وخاصة بعد أن فقد القوط — لانغماسهم فى الترف والنعيم — صفاتهم الحربية القوية. وبذلك صار معظم الجيش المدافع عن الأندلس يتكون من هذه الطبقات التى تعانى من الظلم والإرهاق ولا تشعر بعزة قومية أو كرامة وطنية وإنما تعانى الذل فى وقت السلم ووقت الحرب على حد سواء.

وكان بجوار الطبقات السابقة المسيحية طبقة أخرى تختلف عنها من ناحية الدين وهم اليهود الذين بلغوا عددا كبيرا فى أسبانيا حيث بسطوا نفوذهم فى المجال الاقتصادى ولكنهم عانوا كثيرا من عسف الملوك

---

(١) (أ) أنظر مختصر تاريخ العرب، سيد أمير على، ص ١١٢ دار العلم للملايين.

(ب) المجمل فى تاريخ الأندلس، عبد الحميد العبادى، ص ٤٤ مكتبة النهضة.

والكهنة والنبلاء. وذاقوا شتى ألوان الجور والاضطهاد ودفعهم ذلك إلى التآمر وتدبير ثورة على الحكم القائم ولكن مؤامراتهم اكتشفت قبل القيام بها سنة ٦٩٤ م في عهد الملك أجيكا الذي وافقه الأحبار في طليطلة على الشدة في معاقبة اليهود فنكل بهم وصادر أملاكهم وقضى على من بقي منهم حيا بالرق الأبدي للنصارى ووزعهم شيبا وشبانا ذكورا وإناثا على المسيحيين، فأما الشيوخ فقد سمح لهم بالبقاء على دينهم القديم. وأما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية ونشئوا عليها وصار لا يتزوج عبد يهودي إلا بجاريه نصرانية ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني[1]. وبذلك ذاق اليهود مرارة الذل والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التي صارت تنتظر الخلاص مما تعانيه دون أن تجد إلى ذلك سبيلا . وبجوار هذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي الظالم كان الوضع السياسي مملوءا بالإضطرابات والانقلابات السياسية.

ففي بداية القرن الثامن الميلادي كان على عرش الأندلس الملك جوتيزا الذي يسميه العرب غيطشة والروايات الأسبانية تختلف في أمره فيصفه البعض بحسن السيرة وبالحكمة وبالعمل على رد المظالم وإقامة العدل، بينما يصفه آخرون بالظلم والجور والبغي على كل من يخالفه أو يقف في سبيل أطماعه.

وقد تمكن غيطشة من كبت الثورات التي قامت ضده وقضى عليها جميعا سوى الثورات التي تزعمها ردريك « لزريق » الذي انضم إليه رجال الدين والأشراف وأعلن نفسه ملكا وتمكن من القضاء على غيطشة بعد خوض حرب أهلية عنيفة كما يذكر الأستاذ عبدالله عنان[2] .

---

(١) مختصر تاريخ العرب ، سيد أمير علي ص ١١٣ ، عنان : دولة الإسلام قسم ١ ص ٣٢ تاريخ غزوات العرب : شكيب أرسلان ، مطبعة الحلبي.

(٢) أنظر : دولة الإسلام ، عنان قسم ١ ص ٣٣ ، ٣٤ .

هذا ماتذكره الرواية الأسبانية التى يأخذ بها الأستاذ عنان بينما يقول ابن حيان فى المقتبس « أن لذريق إنما نال الملك عن طريق الغصب والتسور عندما مات غيطشة الذى كان قبله وكان أثيرا لديه مكينا فاستصغر أولاده لمكانه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم[١] . ومن هنا نرى أن لذريق غصب الملك من أبناء غيطشة بدون ثورة على غيطشة وبدون حرب أهلية ويذكر فى الكتاب الخزائى وغيره : أن أهل الأندلس الذين ولوا لذريق الملك لعدم رضاهم عن أولاد غيطشة ليتمكن — أى لذريق — من إقرار الأمن بعد أن اضطرب فى الأندلس ، وكان لذريق شجاعا بطلا ليس من أهل الملك إلا أنه من قوادهم وفرسانهم[٢].

ولعل مما يؤيد الرواية العربية فى أن لذريق لم يقتل غيطشة أننا سوف نرى لذريق يسند إلى أبناء غيطشة قيادة بعض فرق الجيش أثناء قتال المسلمين ، ولو كان لذريق قد ثار على أبيهم وقتله كما تذكر الرواية الأسبانية ما أسند اليهم قيادة الجيش أخذا بالحيطة والحذر . وإنما شعوره بأن الأشراف والنبلاء هم الذين أسندوا إليه الملك جعله يسند إلى أبناء غيطشة قيادة بعض الفرق فى المعركة :

وأيا كان الأمر فإن تولى لذريق الملك لم يقض على الاضطراب السياسى فى الأندلس مما حمل لذريق على كبت الثورات التى قامت ضده وخاصة فى الشمال عدا المؤامرات التى كان يديرها أبناء الملك غيطشة فى سر وكتمان .

وبينما كانت الأندلس تعيش فى هذا الوضع المضطرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا — يضيق معظم سكانها بالذل والهوان الذى يلقونه من حكامهم فهم يعملون ولكن لاينالون من نتيجة عملهم شيئا لايعرفون للحرية طعما

---

(١) نقلا عن نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٣ — دار الكتاب العربى — بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

ولا للكرامة الإنسانية مذاقا ـ تجد السكان على الشاطىء الأفريقى المقابل يعيشون فى حرية وعزة وكرامة فى ظل الهداية الإسلامية التى ارتفعت راياتها على أرض يسودها الإخاء والمحبة والعدل الاجتماعى الذى سوى بين البربرى والعربى ويرنون بأبصارهم إلى الأندلس هادفين إلى غرس بذور الهداية وإقامة مشاعلها التى ستنقذه عما تردى وتجعله المنبع لبعث الحضارة الأوربية الحديثة .

فما العوامل التى دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس ؟

وما العوامل التى ساعدت على هذا الفتح ومهدت له ؟

ثم كيف تم الفتح ؟

وماذا نرى بالنسبة لأمور يتحدث عنها المؤرخون وقعت أثناء الفتح ؟

وأخيراً ماهى النتائج التى ترتبت على فتح الأندلس ؟

المسلمون يفتحون الأندلس

١ — أسباب فتح الأندلس .

يختلف المؤرخون حول الأسباب التى دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس ، ويرى كل منهم أن السبب الذى ذكره هو الذى حمل المسلمين على هذا الفتح .

فيذكر البعض أسبابا أخلاقية تتعلق باعتداء لذريق على ابنة يوليان حاكم سبتة ، واسمها فلورندا واغتصبها مما أثار حفيظة أبيها ودعاه إلى أن يستعدى المسلمين ويحثهم على فتح الأندلس انتقاما من لذريق(١).

ويذكر البعض أسبابا تتعلق بالوضع السياسى الذى نشأ عن اعتلاء لذريق العرش مغتصبا له من أبناء الملك السابق عليه غيطشة واستنجاد أبناء غيطشة بالمسلمين بمساعدة يوليان حتى يتمكنوا من استرداد عرشهم وكأن المسلمين لم يقدموا إلى الأندلس إلا لإرجاع الحق إلى أصحابه (٢).

ويذكر المقرى أن حديث يوليان إلى موسى بن نصير — عن بلاد الأندلس وحسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها مع ضعف أهلها وقلة بأسهم شوق موسى بن نصير ، إلى فتح الأندلس وكأن الأطماع الإقليمية والغنائم هى التى دفعت المسلمون إلى الفتح (٣).

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، البيان المقرب ابن عذارى ج ٢ ص ٧ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) البيان ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٦ ؛ المجمل فى تاريخ الأندلس للعبادى ، ص ٤٨ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٧ ، دولة الإسلام : عنان قسم ١ ص ٣٩ .

ويرى البعض أن الحرب كانت مستمرة بين المسلمين والبيزنطيين الذين يهاجمون الشواطىء الأفريقية من الجزر القريبة مثل منورقة وميورقة وصقلية وسردانية وجزر البليار (الجزائر الشرقية) وأن أسطول القوط انضم إلى أسطول الروم فى مراقبة سواحل أفريقية [1] ، مما حمل المسلمين إلى الاستيلاء على جزائر منورقة وميورقة وايفيقية فتوجه المسلمون لفتح الأندلس انما هو مواصلة لهذه الحرب التى كانت دائرة بينهما ، هذه بعض الأسباب التى أشار اليها المؤرخون لفتح الأندلس .

ومن الممكن أن يكون ماذكره المؤرخون أسبابا مباشرة حدثت قريبا من زمن الفتح فظن البعض أنها هى التى حملت المسلمين على فتح الأندلس ولكن الحقيقة فى رأينا أن امتداد الفتح إلى الأندلس كان أمرا طبيعيا يتمشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية وطبيعة القائمين بها وقد تم ذلك بعد أن تهيأت الظروف الملائمة وحان وقته .

ولعل ما يؤيد هذا نظرة عقبة بن نافع قبل أكثر من ربع قرن إلى شواطىء الأندلس عندما وصل فى غزوة إلى سبتة وسأل صاحبها عن العبور إلى الأندلس ولكن الأمور لم تكن مهيئة بعد للقيام بمثل هذا الفتح ، فتأجل ذلك إلى عهد الوليد وقيادة موسى . حيث خبر المسلمون ركوب البحر واستولوا على الجزر فيه وتوطدت أقدامهم فى أفريقية المسلمة فإذا بأفريقية المسلمة عربا وبربرا تتوجه إلى الأندلس تواصل تبليغ وبسط سلطان الإسلام .

ومما يؤيد ذلك أيضاً متابعة المسلمين بعد فتح الأندلس تنفيذ الخطة العامة للفتح الإسلامى بالتوجه إلى فرنسا تدفعهم نفس الأسباب والدوافع

---

(١) مختصر تاريخ العرب ، أمير على ص ١١١ ، تاريخ العرب العام ، سيديو ، ص ١٥٨ .

التى حملتهم على الخروج من جزيرتهم دون أن يكون هناك سبب من الأسباب التى ظن بعض المؤرخين أنها هى التى حملت المسلمين على فتح الأندلس[١] ولولا العوامل المضادة التى قابلت المسلمين فى فرنسا ثم بعض الأسباب التى طرأت على المسلمين أنفسهم لما توقف المد الإسلامى ولاستمر لكى يشمل أوربا والبسيطة كلها تنفيذا لقول الله تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ومن ذلك نرى أننا لا نميل أبدا إلى هذه التعلات التى تذكر بحسن نية أو بسوء نية فى كثير من الأمور التى قام بها المسلمون لتهون من شأن الفتح الإسلامى وتبين أن المسلمين ما انطلقوا إلى القيام بعمل ما إلا بتأثير خارجى حملهم على القيام به .

٢ — العوامل المساعدة والممهدة للفتح :

وقد ساعد المسلمين على تحقيق فتح الأندلس أمور منها :

١ — استقرار أقدام المسلمين فى أفريقية واعتناق البربر للإسلام وحماستهم لحمل دعوته وبذلهم أرواحهم بسخاء فى سبيل ذلك وحبهم فى أن يكون لهم من الجهود فى سبيل دعوة الإسلام مثل ما للعرب المسلمين .

٢ — اليقظة والحذر اللذين اتصف بهما المسلمون بمحاولة التعرف على حال البلاد عمليا بتوجيه بعض الحملات الخفيفة السريعة التى تعرف بها طبيعة البلاد وحالة أهلها وتعجم عودها وتعطى المسلمين جسارة على مواجهة عدوهم .

٣ — تعريف مقر الخلافة بخطة الفتح وإحاطتها علما بمجريات الأمور

---

(١) انظر : الخلفاء الراشدون للمؤلف بالاشتراك ص ٣٤ — ٣٨ .

لتكون على أهبة المعاونة وإرسال المدد إذا لم تنجح خطة الفتح وذلك يعطى للحملة صفة الشرعية المستمدة من مقر الخلافة الساهرة على حماية الإسلام وتعاليمه وتبليغها للعالمين .

٤ — وبذل المسلمين جهدهم لتكوين دار صناعة (ترسانة بحرية) وأسطول بحرى فى الشمال الأفريقى ابتدأه حسان بن النعمان ، وواصل موسى ابن نصير التوسع فى تكوين الأسطول « فقد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة »(١).

٥ — حالة بلاد الأندلس التى سبق الحديث عنها فى الفصل السابق من اضطراب من الناحية السياسية واغتصاب للعرش ، وفروق شاسعة بين الطبقات فى الناحية الاجتماعية ، ثم الظلم الصارخ فى توزيع الثروات مما يفقد غالبية الشعب روح الدفاع عن البلاد عند المهاجمة .

٦ — ثم أخيرا ما يذكر عن يوليان حاكم سبتة ورجاله حيث كان يدل المسلمين على العورات ويتجسس لهم الأخبار (٢).

كل ذلك وغيره من الأمور التى ساعدت على الفتح الإسلامى للأندلس.

٣ — كيف تم فتح الأندلس ؟

عندما اطمأن موسى بن نصير على قدرة المسلمين لكى يعبروا إلى الأندلس بعد أن تثبتت أقدامهم فى أفريقية كتب إلى أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك يخبره بذلك — ويستأذنه فى اقتحام الأندلس . فكتب إليه الوليد . « أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى

---

(١) نفح الطيب المقرى ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) نفح الطيب المقرى ج ١ ص ٢٤١ .

بحر شديد الأهوال (١) .

لذلك أرسل موسى حملة حربية صغيرة مكونة من مائة فارس وأربعمائة راجل بقيادة طريف بن مالك فى أربع سفن سنة ٩١ هـ فنزلت فى المكان الذى يحمل إلى اليوم إسم طريف وكان هدف هذه الحملة الصغيرة الممارسة العملية لمعرفة طبيعة البلاد ومحاولة استكشاف ومعرفة أحسن الأماكن التى يمكن انزال الجيش فيها ، ولذلك نجد الحملة الكبرى بعد ذلك وهى حملة طارق بن زياد لاتنزل فى مكان طريف وإنما تنزل فى مكان آخر وهو جبل طارق مما يدل على أنهم وجدوا ذلك المكان أنسب وأسلم من مكان طريف ، كما عادت الحملة بالغنائم والأثقال وأعطت صورة حقيقية قدمتها إلى القائد العام وإلى شمال أفريقية موسى بن نصير .

ومن هنا لانرى موسى بن نصير يأخذ بكلام يوليان على فرض صحة ما يسند إليه من أنه هو السبب فى فتح الأندلس وإنما يطبق أسلوب المسلمين العملى فى الاستكشاف بأنفسهم حتى يستطيعوا تقدير الأمور على حقيقتها .

ومن ثم أخذ موسى يعد الحملة التى ستكون مقدمة للاستيلاء على الأندلس فجد فى بناء السفن وتجهيزها ولاشك أنه استعان مع هذا بكل السفن التى كانت تتردد بين أفريقيا والأندلس سواء كانت ليوليان أو غيره حتى يتمكن من نقل الجيش الذى بلغ تعداده سبعة آلاف معظمهم من البربر ، وقد اهتم بالحصول على خبير فى معرفة شهور السريان والعجم ليستفيد منه فى معرفة الطقس الملائم للحملة وأسند (٢) قيادة الجيش إلى مولاه طارق بن زياد الذى لمس فيه موسى الكفاءة لقيادة هذه الحملة .

---

(١) نفس المرجع ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) الامامة والسياسة للدينورى ج ٢ ص ٠٧٣

٪ وتمكن طارق والمسلمون معه من النزول فى جبل طارق فى شعبان سنة ٩٢ هـ بعد أن قضوا على المقاومة التى تصدت لهم وفتحوا حصن قرطاجنة الذى كان فى سفح هذا الجبل[١] . وبدأ طارق يبسط سلطانه على الأماكن المجاورة لجبل طارق . وهنا أخبر حكام الأقليم لذريق الذى كان مشغولا باخماد ثورة قامت ضده فى الشمال بما يحدث فى الجنوب فأدرك مدى الخطر الذى يهدد ملكه بالزوال وباحتلال البلاد فأسرع وأرسل جيشا إلى طارق كى يتصدى له ويوقف تقدمه وكان الجيش يصل تباعا فى فرق كبيرة فكان طارق يلتقى بها . ويقضى عليها . وكان على أحد هذه الفرق بنج ابن أخت لذريق وأكبر رجال لذريق وقد تمكن المسلمون من هزيمة كل هذه الفرق التى بعثها إليهم لذريق وتمزيق شملها ، وقد زاد ذلك من حماس المسلمين وقوى روحهم المعنوية كما كان له تأثير مضاد فى نفوس القوط[٢] .

لم تغن هذه البعوث التى أرسلها لذريق لايقاف المسلمين أو ردهم على أعقابهم شيئا وتبين له أن المسلمين مع قلتهم فى حاجة إلى حشد كبير من القوط وإلى أن يقود بنفسه المعركة . وكان لذريق معروفا بالشجاعة والعزم والقسوة والجبروت وكان ذلك يثير خوف من حوله . وقد استطاع أن يضم إلى هذا الجيش كثيرا من الأمراء والأشراف والاساقفة الذين حشروا كل رجالهم وأتباعهم فتكون منهم جيش ضخم إختلفت الروايات فى تقديره بين مائة ألف وتسعين ألفا ويذكر ابن خلدون أنه كان أربعين ألفا[٣] ، وقد توجه بهم لذريق جنوبا صوب المسلمين للقائهم .

---

(١) ابن عذارى جـ ٢ ص ٩ ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، أحمد العبادى ص ٢١ .

(٢) ابن عذارى جـ ٢ ٨ .

(٣) تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص ١١٧ ، ودولة الاسلام ، عنان ، ص ٤٢ .

علم طارق بهذا الجيش الضخم فأرسل إلى موسى يصف له الوضع ويستمده فأرسل إليه خمسة آلاف فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفا يملأوهم الإيمان حماسا وثقة فى نصر الله وتمكينهم من رقاب أعدائهم وتبليغ دعوتهم . وتقدموا نحو الشمال حيث التقوا بجيش القوط الكبير فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ فى سهل (الفلنتيره) حيث دارت المعركة الفاصلة بين المسلمين والقوط والإسلام والنصرانية واستمرت ثمانية أيام قاسية خاضها المسلمون بعددهم القليل المتماسك المؤمن بالنصر أو الشهادة ، والقوط بأعدادهم الكثيرة وبأهوائهم المختلفة التى تجلى فيها التفتت السياسى والاجتماعى الذى سبق أن تحدثنا عنه فتحقق فيهم وفى المسلمين قول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، فهزم الجيش القوطى وتشيت فى أنحاء البلاد وقتل الملك لذريق أو غرق فى بعض الروايات وتحقق للمسلمين النصر .

وقد سميت هذه المعركة بأسماء عدة فهى معركة وادى لكة أو بكة ومعركة شذونه والبحيرة .

وربما كان استمرار المعركة ثمانية أيام متتالية وقع فيها كر وفر وإعادة ترتيب وتخطيط وتحرى كل جيش لاختيار المكان المناسب له يوما بعد يوم حسب المد والجزر فى أرض المعركة قد جعل رحى المعركة تدور فى هذه الأماكن التى تقع فى وادى الفلنتيرة وأدى إلى اختلاف الرواة فى المكان الذى تم فيه فصل المعركة وكان جديرا بحمل اسمها وأخذ كل منهم يذكر المكان الذى اقتنع به(٢) .

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ صـ ١١٧ ، ودولة الإسلام ، عنان ، صـ ٤٢ .

(٢) أنظر : البيان لابن عدارى جـ ٢ صـ ٨ ، دراسات للعبادى صـ ٣٣ - ٣٥ ، عنان : دولة الإسلام صـ ٤٢ ، ٤٥ . نفح الطيب جـ ٢ صـ ٢٤٢ :

ونحب أن نذكر هنا أن المؤرخين يشيرون كثيرا إلى قلة الجيش الإسلامى وكثرة جيش القوط ثم يثنون بالحديث عن الخيانة التى كانت تحيط بجيش القوط فقائدا جناحى جيش القوط من أبناء غيطشة الذى قتله لذريق واغتصب العرش من أبنائه والخيانة منتشرة بين قواد الجيش فالكل يريد السلامة . ثم يقولون أن يوليان وأوراس أسقف طليطلة فى صفوف المسلمين ويعملون على تثبيط القوط ، وكل هذا يجعل الهزيمة تحل بالقوط ، وعلاوة على ذلك يقول أن لذريق حضر المعركة وهو متوج باللآلىء متشح بالحرير والذهب مضطجع فى هودج من العاج ويعيبون عليه ذلك .

وهنا نذكر بالنسبة للأمر الأول : أن جيش المسلمين فى كل المواقع الفاصلة التى خاضها ضد أعدائه فى اليرموك والقادسية ونهاوند وعين شمس وسبيطلة وغيرها من المواقع الفاصلة فى تاريخ المسلمين كان دائما قليل العدد بالنسبة لعدوه ولكنه كان ينتصر فى النهاية . لا بالعدد وإنما بالاستعداد ، وبالمبادىء التى يؤمن بها ويدعو إليها فكانت هى التى تجعله يتغلب على أعدائه الكثيرين .

أما الخيانة التى يتحدثون عنها فلو حدثت منذ البداية وكانت مدبرة لما استمرت المعركة ثمانية أيام . وإنما قوة المسلمين وبأسهم وطول أيام القتال وشدتها جعلت القوط يفرون ولا يثبتون مثل ثبات المسلمين بعد أن لاقوا العناء فى القتال .

ومع ذلك فقد يكون هناك تخاذل فى القتال وخاصة من الجنود نتيجة لوضعهم الاجتماعى المنهار وابن عبد الحكم يذكر « تخلف يوليان ومن كان معه من التجار بالخضراء[1] ليكون أطيب لأنفس أصحابه وأهل بلده »[2] .

---

(١) الخضراء : مدينة على المجاز إلى الأندلس مما يلى طنجة .

(٢) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ، ص ٢٧٧ .

ولذلك نجد ابن عذارى يروى حضور يوليان بعد انتصار المسلمين فى المعركة فقد « قدم يوليان ، على طارق فى الخضراء مستقرة فقال له : لقد فتحت الأندلس فخذ من أصحابى أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى المدينة طليطلة [١] » وذلك يدل على عدم شهوده القتال .

أما بالنسبة للحلية التى كان يتحلى بها لذريق أثناء المعركة فإننى أعجب كيف يذكرون ذلك مع حديثهم عنه بأنه كان بطلا شجاعا وفارسا مقداما فلم تخلى عن شجاعته وفروسيته أثناء هذه المعركة التى يتوقف عليها ثبات أركان عرشه ؟

ثم كيف يقال ذلك مع أن هذه المعركة قد استمرت ثمانية أيام قاسية ولذريق يقودها بقوة وشجاعة والمسلمون يشددون الحملة ويقدمون الشهداء ؟

فلاشك أن المعركة كانت حامية الوطيس شديدة الوطأة بذل فيها كل من الطرفين كل طاقتهما إلا أن الغلبة كانت فى جانب المسلمين . ولعلنا نستطيع أن نتصور شراسة هذه المعركة من طول أيامها إذا قارناها بمعارك الإسلام الكبرى كاليرموك والقادسية .

إن الذى يبدو لى أن لذريق وجيشه كان بطلا وشجاعا كما يصفون وأنه قاتل وبذل كل جهده وطاقته إلا أن كلمة الله قد سبقت بأن جند الله هم الغالبون .

حرق طارق للسفن :

وهناك أمر يتحدث عنه بعض المؤرخين ويحاول أن يؤيده بما يروى من بعض حوادث التاريخ المماثله وهو حرق طارق للسفن التى عبر عليها

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩ .

إلى الأندلس[1] كى يحمل المسلمين على قطع الأمل فى التراجع عن الفتح حيث لا سبيل إلى ذلك إنما هو النصر أو الفناء .

وربما يستشهدون لذلك بما ورد فى الخطبة التى قالها طارق أثناء المعركة: أيها الناس « أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصدق والصبر . . . ألخ . مع مايدور حول صحة نسبة هذه الخطبة إلى طارق لعدم استقامة لسانه العربى إلى هذا الحد من البلاغة والتألق فى الأسلوب .

ولا أرى أن طارقا قد أحرق السفن التى عبر عليها لأنه يعلم أن الجنود الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التى يملكها الجيش الإسلامى حيث يضطر إلى قطع أملهم فى التقهقر إذا أغرمتهم الظروف إلى ذلك ، بل يعلم أن خلفه رقعة فسيحة مملوءة بجنود الإسلام وهم على أتم الاستعداد للعبور إليه وقت الحاجة أو لمواصلة الجهاد والفتح إذا ما فشلت هذه الحملة ولعل فتح أفريقية خير دليل على ذلك .

وطارق يعلم أيضا أنه قد اضطر قبل المعركة إلى طلب المدد من موسى ابن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط فأمده موسى بخمسة آلاف جندى عبرت بالسفن إلى الأندلس . ولاشك أنه لو طلب مددا ثانيا وثالثا لأمده موسى على فرض صحة مايروى من إحراق السفن . فكيف كان المدد الذى يرسله إليه موسى يستطيع أن يصل إليه ؟

ثم إن الخطبة البليغة التى تذكر إحراق السفن كانت وقت قيام المعركة التى تبعد كثيرا من الشاطىء فهل حرق السفن بمجرد عبوره ؟ أم بعد فترة

---

(١) انظر : دراسات للعبادى صـ ٢٦ ، مع المسلمين فى الأندلس ، حبيبة صـ ٩٨ ، نفح الطيب للمقرى جـ ١ صـ ٢٤٢ .

من العبور ووصول النجدة التي طلبها ؟ ولو حدث ذلك لما كان له التأثير القوى الذى يهدف إلى أثارته فى نفوس جنوده .

ولنا أن نتساءل كيف عبر موسى بجيشه الذى بلغ ثمانية عشر ألفا بعد ذلك بعام واحد ؟

هل اضطر إلى بناء أسطول جديد فى مدى عام واحد لكى يعبر عليه جيش أكبر من جيش طارق وذلك يكلف موسى الجهد الكثير ؟ وإذا افترضنا أن إحراق السفن قد حدث فهل يمر ذلك دون أن يكون محل مساءلة من موسى لطارق ؟ خاصة وبعض المؤرخين يشير إلى حدوث سوء تفاهم بين القائدين نتيجة لمخالفة أمر صدر من القائد الأعلى بتثبيت أقدام المسلمين فيما يملكون قبل التوسع فى الفتح .

وأمر آخر نثيره هنا وهو أن بعض الروايات تذكر أن هذه السفن لم تكن للمسلمين وإنما كانت ليوليان وبعض التجار فكيف يجوز لطارق أن يحرقها وهؤلاء يملكونها وإذا حرقها ألا يثير ذلك عليه يوليان الذى يقال أنه كان مساعدا له وكذلك يثير عليه التجار الذين يملكون هذه السفن التى تعد وسيلة ارتزاقهم .

وإذا كان هدف طارق أن يقطع بحرق السفن التردد لدى جنود المسلمين فى العودة إلى أفريقية فإن من الممكن أن يحقق هدفه دون أن يلجأ إلى إحراقها .

وأخيرا فإننا لا نجد أحدا من المؤرخين القدامى كالبلاذرى وابن خلدون وابن عذارى وغيرهم يشير إلى حرق السفن . ولم يذكر حرق السفن كما يقول العبادى إلا فى كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء لابن الكرديوس (١)

(١) عبد الملك بن الكرديوس المؤرخ التونسى الذى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى .

ونزهة المشتاق للادريسي والروض المعطار للحميري(١) .

وذلك دليل على اختراع هذه القصة أو وضعها مثل الخطبة التى يسند إلى طارق أنه قالها يوم التقائه بلذريق وجيشه .

إتمام فتح الأندلس :

كان انتصار المسلمين على القوط فى معركة شذونة قد مكن المسلمين من وضع أقدامهم بثبات على أرض الأندلس وحصلوا على مغانم كثيرة يجل تقديرها وقد جمع طارق الفيء وخمسة (٢) وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم وبقى على المسلمين تكملة المهمة التى أتوا من أجلها باستيلائهم على الأندلس كلها .

ولاشك أن القوط قد ذهلوا لما حل بهم من هزيمة فى المعركة التى لم يكونوا يتوقعوها من هذا الجيش الصغير . فكان لهذه المعركة أثر كبير فى بث الخوف والهلع فى نفوس القوط ، إلا أن ذلك لم يمنع بعضهم من الدفاع عن ملكهم وأرضهم مدينة بعد مدينة والمسلمون يصرون على مواصلة الفتح والقوط مصرون على الدفاع .

فقد اجتمع الجيش القوطى عند « استجه » محاولا رد المسلمين ، فتوجه إليهم طارق فهزمهم وفرق جمعهم ثم وضع خطة ليستولى على المدن والحصون بفرق من الجيش ويتوجه هو إلى العاصمة طليطلة للاستيلاء عليها .

وقد بين ابن عذارى (١) تلك الخطة بأن طارقا أرسل من استجه مغيثا

---

(١) انظر : دراسات العبادى ص ٢٣ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(١) البيان المغرب ص ٩ — ١٧ وقد أثرت الخطة المنظمة التى ذكرها ابن عذارى وهى تختلف فى بعض الأمور بالنسبة لما ذكره المقرى فى نفح الطيب نقلا عن الرازى عيسى بن أحمد الرازى توفى آخر القرن الرابع الهجرى ٢٤٢ — ٢٤٤ .

الرومى مولى عبد الملك بن مروان فى سبعمائة فارس إلى قرطبة فاستولى عليها بعد قتال وحصار دام ثلاثة أشهر ، وبعث جيشا من استجه إلى مالقة ففتحها وجميع أعمال بارية وقد لجأ حكامها إلى جبال رية الشاهقة المنيعة فتحصنوا بها وتمكن الجيش الذى أرسله طارق إلى غرناطة من فتحها بعد حصار قصير ثم توجه الجيش من غرناطة إلى مرسية وكانت تسمى تدمير باسم حاكمها وقاعدتها مدينة أوريوله وقد التقى حاكمها تدمير بجيشه مع المسلمين فى قتال شديد هزم فيه وفنى معظم جيشه فلجأ إلى الحيلة حيث أوهم المسلمين بكثرة الجند الذين فى المدينة (أوريوله) وهم فى الحقيقة من النساء. وبذلك تمكن من عقد صلح مع المسلمين حفظ به المدينة من السبى .

وبعد أن وجه طارق هذه البعوث سار بجيشه إلى طليطلة عاصمة القوط فوجد حاكمها قد فر مع أصحابه بأموالهم إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة ولم يبق بالمدينة سوى اليهود (وقليل من النصارى) فاستولى طارق على المدينة وترك بها بعضا من أصحابه وتبع الفارين إلى مدينة المائدة فاستولى عليها وغنم ما فيها ثم عاد إلى طليطلة ويعقب ابن عذارى على ذلك بقوله « هكذا أثر الناس هذا كله على أن طارقا صنعه وقال آخرون : بل أقام طارق حيث كانت الوقعة وجاز إليه موسى وقيل بل وجده بقرطبه [١] .

وأيا كان الأمر فقد عبر موسى بن نصير إلى الأندلس فى رمضان سنة ٩٣هـ بجيش قوامه ثمانية عشر ألفا لكى يكمل مع طارق فتح الأندلس .

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى جـ٢ صـ١٢ .

وقد توجه موسى إلى شذونة فافتتحها عنوة ومنها سار إلى قرمونة المشهورة بحصانتها وصبرها على طول الحصار والقتال فتمكن بالحيلة من فتحها ودخلها المسلمون عنوة وتقدم موسى بعد ذلك إلى اشبيلية أعظم قواعد الاندلس ودار ملك روم روما قبل غلبة القوط على الاندلس فحاصرها أشهرا ثم تغلب عليها . ومنها سار إلى ماردة فخرج اليه أهلها فقاتلهم فانسحبوا الى المدينة بعد أن قتل منهم جماعة فى كمين دبره لهم وضرب عليها الحصار أشهرا استخدم المسلمون خلالها دبابة يحتمون بها لنقب أحد أبراج سورها فثار القوط على المسلمين الذين ينقبون السور تحت الدبابة فى غفلة منهم فاستشهدوا تحتها وسمى ذلك البرج « برج الشهداء . وقد دعا موسى القوم الى الصلح فاستجابوا له على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين فى أموال الهاربين الى جليقية وأموال الكنائس للمسلمين ودخل المسلمون المدينة يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ واستولوا عليها . وأثناء حصار موسى لماردة ثارت أشبيلية على المسلمين فيها وقتلوا منهم ثمانين رجلا فلما تم فتح ماردة أرسل اليهم موسى ابنه عبد العزيز بجيش ففتح أشبيلية ثانيا وقتل الثائرين فيها ونهض الى لبلة ففتحها واستقامت الأمور فيها وفى اشبيلية وعلا شأن الاسلام فيها .

وبعد أن فرغ موسى من أمر ماردة توجه الى طليطلة ، فاستقبله طارق بوجوه الناس بمقربة من طلبيرة معظما له ومبادرا لطاعته فوبخه موسى وغضب عليه . وقيل أنه وضع السوط على رأسه وقيل أنه ضربه أسواطا كثيرة وحلق رأسه ثم سار به الى طليطلة(١) . وغير ذلك من الأمور التى سنناقشها بعد الانتهاء من عرضنا للفتح .

وإذا تجاوزنا ماحدث فى هذا اللقاء حسب ماتصوره أقلام بعض

(١) ابن عذارى جـ ٢ صـ ١٦

المؤرخين فإننا نجد أمرا يناقض وصفهم تماما وذلك أن القائدين بعد لقائهما يضعان خطة لاتمام فتح ماتبقى من الاندلس . فيخرج الجيش الاسلامى من طليطلة وعلى مقدمته طارق ومن خلفه موسى فى بقية الجيش متوجهين الى الشمال الشرقى فيفتحان سرقسطة وما حولها من الحصون والقلاع ثم يوغلان فى البلاد ولايمرون ببلد الا فتح عليهما وصادت تراغونه وبرشلونه وغيرها من المدن الرئيسية فى الشمال فى أيديهم ثم وجه موسى طارقا الى جليقية وسار هو الى البرنية فغزا سبتمانيا التى كانت تابعة للقوط واستولى على قرقشونة واربونة وحصن لودون على وادى ردونه . وقد انزعج لذلك ملك الافرنج بالأرض الكبيرة (فرنسا) وخرج الى المسلمين فى جموع كثيرة لم تتمكن من أن تنال من المسلمين شيئا واضطر ملك الافرنج الى العودة الى بلاده بعد أن أقام حصونا على وادى ردونه ملأها بالمقاتلين وصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين[1] . وقد رأى موسى أن من الممكن أن يواصل الفتح فى جنوب أوربا حتى يصل الى مقر الخلافة فاتحا القسطنطينية ولكن الخليفة لم يوافقه على هذا المشروع .

عند ذلك رأى موسى أن يوجه الجهد إلى اخضاع الاقسام الجبلية من الاندلس حيث كان المسيحيون يعتصمون بها فى دفاع يائس ضد المسلمين.

وقد تمكن الجيش الاسلامى من دخول جليقية والاستيلاء على معظم قلاعها وطارد العدو الذى فر الى جبال اوسترياس واعتصم بها فحاول موسى محاصرة العدو وإرغامه على الاستسلام جماعة بعد جماعة حتى لم يبق سوى زعيم يدعى بلاى أو بلايو وقليل من أنصاره .

وبينما كان موسى يشدد عليه الحصار حتى كاد أن يلقى سلاحه اذا بالخليفة

---

(١) نفح الطيب ٢٥٦/٢ عن ابن حيان .

يرسل أبا نصر متعجلا موسى فى العودة الى دار الخلافة بعد أن استبطأ رجوعه إثر وصول رسوله الأول مغيث الرومى . فعاد موسى تاركا ذلك الزعيم ومن معه معتصما بالجبال واستهان بهم المسلمون بعدهم فى الأندلس فاذا بهم ينمون حتى كونوا المملكة النصرانية فى الشمال التى قدر لها أن تتمكن بعد ثمانية قرون من طرد المسلمين من الاندلس(١) .

وقبل أن يعود موسى إلى المشرق نظم شئون الحكم لهذه البلاد الشاسعة فعين ابنه عبد العزيز على إمارة الاندلس وجعل مقره أشبيلية وكانت مقرا للحكم أيام الرومان وعين ابنه الثانى عبد الله على افريقية وابنه الثالث عبد الملك حاكما على المغرب الاقصى وعهد الى عبد الصالح بقيادة الاسطول وحماية السواحل وجعل مقره طنجة .

وبعد أن اطمأن موسى إلى ما اتخذه من تدابير لإدارة شئون المغرب والاندلس توجه إلى المشرق فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ هـ وطارق معه ومعهما من الغنائم والسبى والجواهر والذخائر ونفيس الأمتعة مالا يقدر قدره حتى قدم دمشق فيقال أنه وصلها فى أواخر أيام الوليد وقدم اليه كل ما غنموه فجعلها الوليد فى بيت المال وهنا يجد بعض المؤرخين مجالا للخيال فيذكرون أن سليمان نكب موسى بوحشية عندما أفضت الخلافة اليه لتسرعه فى القدوم على الوليد كما يذكرون أن القائدين العظيمين قد وصلا الى درجة من الاسفاف فى الخصومة أمام الخليفة وموسى يقدم اليه تقريرا عن الفتح وغنائمه.

---

(١) انظر ابن عذارى جـ ٢ صـ ١٦، ١٧ نفح الطيب للمقرى جـ ١ صـ ٩٥٥ — ٢٥٩ ، عنان : دولة الاسلام قسم ١ صـ ٣٨ — ٥٦ ، دراسات فى المغرب والاندلس للعبادى صـ ٣٥ — ٤٢ ، حبيبة : مع المسلمين فى الاندلس صـ ٩٧ — ١٠٠ ، أرسلان تاريخ غزوات العرب صـ ٢٦ — ٤٦ .

٤ — مايتحدث عنه المؤرخون من أمور وقعت أثناء الفتح :

ونود قبل أن نتحدث عن نتائج الفتح أن نقف وقفة تأمل وتمحيص نستجلى فيها الحقيقة عما يسجله بعض المؤرخين عن :

(أ) عبور موسى إلى الأندلس ولقائه طارق .

(ب) مايذكر عن سبب منع موسى من مواصلة الفتح فى أوربا .

(حـ) لقاء موسى بأمير المؤمنين فى مقر الخلافة حيث نجد العجب العجاب .

(أ) فبالنسبة للموضوع الأول : نجد ابن حيان يبين أن سبب عبور موسى هو الحسد[١] لطارق ، وعبر ابن خلدون عن سبب العبور بالغيرة من طارق[٢] ، وذلك أمر قد جانب الحقيقة .

فلا شك أن انتصار المسلمين فى معركة شذونة بعد قتال دام ثمانية أيام قد حقق المسلمون فيه النصر إلا أنهم قد فقدوا كذلك كثيرا من الشهداء ولم يذكر المؤرخون تقديرا لهذه الخسائر فى كلا الجانبين ومن المؤكد أنها كانت كبيرة .

وفقد المسلمين لبعض الشهداء ثم استيلاؤهم على بعض المدن بعد ذلك وترك بعض الحاميات بها قد أدى إلى نقص كبير فى صفوف الجيش المهاجم مما أدى إلى جعل الجيش الإسلامى فى حاجة إلى مدد جديد لمواصلة الفتح وتثبيت أقدام المسلمين فيما استولوا عليه وأن موسى بن نصير وهو القائد

---

(١) نفح الطيب للمقرى جـ ١ صـ ٢٥١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ صـ ١١٧ .

الأعلى والمسئول عن الفتح ونتائجه كان عليه أن يعبر سريعا لتثبيت الفتح ومواصلته خوفا من أن يتمكن القوط من قطع خط الرجعة على طارق خاصة الانتشار الذى قام به . هذا مادفع موسى إلى هذا العبور وليس حسدا لطارق أو غيرة منه أو طمعا فى المجد ، فموسى قد حاز من المجد الكثير . ولذلك نجد ابن عذارى يذكر أن ابن القطان قد حدد أسباب عبور موسى إلى الأندلس فى واحد من ثلاثة أمور :

« قيل إنما حمله على الجواز إلى الأندلس تعدى طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة على قول أو موضع هزيمة لذريق على قول ، وقيل أيضا : إنما حمله على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح والغنائم ، وقيل أيضا : إنما جاز باستدعاء طارق إياه »[1] .

وهو بهذا يذكر الحق مشوبا بالباطل ورد ذكر السبب الحقيقى عند ابن قتيبة فى قوله : وكتب طارق إلى مولاه موسى أن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث[2] ، فالسبب الحقيقى إذن هو حاجة طارق إلى المدد فلذلك عبر إليه موسى سريعاً .

وإننا حين ننظر إلى خريطة الأندلس ونتتبع عليها طريق سير طارق ثم طريق سير موسى من بعده فإننا نلاحظ أن طارقا أثناء توغله ناحية الشمال قد ترك حصونا ومدنا كثيرة وجد موسى نفسه فى فتحها والاستيلاء عليها عناء ومشقة وكان من الممكن أن تقطع على طارق طريق عودته وهذا يؤيد موسى فى أمره لطارق بالتوقف إلى حين حضوره .

إلا أن بعض المؤرخين أبى بعد ذكر الغيرة والحسد إلا أن يذكر

---

(١) ابن عذارى جـ ٢ ص ١٣ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٧٤ .

ماترتب على ذلك عندلقاء موسى وطارق فنجد الرواية التى سبق أن ذكرها ابن عذارى عند لقاء موسى وطارق ونجد ابن عبد الحكم يذكر فى رواية : أن موسى أخذ طارقا فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله . ثم يذكر أن مغيثا الرومى مولى الوليد ذهب إلى الوليد وكلمه فى شأن طارق فقدم الكتاب من الوليد بإطلاق سراح طارق[١] . وذهاب الرسول وعودته يقتضى وقتا طويلا . مع أن المؤرخين يجمعون على أن طارقا كان على مقدمة موسى عندما التقيا وتوجها إلى الفتح شمالا . مما يدل على عدم صحة هذه الرواية وأن الرواية الصحيحة هى ماذكره ابن عبد الحكم نفسة قبل ذلك بقوله: فتلقاه طارق فترضاه وقال له إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك ثم يذكر أن موسى وجه طارقا بعد ذلك إلى طليطلة[٢] ولذلك نجد البلاذرى[٣] واليعقوبى[٤] وابن خلدون[٥] يتفقون على إنما كان معاتبة على مخالفة طارق لأمر موسى وعندما ترضاه وبين له الأسباب التى دعته إلى مواصلة القتال وتتبع القوط الذين تجمعوا له اقتنع موسى بوجهة نظر طارق ورضى عنه[٦].

وأخيرا نقول كيف يغار موسى من طارق أو يحقد عليه ويحسده وقد أرسل إليه المدد أولا عندما طلبه ؟

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٠

(٣) فتوح قسم أول ص ٢٧٣

(٤) تاريخ ج ٢ ص ٢٨٥

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧

(٦) أنظر : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، لإبراهيم شعوط ؟ دار الطباعه المحمدية .

وكيف يغار منه أو يحسده وهو الذى أرسله إلى الأندلس وهو قائده الأعلى وأى كسب لطارق إنما هو كسب لموسى ؟ فلا حاجة إلى غيرة أو حسد .

(ب) أما الأمر الثانى فهو مايذكر عن سبب منع موسى من مواصلة الفتح فى أوربا واستدعائه من الأندلس حيث نجد ابن قتيبة يقول : « ان الوليد ظن أن موسى يريد أن يخلعه ويقيم فيها ويمتنع بها[١] » ويؤيد بعض المؤرخين المحدثين هذا الرأى ويقولون أنه أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه[٢] .

ذلك أن موسى بن نصير عندما وصل إلى حـــدود بلاد الافرنج (فرنسا) وأشرف على أوربا رأى أن من الممكن أن يواصل الفتح مخترقا أوربا حتى يصل إلى دار الخلافة ويبدو لى أنه وضع خطة لذلك وأرسلها إلى الوليد ولكن الخليفة تردد خوفا على المسلمين أن يغرر بهم أو أن حب الانتصار ونشوة الغلب قد يحملان القائد المنتصر على أن يكلف المسلمين شططا ، ولذلك رأى الخليفة أن يوقف الفتح وأن يستدعى قائدى فتح الأندلس فأرسل فى إحضارهما حفاظا على سلامة المسلمين . وإلى هذا يشير ابن خلدون مبينا خطة موسى ورأى الخلافة فيذكر أن موسى « قد جمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهدا فيهم مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة ونمى الخبر الى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى ان ماهم به موسى غرر بالمسلمين فبعث إليه بالتوبيخ

---

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥

(٢) أنظر : عنان دولة الإسلام قسم ١ ص ٥٤ ، حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسى ص ٣٢٤

والإنصراف(١). وإذا كان موسى قد خطر بذهنه هذا المشروع الكبير لمواصلة الفتح ورأى أن يقوم بتنفيذه فهو يذكرنا بالخطة التى وضعها عقبة بن نافع لفتح الشمال الأفريقى ونفذها واستشهد فى نهايتها ولكن تلك الخطة حثت المسلمين وقوادهم من بعدها على أن يتمسكوا بها حتى حققوها مع مرور الأيام أو ربما لو نفذ موسى هذه الخطة وشغلت أوربا بجيوش المسلمين من الشرق ومن الغرب فى وقت واحد ، وسهر الخليفة على تنفيذ هذه الخطة لتحقق للمسلمين آنذاك فتح أوربة بسهولة وارتفعت راية الإسلام على ربوعها .

ولا شك أن مواصلة الفتح كانت تستدعى مددا جديدا سواء من أفريقية أو من مصر والشام كما حدث فى فتح الشمال الأفريقى لأن جهود جيش المسلمين الذى عبر إلى الأندلس وسعة البلاد الشاسعة تحتاج إلى قوة أكثر وكان هذا المدد سيجعل أقدام المسلمين فى الأندلس أكثر ثباتا ويمهد لمواصلة فتح أوربا ، دون أى شائبة من الخوف ولم يكن هناك من المقاومة آنذاك فى أوربا ما يحبط هذا المشروع ، لعدم وجود أية رابطة بين الأمم التى كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة ولم يكن قد ظهر بعد ، ذلك القائد الذى يستطيع أن يوحد القوات المسيحية ويعترض تقدم المسلمين(٢) »

واذا كنا نعلم أن موسى قد استشار دار الخلافة قبل فتح الاندلس فلاشك أنه قد أرسل مشروعه لفتح فرنسا ومواصلة الفتح فى أوربا إلى الخليفة الوليد فكان رأيه هو التوقف ثم استدعاء القائدين ، ومن المقبول أن يقال أن ذلك قد حدث خوفا من تعريض المسلمين للخطر . أما أن يقال

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ١١٨

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٠ ، ٨١ .

إنه — أى الخليفة — كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد فذلك أمر لاسبيل الى تصديقه ، لأن أخلاق موسى التابعى وصلة الناس بالخلافة وشعورهم بسلطانها عليهم كان لايسمح بمثل هذا الانفصال أو الاستقلال

ولنا أن نذكر أيضا أن مواصلة الفتح المستمرة فى بلاد جديدة ذات طقس جديد ومختلف وطول خطوط القتال وسعة البلاد دعت المقاتلين أنفسهم إلى إبداء الرغبه فى إيقاف موجة الفتح لفترة ما .

وإلى هذا تشير الرواية الأخرى لابن قتيبة حيث تبين أن موسى عند ما وصل إلى أرض قرنجاة وكان الجيش قد شعر بالكل واشتد ذلك على الناس ، فقام حنش الصنعانى فأخذ بعنانه — أى موسى — ثم قال أيها الأمير أنى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرر بنفسه وبمن معه أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم أين تذهب ؟ تريد أن يخرج من الدنيا ... أنى سمعت من الناس مالم تسمع وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدعة . قال فضحك موسى ثم قال : أرشدك الله وكثر فى المسلمين مثلك . ثم انصرف قافلا إلى الأندلس فقال موسى يومئذ : أما والله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية ثم يفتحها الله على يدى إن شاء الله [1] .

ح — ونأتى إلى الأمر الأخير وهو ما يذكر عن لقاء موسى بالخليفة وكيف يصور المؤرخون هذا اللقاء بأن موسى قد لاقى جزاء سنمار ثم يتحدثون عن المشادة بين موسى وطارق حيث يذكرون ، انه عندما قرب موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مريضا كتب — أى سليمان — إلى موسى يأمره التريث رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٠ : ٨١ .

سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى ما رأى ولا سمع مثلها فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس فأبى موسى من ذلك ومنعه دينه وجد فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر فلم يمكث الوليد إلا يسيرا بعد قدوم موسى وتوفى واستخلف سليمان فحقد عليه وأهانه وأمر باقامته فى الشمس حتى كاد يهلك وأغرمه أموالا عظيمة . . . الخ (١) ويزيد الحجازى فى المسهب « والت حاله — أى موسى — إلى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتك به نفسه وفى تلك الحال مات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادى القرى سائلا من كان نازلا به (٢) . ويذكر ابن عبد الحكم فى إحدى رواياته قدوم موسى على الوليد والمنازعة التى قامت بينه وبين طارق حول المائدة التى غنمت من الأندلس بما يتنافى مع جلال القائدين(٣) ويغض من الأهداف السامية التى يرمى إليها المسلمون من الفتح حيث يوجهون اهتماما كبيرا إلى الغنائم ولذلك يقوم بينهم تخاصم وتحاسب عسير من أجل هذه الغنائم .

وأن التحرى الدقيق لروايات المؤرخين يجعلنا لا نطمئن إلى هذه الدعاوى التى تلصق بالخلفاء الأمويين فى عقاب قادتهم وفى محاسبتهم . وربما نجد من يعلل ذلك بأن أولئك القادة كانوا يريدون الانفصال . أو أنهم كانوا يحتجزون دونهم الأموال . أو أن القواد ومساعديهم كان يدس بعضهم ضد بعض ويغرى بعضهم البعض لدى الخليفة (٤) مما أدى إلى هذه النتيجة المشينة .

---

(١) نفح الطيب المقرى ج ١ ص ٢٦٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٥

(٣) انظر : فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٨٦ .

(٤) انظر : عنان . دولة الاسلام قسم ١ ص ٥٩ .

إلا أننا نعلم أن الدولة الأموية قد سقطت دون أن يحدث أى انفصال فى أجزائها وإنما حدث الانفصال بعد سقوطها مما يدعونا إلى الشك فيما يسند إلى خلفائها من عقاب قادتها على هذه الصورة المشينة لاسيما إذا علمنا أن من أسباب عقاب القادة وهو الانفصال المزعوم لم يتحقق فى عهدها وإذا بطل السبب بطل المسبب وكذلك فان من حق الخليفة أن يكون ساهرا على الغنائم باعتبارها حقا لبيت مال المسلمين . إلا أن السهر على تحصيل الغنائم للدولة ولمواردها يجب ألا يصل إلى هذا الوضع المسف الذى يصورونه فى معاملة القادة ومحاسبتهم خاصة إذا علمنا أن أولئك القادة ذووا دين قوى وأخلاق قويمة تمنعهم من مثل هذا الاسفاف الذى لايليق بدين أو خلق .

ولنا أن نتساءل هل يليق أن ينتظر سليمان وفاة الوليد وهو يعلم أن الأعمار بيد الله ؟ والغنائم ليست هى الأعمال الخالدة التى يحرص عليها وإنما الفتح هو العمل الخالد وقد تم فى عهد الوليد . ومع ذلك فإن هذه الغنائم إنما هى ملك المسلمين وقد وضعت الغنائم بجواهرها وتيجانها فى بيت المال (١) .

وأن مما يدل على عدم صحة هذه المحاسبات والمخاصمات هو التردد من المؤرخين فى رواياتهم بين قدوم موسى على سليمان مرة وعلى الوليد مرة أخرى وبين الرضا عنه مرة والسخط عليه مرة أخرى .

فابن عبد الحكم يقول مرة : وخرج موسى حتى إذا كان بطبرية أتته وفاة لوليد فقدم على سليمان بتلك الهدايا فسر سليمان بذلك(٢) ومرة أخرى

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٤

يقول : ويقال بل قدم موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك والوليد مريض فأهدى إليه موسى المائدة فقال طارق أنا أصبتها فكذبه موسى[١] ... الخ . وابن خلدون يوجز فيقول : « قدم على سليمان فسخطه ونكبه[٢] وكيف يسخط عليه وقد قدم إليه الغنائم التي قدم بها والتي يجعلها المؤرخون سبب الخصام والمحاسبة ؟

وإن مما يدل على عدم صحة ما يذكروه من عقاب سليمان لموسى ما يرويه ابن عذارى : من مساءلة سليمان لموسى عما التقى فى حروبه وعن الأمم التى التقى بها من الروم والبربر وأهل الأندلس والأفرنج فى حديث طويل يقول فيه : إن سليمان قال لموسى : « ما الذى كنت تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوك ؟ » قال : « كنت أفزع الى التضرع والدعاء والصبر عند اللقاء » قال : « فأى الخيل رأيتها فى تلك البلاد أسبق ؟ » قال : « الشقراء » قال : « فأى الأمم كانوا أشد قتالا ؟ » قال : « هم أكثر من أن أصفهم » قال: أخبرنى عن الروم ! » قال : « أسد فى حصونهم عقبان على خيولهم نساء فى مواكبهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غلبة فأوعال تذهب فى الجبال لايرون الهزيمة عارا » قال : « فأخبرنى عن البربر » قال : « هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية غير أنهم أغدر الناس لاوفاء لهم ولاعهد قال فأخبرنى عن الأندلس قال : ملوك مترفون وفرسان لايجبنون . » قال : فأخبرنى عن الافرنج » قال : « هناك العدد والعدة والجلد والشدة والبأس والنجدة » قال فأخبرنى كيف كانت الحرب بينك وبينهم : أكانت لك او عليك ؟ فقال : « أما هذا فوالله ماهزمت لى راية قط ولا بدد جمعى ولا نكب المسلمون معى منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين ! »

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٨ .

فضحك سليمان وعجب من قوله ثم دعا سليمان بطست من ذهب فجعل يردد بصره فيه فقال له موسى « إنك لتعجب من غير عجب والله ما أحسب أن فيه عشرة آلاف دينار والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتنور من زبرجد أخضر كان يصب فيه اللبن فيخضر وترى فيه الشعرة البيضاء ولقد قوم بمائة ألف مثقال وإنه لمن أدنى مابعثت به إليه ! ولقد أصبت كذا وأصبت كذا ! » وجعل يعدد (ماأصاب من الدر والياقوت والزبرجد حتى بهت سليمان من قوله (١) » .

ثم يذكر أن سليمان كان يصحب موسى معه أثناء خروجه للصيد وأنه عندما حج أى سليمان خرج موسى حيث توفى — أى موسى — فى المدينة وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك(٢) .

وعلى فرض أن سليمان أرسل إلى موسى بتأخير القدوم . والوليد أرسل اليه بتعجيل القدوم . فاننا نجد خلال هذه الروايات مايبين حقيقة الروح والخلق الذى كان سائدا وهو مايجب أن نلحظه بالنسبة لكل الأطراف : الوليد وسليمان وموسى فابن قتيبة يذكر أن موسى قال حين وصله كتاب بالتثبط فى مسيره : « خنت والله وغدرت وماوفيت . . . والله لاتربصت ولاتأخرت ولا تعجلت ولكنى أسير بسيرى فأن وافيته حيا لم أتخلف عنه وإن عجلت منيته فأمره إلى الله » (٣) .

كل هذا يدل على الاختراع والتزيد فى الروايات مما يشوه معه خلال

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٣ .

تاريخنا الاسلامى ويقتضى من الباحثين بذل كل الجهد لتخليص حقائق التاريخ من الزيف الذى لصق بها نتيجة لعدوات فى الصدور أو جلبا لمنفعة ممن لديهم منفعة ترجى بتزييف الروايات التى ترضيهم .

وإذا كنا نعلم أن التاريخ الاسلامى انما دون بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية فان من الواجب أن يتوجه بالشك القوى الى كثير من الروايات المتعددة التى تصوب التهم الى هذه الدولة وخلفائها حتى تعرف الحقيقه خالصة من الزيف والباطل وليس معنى هذا أن كل هذه التهم باطلة أو أنها كلها صحيحة ، وانما هى تهم يختلط فيها الحق بالباطل مما يجب أن يحمل المؤرخ على الحذر واليقظة والتثبت من الروايات ونقدها حتى يظهر الغث من السمين والصادق من الباطل « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

٥ — نتائج فتح الأندلس :

لقد أدى فتح المسلمين للاندلس إلى تغيير الوضع الذى كان سائدا فى الاندلس سياسياً واقتصاديا وعسكريا واداريا ودينيا . ونتج عن كل ذلك تغيير اجتماعى كبير شمل جميع أوجه النشاط التى كانت سائدة فى الأندلس عندما طرقتها أقدام المسلمين .

(ا) الوضع السياسى :

ففى السياسة نجد المسلمين قد كسبوا إقليما جديدا أضافوه إلى رقعة دولتهم الواسعة وحققوا كسبا جديدا لدعوتهم ورسالتهم ولموازم أيضا وبذلك صار المسلمون هم ساسة البلاد وحكامها والمتصرفون فى شئونها العليا وتلك هى عادة المسلمين وسلوكهم مع الاقاليم التى يستولون عليها أما ماعدا وطائفه

الدولة العليا فانهم يتركونها لأهل البلاد وخاصة الذين يثقون فيهم وذلك مما يؤدى الى عدم وجود تنافر بين المسلمين وبين أهل البلاد . فاذا كان الفتح عن طريق الصلح فانهم يشترطون فى صلحهم النصح للمسلمين والا يكون المصالح (الحاكم الاقليمى) عونا للاعداء عليهم والا نقض ذلك الصلح ونجد هذا واضحا فى صلح تدمير وهو يعطينا نموذجا حيا للوثائق السياسية الاسلامية فى عهد الفتوح الاسلامية ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز الى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لاينزع عنه ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه وانهم لايقتلون ولايسبون أولادهم ولانساءهم ولايكرهوا على دينهم ولاتحرق كنائسهم ماتعبد وتصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن أوريوله وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة وأنه ولورقة . وأنه لايأوى لنا عدوا ، ولايخون لنا عهدا ولايكتم خبرا علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا وأربعة أقساط خل وقسط عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك ، كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة ، شهد على ذلك . . الخ »[١] .

كما نجد أن طارقا عندما يفتح طليطلة يختار لحكمها وادارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا [٢] وقد عين المسلمون موظفين مسيحيين لجبى الضرائب من أبناء طائفتهم ولتسوية منازعاتهم وقد فتحت أبواب الوظائف العامة على اختلاف أنواعها ليشغلها الرجل الكفء سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا [٣] .

---

(١) انظر : عنان : دولة الاسلام ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٠ .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١١٨ .

وقد منح المسلمون سكان الاندلس حرية الاقامة أو الهجرة عن البلاد على أن ينزلوا عن جميع أموالهم ووعد من يبقون فى البلاد بالمحافظة على أملاكهم وقضاتهم وقوانينهم (١) ولذلك يذكر المقرى « أن أولاد غيطشة قد حازوا ضياع والدهم أجمع واقتسموها على موافقة منهم (٢) » وإذا علمنا أن كل من استقر فى أرضه ولم يهاجر أو صالح أثناء الحرب فقد بقيت له أملاكه ودفع الجزية فان لنا ان نقول ان أبناء غيطشة قد سالموا وحصلو على أملاك أبيهم وليس هناك عامل الخيانة الذى ركز عليه كثير من المؤرخين .

وقد كان للوضع السياسى الذى أقامه المسلمون وشعر فيه الناس بالمساواة أثر كبير فى القضاء على نظام النبلاء ، والكنيسة السابق وتبديد نفوذهم السياسى الذى كانوا يتحكمون بهمقدرات الاندلس حسب أهوائهم وشهواتهم .

(ب) الوضع الاقتصادى :

فاذا ما انتقلنا الى الجانب الاقتصادى فاننا نجد المسلمين يخففون من الأعباء الضريبية الثقيلة التى كانت توهن كاهل الطبقات العاملة فى الزراعة والصناعة والتجارة فألغيت الضرائب الفادحة وفرضت الجزية على غير المسلمين وهى تختلف حسب طاقة المكلف ويستثنى منها الرهبان والنساء والاطفال والعجزة . وقدر الخراج على الأرض وهو يتوقف على ماتنتجه الأرض فعلا ولذلك لم يكن عبئا على الزراعة (٣) .

وقد صار العمال الزراعيون والعبيد الذين يعملون فى الأرض التى انتقلت

---

(١) تاريخ العرب العام ، سيديو ، ص ١٦٤ .

(٢) نفح الطيب ص ٢٤٩ .

(٣) مختصر تاريخ العرب ص ١١٧ :

الى أيدى المسلمين أحرارا يستأجرون الأرض أو يعملون فيها ويدفعون جزءا من غلتها الى أصحابها المسلمين .

وقد نتج عن ذلك الوضع الاقتصادى الذى أقامه المسلمون فى الاندلس نمو وازدهار جميع أوجه النشاط الاقتصادى فى الزراعة والصناعة والتجارة وعاد على الشعب بالرخاء والرفاهية متمثلا فى عدالة التوزيع على العاملين فى حقول الزراعة حسب مجهود كل انسان وطاقته .

(حـ) الوضع العسكرى :

أما نتيجة الفتح فى المجال العسكرى فاننا نجد أن قوات المسلمين قد قضت على معظم القوات العسكرية للقوط التى كانت تعضد النظام السياسى المتسلط والاقتصادى الجائر الذى كان يحتفظ للنبلاء والكنيسة بامتيازاتهم وقد أنزلت القوة العسكرية الاسلامية حسب البلاد القادمة منها فى مختلف أرجاء الاندلس لتوطد الأمن وسحق اية فتنة أو ثورة تعارض الفتح الاسلامية فكانت فصيلة دمشق فى قرطبة وفصيلة حمص فى أشبيلية وفصيلة قنسرين فى جيان وفصيلة فلسطين فى شذونة وفصيلة الأردن فى مالقة وفصيلة فارس فى شريش وفصيلة اليمن فى طليطلة وفصيلة العراق فى غرناطة وفصيلة مصر فى ماردة ولشبونة ونزلت قبائل البربر فى الجهات الوسطى والشمالية . (١)

(د) الوضع الدينى

وفى المجال الدينى نجد أن الفتح الاسلامى قد منح السكان جميعا حرية العبادة حسب الديانة التى يعتنقها الفرد سواء كان مسلما أو غير مسلم فلم يظلم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ١١٧ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٢٠ ، المجمل للعبادى ص ٦٣

شخصا أو أسيئت معاملته أو منع من ممارسة شعائر عبادته سواء كان مسيحيا أو يهوديا . وقد منح المسلمون الحرية لكل من يعتنق الإسلام من العبيد فأسرع العبيد جماعات إلى اعتناق الإسلام ليحصلوا على حريتهم ويتخلصوا من الذل الذى كانوا يعانون منه تحت حكم القوط والكنيسة الجائر

وهنا يحق لنا أن نقول بحق إن الإسلام هو محرر العبيد فما نظن أن دينا سوى الإسلام أو أى ثورة إصلاحية أو اجتماعية قد وصلت فى المحافظة على كرامة الإنسان والحرص على تحريره إلى هذه الدرجة مع العلم بأن الإسلام بالنسبة لهؤلاء العبيد وغيرهم من الأحرار يسقط عنهم الجزية التى يدفعونها للمسلمين وذلك يؤثر فى ضعف مورد من موارد الدولة إلا أن المسلمين يشعرون أن إسلام أى فرد وهدايته إلى الدين الحق هو خير من الجزية التى تؤخذ منه نتيجة لبقائه على دينه السابق . وقد أدى هذا التسامح وتلك المعاملة الطيبة إلى ضعف سلطان الكنيسة المتجبر الذى كان يتحكم فى رقاب الضعفاء من أهل الأندلس وحمل الكثير من أبناء الأندلس على اعتناقهم للإسلام عن حب واقتناع خاصة وقد لمسوا آثاره فى شتى مجالات حياتهم .

كما نتج عن الفتح قيام إدارة حكيمة مكنت كل فرد من الحصول على نتاج كده وعرقه وعلى أن يحصل على المنصب أو العمل الذى يتناسب معه بدون ظلم أو محاباة .

(هـ) التقسيم الإدارى :

وقد قسمت البلاد إداريا فى البداية إلى أربع ولايات كبيرة يعين لكل واحدة حاكم مسئول أمام والى الأندلس عن إدارة شئون ولايته ،

أما الوالى العام للأندلس فكان تعيينه فى البداية من قبل والى أفريقية .

وتشمل الولاية الأولى : الأراضى الواقعة بين البحر ونهر الوادى الكبير وما يلى هذا النهر إلى وادى بانا وأهم مدنها قرطبة وجيان وأشبيلية ومالطة .

وتشمل الولاية الثانية : أسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقا إلى حدود لوزيتانيا (البرتغال الحالية) غربا وتمتد حتى نهر دورو فى الشمال وأهم مدنها : طليطلة وتونقا وسيقوبيا ووادى الحجارة وبلنسية ودانية وقراطاجنة ومرسيه ولا رقة .

وتشمل الولاية الثالثة : جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) وأهم مدنها : ماردة ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلمنقة ، وغيرها .

وتشمل الولاية الرابعة : المنطقة الممتدة من شاطىء الدورو إلى جبال البرنية على شفتى نهر الأبرو وأهم مدنها : سرقسطة وطرطوشة وتواغنة وبرشلونة وتطيلة وبلد الوليد ، ووشقة وغيرها

وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية أنشئت ولاية خاصة شمال جبال البرنية وتشمل أربونة ، ونيم وقرقشونة وبزييه وأجدة ولوديف[1] .

(و) الوضع الاجتماعى :

وإذا انتقلنا من ذلك إلى العلاقات الاجتماعية أو صلات المصاهرة

(١) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١١٩ ، ١٢٠ ، دولة الإسلام فى الأندلس ص ٦٩ .

فإننا نجد الفتح الإسلامى للأندلس قد حقق أثرا كبيرا نتيجة لاختلاط الفاتحين بسكان البلاد .

فى معظم الأحوال : إننا نجد الجيش الغالب أو الفاتح يستعلى على الشعب المغلوب ، وذلك يجعل كلا منهما منكمشا عن الآخر ومتباعدا عنه ، ولكننا إذا عرفنا أن الغرض من الفتح هو نشر الدين والهداية الإسلامية وعرفنا أن من أسس هذا الدين : المساواة بين الناس جميعا :

« الناس سواسية كأسنان المشط » .

« لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وضح لنا انعدام التعالى المصطنع من المسلمين على غيرهم من الشعوب التى فتحوها واستولوا عليها ولذلك نجد المسلمين يختلطون بغيرهم من الشعوب التى استولوا عليها بالزواج والمصاهرة . وذلك خير دليل على نفى تعالى المسلمين على غيرهم ، وقد كان ذلك كسبا لهم مكنهم من نشر دينهم ولغتهم ومكن غيرهم من معرفة رسالتهم وهدفهم عن قرب ومخالطة فعلية .

كما كان لذلك أثره فى إزالة النفرة بين الغالبين والمغلوبين وإذا أضفنا إلى ذلك المكاسب الأخرى التى حققها المسلمون للطبقات الكادحة التى كانت مستعبدة أو شبه مستعبدة تبين لنا التغيير الكبير والنتائج العظمى التى أسبغها الفتح الإسلامى على الأندلس . بحيث يحق لنا أن نقول : إنه قد نتج عن هذا الفتح التحول فى الوضع السياسى والاقتصادى والعسكرى والإدارى والدينى والأسرى — وتغيير شامل فى الوضع الاجتماعى جعل الفرد — سواء كان من النبلاء والحكام والقسس سابقا أو من الصناع

والتجار وصغار الملاك والعبيد وأشباه العبيد — يشعر بقيمته وبقيمة غيره وبحريته وكرامته فقد أثار الفتح الإسلامى العقول بما يحمل من قيم إسلامية إنسانية وحضارة سامية وفتح العيون بمبادئه التى تشرع حقيقة الحياة (الدنيا والآخرة) ووضح أحقية كل إنسان فى الحصول على جزاء كده وعرقه وفى الحياة الحرة الكريمة .

وبذلك كان الفتح الإسلامى للأندلس بشير خير وبركة عليها وانتشالا لها مما كانت تردى فيه من الذل والهوان وانتهاك كرامة الإنسان ، ولسنا نحن المسلمين الذين نقول ذلك حتى يقال أننا نتعصب لأنفسنا ، وإنما يقوله المنصفون وأشباه المنصفين من المؤرخين والكتاب الغربيين .

وإليك طائفة من أقوالهم .

يقول العلامة المستشرق دوزى : « لم يكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحدا فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة — إذا لم تكن مغرقة فى الدين — تشجع بإسلام النصارى إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيرا . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل . بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج وانقضى القرن الثامن كله فى سكينة — وقلما نشب ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيرا من التذمر وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤ م فى قرطبة والتى تنسب لايزيدور الباجى فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين يبدى نحو المسلمين من العطف مالم يبده أى كاتب أسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر . » ثم يقول عن آثار

الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون . وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى . ووزعت الأرض توزيعا كبيرا فكان ذلك حسنة سابغة وعاملا فى ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي . ثم كان الفتح عاملا فى تحسين أحوال الطبقات المستعبدة إذ كان الإسلام أكثر تعضيدا لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية وكذلك حسنت أحوال أرقاء الضياع إذا غدوا من الزراع تقريبا وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية(١) .

ويقول الأستاذ ستانلى لين بول « أما التسامح الديني فلم يدع للأسبانيين سببا للشكوى فقد تركهم يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدهم أو يلزمهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود . . . وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد واعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الأفرنج أو القوط . . . وأسطع الأدلة على رضا المسيحيين من حكامهم الجدد أن ثورة دينية واحدة لم تحدث خلال القرن الثامن .

أما المستشرق الأسبانى جاينجر س فيقول : « لقد سطعت فى أسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية جمعت الجذور الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء وحفظت بعناية وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة

---

(١) قصة العرب فى أسبانيا ترجمة على الجارم ص ٣٩ ، ٤٠ .

وأنفعها »(١) .

ويتحدث المؤرخ الأمريكي سكوت عن عظمة فتح المسلمين الأندلس وسرعته وثباته وحمايته للناس ويدحض الدعاوى الكاذبة فيقول :

« في أقل من أربعة عشر شهرا قضى على مملكة القوط قضاء تاما وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنية ، ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح . وقد كان المظنون في البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائما فلما استقرت الجماعات المستعمرة . وفتحت الثغور لتجارة الشرق وأقيمت المساجد أدرك القوط الخطب الذي نزل بهم ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح الملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة والأحبار يزاولون نشاطهم في سلام أما أقوال الكتاب النصارى الذين ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب فهي محض مبالغه وافتراء(٢) .

أما المستشرق سيمونيت وهو من أشد العلماء الأسبان تحاملا على على المسلمين فيقول : « أنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الأسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالتشريع فإنهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتيه بقوانين الكنيسة الاسبانية القديمة واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون

---

(١) نقلا عن دولة الاسلام لعنان ص ٦٣

(٢) المرجع السابق ص ٦٤

التقاضى يخضعون لها فى كل ماله علاقة بحكومتهم وهى حكومة لمدنية محلية ، ومالم يكن يتعارض مع القوانين والسياسيه الإسلامية[١]

ويذكر العلامة التامبرا « أن أغلبية الشعب الأسبانى الرومانى والقوطى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائهم » وهم الأقماط ، أو السكونتات ، وقضاتها وأساقفتها وكنائسها وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى والمحكومين الضرائب الشرعية .

ويقول المستشرق كارديناس : « أن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل فى أنه خلال العصور الأولى من الحكم الاسلامى كان الشعبان المسلمون والمستعربون (النصارى) يعيشان جنبا إلى جنب عيشة حرة ، واستطاع المستعربون فى ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم وأحيانا بأساقفتهم وكونتاتهم وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التى كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها[٢] » .

ويكفى أقوال هؤلاء العلماء فى الإبانة عن بعض الجوانب المضيئة التى نتجت عن الفتح الإسلامى للأندلس والفضل ماشهدت به الأعداء .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة السابقة .

الفصل الخامس

الأندلس فى عهد الولاة

لقد تولى أمارة الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن الداخل حوالى عشرين أميرا فى فترة قاربت نصف قرن من الزمن وكان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . وقد مكث بعضهم فى الإمارة عدة أشهر ومكث بعضهم بضع سنوات . وليس المهم هو معرفة أسماء هؤلاء الأمراء ومدة حكمهم وإنما المهم معرفة الأعمال المهمة التى حدثت فى عهدهم ، والنتائج التى ترتبت عليها ومدى تأثير هذه الأعمال فى ثبات أقدام المسلمين وقوتهم أو فى ضعفهم وتمزيق شملهم . ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع بعض وبين العرب والبربر . وأخيرا محاوله التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامى فى أوربا والنتائج التى ترتبت عليه .

عبد العزيز بن موسى بن نصير :

وكان أول الولاة بعد الفتح عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل توجهه إلى المشرق وجعل أشبيلية مقرا لولايته وقد قام عبد العزيز بأعمال جليلة ثبتت أقدام المسلمين فى الأندلس وعبر عنها الرازى بأنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مدائن كثيرة وكان من خير الولاة إلا أن مدته لم تطل لوثوب الجند عليه وقتلهم له لأشياء نقموها عليه . وقد مكث فى ولايته سنة وعشرة أشهر[1]

والرازى هنا يجمل سبب قتل عبد العزيز أشياء نقمها عليه الجند . بينما

---

(١) ابن عذارى عن الرازى ح ٢ ص ٢٤ .

يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بعد أن تزوج ابنة لذريق ملك الأندلس الذى قتله طارق طلبت منه أن يعظمه الناس ويسجدون له كما كانوا يفعلون مع أبيها . وعند ذلك جعل نقبا قصيرا فى باب الحجرة التى يدخل عليه فيها الناس حتى ينحنوا له أثناء دخولهم وبلغ الناس أنه إنما نقب الباب لهذا الغرض ، وزعم بعض الناس أن امرأته نصرته(١) فكان سبب قتله . وابن عذارى يروى عن الواقدى أنه قتل لأنه خلع طاعة سليمان بن عبد الملك(٢) وابن قتيبة الدينورى يورد قصة طويلة عن تدبير الخليفة لأجل اغتيال عبد العزيز بن موسى عندما بلغه أنه هم بخلع سليمان والاستقلال بالبلاد (وأنه انتدب لذلك رجالا من أفريقية وأعطاهم كتابا بالولاية لمن يقتله . ألخ(٣) . وسياق الرواية يدل على أنها موضوعة ، فإن الخليفة لم يصل به الحمق والعجز إلى هـــذه الدرجة . فقد كان من الممكن أن يطلب إلى عبد العزيز الشخوص إلى دمشق مثل أبيه من قبل . وله أن يرسل خطابا بعزله فإن أبى كان الطرد والحبس وكان للخليفة حجة قوية فى تصرفه ، أما ما تذكره هذه الرواية فشبهة الوضع فيها ظاهرة

وقد يكون السبب فى اغتياله أنه أساء التصرف وقسى فى المعاملة مع بعض الجند وأن الذين اغتالوه كانوا يريدون الاستيلاء على الإمارة مما جعلهم يغتالونه أثناء صلاة الصبح وعندما أصبح الناس أعظموا ماحدث وأخرج قتلته كتابا بأن سليمان أمرهم بذلك فلم يقبله أهل الأندلس(٤) لعلمهم أن هذا الكتاب متقول على سليمان لأنه لا يأمر بمثل ذلك .

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤

(٣) أنظر الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٩٥ ، ٩٦

(٤) نفس المرجع ص ٩٧

ولذلك يقول صاحب أخبار مجموعة : « أنه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على أفريقية بأن يتشدد فى قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبى عبيدة وزيادة ابن النابغة اللذين قتلاه وأن يقفلهما إليه مع من شاركهما فى قتله من وجوه الناس »(١)

ومما يدل على أن سليمان لم يأمر بقتل عبد العزيز أن الناس لم يرضوا عن قتله كذلك اختيارهم لأيوب بن حبيب ابن أخت موسى بن نصير واليا على الأندلس فمكث واليا عليها ستة أشهر حيث خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفى واليا عليها من قبل محمد بن يزيد والى أفريقية فقدم الأندلس أواخر سنة ٩٧ هـ فى جماعة من وجوه أفريقية فنظم أمورها ونقل عاصمة الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة(٢) . ويذكر المؤرخ كوندى الأسبانيولى أن الحر الثقفى هو الذى تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحى أربونة وسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقد أدى توجيه الجهود إلى بلاد الأفرنج إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية التى يتزعمها بلاى المعتصم فى جبال استوريا حيث جمع بقايا حزب المقاومة وثار به فى تلك النواحى مما اضطر الحر الثقفى إلى أن يعود أدراجه ليقمع هؤلاء الثائرين(٣) . وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز وولى على الأندلس السمح بن مالك الخولانى الذى وجه جهوده إلى الاستيلاء على جنوب فرنسا .

---

(١) أخبار مجموعة نقلا عن تاريخ غزوات العرب لارسلان ص ٤٧

(٢) ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٥ وقيل نقلت إلى قرطبة فى أيام أيوب ابن حبيب .

(٣) عن تاريخ غزوات العرب لارسلان ص ٤٨ .

السمح بن مالك الخولانى :

وقبل أن نتحدث عن تحرك المسلمين فى تلك الأماكن بقيادة السمح بن مالك الخولانى يجدر بنا أن نعرف الوضع الذى كان سائدا فى تلك البلاد حيث نجد أن فرنسا أو الأرض الكبيرة كما يسميها العرب كانت تسمى فى التاريخ الرومانى « غاليا أوغاليس » وبعد أن سقط عنها حكم الدولة الرومانية توزعت فرنسا قوى مختلفة فكانت سبتمانية[1] تابعة للقوط الغربيين أما أكيتانيا (أكوتين) وهو الجزء الذى يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرانس جنوبا فكان دوقية مستقلة . وكذلك إقليم بروفانس الواقع شرق إقليم سبتمانيا وإقليم برجنديا الواقع شرقى نهر الرون . فإذا مانظر إلى شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية فإننا نجد مملكة تسمى مملكة الفرنجية (الميروفنجية) ومن ذلك يتبين لنا أن فرنسا لم تكن تحت حكم دولة واحدة ذات سلطة مركزية وإنما كانت مجزأة إلى مقاطعات[2] عدة عندما وجه المسلمون نشاطهم نحو الاستيلاء عليها .

وكان القائد الذى وجه جهده إلى مد نشاط المسلمين إلى جنوب فرنسا هو السمح بن مالك الخولانى الذى ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس وأمره « أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق وأن يخمس ماغلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها »[3] .

---

(١) سبتمانيا : تشمل المدن السبع : أربونة ، وقرقشونة ، واجدة ، ديزبيه ، ولوديف ، ونيمة وماجوبيلون .

(٢) أنظر المجمل للعبادى ص ٥٥ ، عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص ٧٦ - ٧٩ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٦

وقد أراد عمر بتولية السمح عليها أن يجعلها ولاية مستقلة تابعة لمقر الخلافة مثل ولاية أفريقية ومصر . وذلك اهتماما بشأنها ولكى يبذل واليها جهده عندما يشعر بتبعيته مباشرة لمقر الخلافة مما يحمله على بذل الجهد فى الاعتناء بولايته لعدم تبعيته لوال آخر يعزله بل يتبع الخليفة رأسا إلا أننا لانجد هذا الأمر يستمر بعد ذلك بل نجد والى أفريقية هو الذى يسند الإمارة إلى والى الأندلس محتفظا بتبعية الأندلس لوالى أفريقية ماعدا ولاية يحيى بن سلمة الكلبى الذى قدم الأندلس واليا من عند أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فى آخر سنة ١٠٩ هـ[1] .

ويذكر ابن عذارى أن عمر بن عبد العزيز كان رأيه « نقل المسلمين من الأندلس وإخراجهم منها لانقطاعها عن المسلمين وإتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له : أن الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها فعدل عن رأيه ذلك ،»[2] ولعله كان يخاف على المسلمين هناك لتصوره أنهم أقلية قد يتمكن الكفار لكثرتهم من التغلب عليهم وطردهم أو قتلهم فلما وضح له كثرة الناس واستقرارهم بها أعرض عن رأيه ولذلك طلب من واليه أن يكتب له بصفة الأندلس وأنهارها حتى يزيد اطمئنانه إلى وضع المسلمين فيها . وقد يقال غير ذلك من الآراء فى تعليل رأى عمر بن عبد العزيز[3] فى نقل المسلمين من الأندلس .

وكل ذلك واضح وصريح فى أن عمر يريد نقل المسلمين من الأندلس

---

(١) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦

(٣) نفس المرجع السابق ، ومع المسلمين فى الأندلس على حبيبة ص ١٠١ ، ١٠٢

غير أننا نجد الأمير شكيب أرسلان ينقل عن كرينو « أن عمر بن عبد العزيز كان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطرا على مستقبل المسلمين ففكر فى إجلاء مسيحى أسبانية وجنوبى فرنسا إلى أفريقية حيث لايكون من وجودهم تهلكة على الدولة إلا أن السمح طمأن مخاوف الخليفة قائلا له : أن الإسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة فى أسبانية وأنه لايبعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد[1] وهذا الرأى فى نقل مسيحى أسبانية وجنوبى فرنسا إلى أفريقية لانجد له أصلا فى المراجع العربية ولسنا ندرى من أين أتى به رينوا ؟

ومبلغ علمى أنه لم يسبق فى تاريخ المسلمين أن أجلى قوم من ديارهم لكثرة عددهم بالنسبة لعدد المسلمين الفاتحين . وأنه لم يجل عن دياره سوى اليهود عندما حملوا على ترك الجزيرة العربية لا لكثرة عددهم وإنما لإثارتهم الفتن والدسائس والقلاقل ضد المسلمين (٢)

قدم السمح بن مالك إلى الأندلس واليا عليها من قبل عمر بن عبد العزيز فى رمضان سنة مائة هجرية بعد اختبار عملى له من عمر ثبت فيه صلاحه وفضله[3] ، فقام بعدة إصلاحات داخلية دلت على حنكته الإدارية

(١) شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ٥٢

(٢) الطبقات لابن سعد ٢/ ٨٣

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة فى ذلك : أن الخلفاء (أى من بنى أمية فى ذلك الوقت) كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله إلا هو مافيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه فأتى وفد أفريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغرا فكان

ودرايته السياسية وتمكن بها من نشر الأمن والنظام فى ربوع البلاد فقد قام بإرشاد من الخليفة بإحصاء الأجناس والمذاهب التى كانت تقطن البلاد ، وبمسح لمدن الأندلس وجبالها وأنهارها وبحارها ، مع بيان طبيعة الأرض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل وحدد خراجها بنسبة الخمس . واهتم بإزالة الخلافات والفتن المنتشرة بين الناس ووجه جهدا صادقا لإصلاح الجيش وإدارته وجعله على درجة عالية من الكفاءة لخوض غمار الحروب ، وبث فيه من روحه الممتلئة بالإيمان وحب الجهاد .

ولم يهمل السمح الناحية المعمارية فشيد مسجدا جامعا فى سرقسطة . واعتنى بالعاصمة قرطبة التى تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير . وفى البطحاء المعروفة بالربض خصص مقبرة للمسلمين ومعظم ذلك بتوجيه من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز(١) .

وبعد أن اطمأن السمح إلى استقرار الأمور فى الأندلس داخليا وإلى استعداد الجيش لخوض غمار الحرب . توجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس فهزم عصاة المسيحيين وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية فى الأستورياس(٢) . ثم زحف على سبتمانيا مخترقا جبال البرنية من الجهة

= ما فضل بعد أعطيات الجند وفرائض الناس ينقل إلى الخليفة . فلما وفدوا بخراج أفريقيه فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا خلف الثمانية ونكل اسماعيل بن عبيد الله مولى بنى مخزوم ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولانى . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما إلى نفسه فاختبر منهما صلاحا وفضلا . نقلا عن شكيب أرسلان غزوات العرب ص ٥٦ .

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٦ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٣١ ، المجمل للعبادى ص ٥٤ ، دولة الاسلام ص ٧٤

(٢) مختصر تاريخ العرب ص ١٣٢

الشرقية وتمكن من استعادة أربونة وقرقشونة ومعظم المدن والحصون التابعة لاقليم سبتمانيا وقهر جميع القوى التي حاولت مقاومته أو الوقوف في وجهه ، ولاشك انه فقد بعض جنوده في الاستيلاء على تلك الحصون والمدن وترك بعضا آخر من الجنود لبسط الحماية الاسلامية على تلك البقاع ، ويذكر رينو أنه جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير (جوسل) بقرب بيزيه ودير القديس « بوزيل » « بقرب » « نيم » ودير صنجيل بقرب « آل » ، والدير المشهور بالدروة المسمى بدير القواتيل بقرب آغيتمورت . . فدم العرب هذه الأديار كلها بغتة منحدرين عليها انحدار العقبان بحيث لم يقدر الرهبان الذين فيها أن يخلصوا نجيا برقابهم وببعض ذخائر القديسين التي كانت عندهم .

وما نظن أن ذلك قد حدث الا إذا كان الرهبان وعصابات معهم قد قاومت المسلمين وقاتلتهم فاستولوا على هذه الأديار عنوة . . ورأى المسلمون هدمها حتى لايتخذها الاهالى معاقل لمقاومة المسلمين مرة أخرى ، ولو كان الرهبان سلموا بدون مقاومة ماحدث لهم ذلك وما استولوا المسلمون على ذخائرهم أو أملاكهم أو أصابوهم في أرواحهم بسوء . ولذلك نجد رينو يعود فيعترف بذلك حين يقول « وكان هؤلاء (يعنى المسلمين) لايسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال . (١)

وبعد أن انتهى السمح من الاستيلاء على اقليم سبتمانيا الذى كان تابعا للقوط الغربيين . وبعد أن حصن أربونة عاصمة سبتمانيا وعزز حاميتها لوقوعها على البحر توجه ببقية جنوده إلى الغرب نحو مجرى الجارون باسطا سلطان المسلمين على كل المدن والحصون التي في طريقه حتى وصل إلى

(١) غزوات العرب في فرنسا لارسلان ص ٧٢ ، ٧٣ .

طولوشه (تولوز) عاصمة أقليم أكوتين ، الذى استقل به الدوق اودو ، وضرب السمح عليها الحصار ولكن قبل أن يتمكن من فتحها قصده الدوق أودو بجيش عظيم يبلغ عشرة أمثال الجيش الذى مع السمح فالتقى الجمعان بظاهر طرلوشه فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٠٢ هـ / ٩ يونيو سنة ٧٢١ م ودارت معركة رهيبة بين جيشين غير متكافئين غير أن المسلمين أظهروا من ضروب الشجاعة والنجدة مثلا نادرة وصمموا على الانتصار أو الاستشهاد وقد رجحت كفه كل فريق حينا بعد حين غير أن السمح أصابه رمح فى رقبته خر على أثره صريعا فى أرض المعركة فأثر ذلك فى نفوس المسلمين الذين أرهقهم طول النضال مع كثرة جيش عدوهم وحسن استعداده فاضطرب جيش المسلمين واختل نظامه ، ولكن الجيش الاسلامى أختار عبدالرحمن الغافقى لتولى القيادة العامة ، فتمكن عبد الرحمن من الانسحاب بالجيش من المأزق الذى أحاط به بمهارة نادرة منعت عدوه من إلحاق الهزيمة به حتى وصل إلى أربونة التى صارت قاعدة للمسلمين فى الشمال فثبت أقدام المسلمين فيها وظل يدير شئون الاندلس إلى أن قدم عنبسة بن سحيم الكلبى واليا على الأندلس من قبل بشر بن صفوان والى افريقية ، حيث عادت الاندلس ثانيا تابعة لأفريقية فى عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك .(١)

عنبسة بن سحيم الكلبى :

تولى عنبسة بن سحيم قيادة الاندلس فى صفر سنة ١٠٣ هـ وسار على سنة سلفه فى العناية بالأمور الداخلية فى الولاية أولا فنظم الخراج، وقسم الأراضى بين المسلمين بدون جور على الأراضى التى لها ملاك أصليون من الاهالى ، وكان يأخذ العشر من الذين خضعوا للمسلمين بدون قتال والخمس من لم

---

(١) أنظر : مختصر تاريخ العرب ص ١٣٢ ، المجمل فى تاريخ الاندلس ص ٥٥ ، دولة الاسلام فى الاندلس ص ٧٣ - ٧٤ .

يخضعوا الا بالسيف ، وطاف عنبسة فى مختلف المقاطعات ينظر فى مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفى الأديان

وقد انتقض عليه أهالى طرسونة فزحف اليهم وتمكن من احباط ثورتهم ودك حصونهم واقتص من زعمائهم وبذلك استقرت أحوال البلاد داخليا واستتب فيها الأمن والنظام والعدل ، وقد قضى فى سبيل تحقيق ذلك قرابة عامين[١].

وفى سنة ١٠٥ هـ ولى وجه شطر فرنسا بجيش من خيرة المقاتلين أهل النية فى الجهاد والحسبة فى الثواب أعده لمتابعة الجهاد فاخترق جبال البرنية واسترد معاقل المسلمين التى فقدوها بعد هزيمة طلوشة واستولى على قرقشونة ونيمة وغيرهما من الأماكن المهمة وخافته جاليات القوط المجاوره فتحالفوا معه وتركوا محالفة الأفرنج ولذلك يذكر رينو أن انتصارات عنبسة تعود إلى اللباقة وحسن الادارة أكثرها مما تعود إلى القوة ، كما أن جهوده التى بذلها لاكتساب ثقة الأهلين قد قوت من مركز العرب فى جنوب فرنسا (٢)

وقد عامل عنبسة الأسرى الذين أسرهم من المدن الفرنسية معاملة حسنة وأرسلهم إلى برشلونة فساعد ذلك على ايجاد روابط الود بين المسلمين وأهالى الأندلس .

وقد تابع عنبسة سيره على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون ، وبذلك استولى على إقليم بروفنس ثم تابع السير مع النهر شمالا فاستولى على ليون ووصل إلى أوتون فى أعالى نهر الرون ، وغزا مدينة سانس ، وقويت شوكة المسلمين فى جنوب فرنسا حتى أن أودو دوق أكوتين خشى أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى فطلب مفاوضتها ومهادنتهم وقد نسب ايزودور الباجى

(١) تاريخ غزوات العرب لارسلان ص ٨٥ .

(٢) انظر ـ البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٧ مختصر تاريخ العرب ص ١٤٦ دولة الاسلام بها الاندلس ص ٨١ .

وهذا النجاح إلى شخصية عنبسة فقال : كان نجاح عنبسة راجعا إلى الجرأة والبراعة أكثر منه إلى القوة والكثرة ، وكان لينه حسن معاملته للسكان عاملا فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوب فرنسا .

والحقيقة أن هذا هو طبيعة المد الإسلامى وصفة الجيش الإسلامى عند ما يجد القائد الملتزم بأحكام الإسلام .

وقد أدى توغل عنبسة فى هذه المساحات الشاسعة فى فرنسا بما يفوق قوة جيشه الذى تناقص عدده فى القتال ويترك بعض الحاميات خلفه ، إلى أن يتعرض أثناء عودته إلى الجنوب مع من بقى من جيشه بجموع كبيرة من الأعداء . تربصت له وقامت بينه وبينها معركة حامية قاتل المسلمون فيها قتالا شديدا ، إلا أنهم فقدوا قائدهم عنبسة فى شعبان سنة ١٠٧ هـ فاضطرب الجيش وانسحبت فلوله إلى أربونة وفقد المسلمون المدن والحصون التى استولوا عليها(١) .

وكما هى عادة المؤرخين الغربيين تجدهم أن كل انتصار للمسلمين فى أى مكان يحاولون أن يصفوا المسلمين بالقسوة والعنف والهمجية فى حروبهم وبارتكاب فظائع يشيب لهولها الولدان ولا تليق بالإنسانية ولا بالسماحة الإسلامية ، وذلك أثناء تغلبهم على الأماكن التى استولوا عليها (٢) .

ولا شك أن هذه الدعاوى الكاذبة لا أساس لها من الصحة بالنسبة إلى المسلمين الذين لهم مثلهم العليا وأهدافهم السامية فى حروبهم ودوافعهم النبيلة إلى هذه الفتوح . وإنما يريد المؤرخون الغربيون بذكر هذه الفظائع تلطيخ

---

(١) أنظر ذلك : مختصر تاريخ العرب ص ١٤٦ ، المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٥٦ ، دولة الاسلام فى الأندلس ص ٨١ .

(٢) أنظر تلك الأوصاف فى تاريخ غزوات العرب فى فرنسا لارسلان ، ص ٧٣-٨٠

تاريخ المسلمين وتشويه حقائقه الناصعة . وإذا حدث أن ارتكب واحد من الجنود الذين لم يتعمق سلوك الحرب الإسلامية وتعاليمها فى نفوسهم شيئا من هذه الفظائع فإنه كان يؤاخذ عليه بصرامة حتى يكون ذلك زاجرا لغيره عند ارتكاب مثل هذه الأفعال .

والحقيقة التى لا مرية فيها أن هذه الأعمال الهمجية التى أطنب فى ذكرها هؤلاء المؤرخون لم تقع من المسلمين وإنما ارتكبها البربر البثنيون الذين كانوا لا يزالون غائصين فى لجج الوثنية والقادمين من شمال شرق أوربا ولذلك قال رينو بعد أن أورد الأوصاف البشعة التى ذكرها هؤلاء المؤرخون : « إلا أنه يعترضنا فى هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات من السرازين[١] » ، ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك بل كان المؤرخون يشيرون إليهم بقولهم « وندال » ، وطالما كانوا يطلقون هذا الأسم فى النصف الأول من القرن العاشر على المجيار عندما جاء هؤلاء إلى ألمانيا ودخلوا إلى فرنسا واكتسحوا « الالزاس » و « واللورين » « فرانش كونتى » و « برغونيا » و « شمبانيا » وغيرها[٢] .

ومن العجيب أن يذكر رينو أن المسلمين عندما قدموا إلى فرنسا وتغلغلوا فى أحشاء البلاد لم يكن لهم خطة مرسومة معينة فى مغازيهم ومراميهم وأنهم لم يجدوا فى البداية من أهل فرنسا إلا مقاومة واهية وعزما مشتتا . والحقيقة أن المسلمين كانت أهدافهم واضحه وهى بسط سلطانهم على شمال البحر المتوسط مثل مافعلوا فى جنوبه وأن خطتهم كانت متابعة

(١) السرازين : لقب المسلمين عند الأفرنج فى ذلك الوقت .

(٢) تاريخ غزوات العرب فى فرنسا لارسلان صـ ٨٠

الاغارة مرة بعد مرة كما حدث فى أفريقية ولولا الأحداث التى جرت فى فى داخل الدولة الاسلامية لتحقق لهم فى شمال البحر المتوسط مثل ماتحقق لهم فى جنوبه .

وكذلك فقد لقى المسلمون فى هذه الغزوات المتكررة مقاومة قوية وتجمعات كبيرة وما حدث انسحاب أو استشهاد لقائد من قواد الفتح إلا فى معركة كان تعداد جيش الفرنج يفوق جيش المسلمين بمرات كثيرة وإن كان المؤرخون العرب لم يذكروا لنا تعداد جيوش المسلمين أو جيش أعدائهم ولم يذكروا لنا ماقدم المسلمون من الشهداء فى هذه الغزوات المتتابعه ومافقد أعداؤهم من القتلى والأسرى خلال مقاومتهم لتقدم المسلمين فى اراضيهم .

ومهما يكن من أمر فقد انسحب الجيش الاسلامى بعد استشهاد عنبسة إلى أربونة بقيادة عذرة بن عبدالله الفهرى وتوقفت تلك الغزوات إلى أن تولى الهيثم بن عبيد الكنانى الأندلس سنة ١١١ هـ فاستأنف الفتوح فى فرنسا . وقد تولى الامارة فى الأندلس بعد استشهاد عنبسة إلى ولاية الهيثم ثلاث ولاة : يحى بن سلمة الكلبى سنة ١٠٧ هـ من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك وحذيفة بن الأحوص الأشجعى سنة ١١٠ هـ ، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى سنة ١١٠ هـ ومن قبل والى أفريقية .

وقد أدى تتابع الولاة مع قصر المدة لكل منهم إلى اضطراب فى إدارة الأندلس وإلى إيقاف الغزو مما شجع الأفرنج على مهاجمة المواقع الشمالية ومكن القوط المعتصمين فى شمال الأندلس من لم شملهم وتقوية صفوفهم وتنظيم قواتهم فاشتدت حركتهم داخل الهضاب النائية حول قائدهم بلاى الذى تمكن من وضع أسس لقيام الدولة النصرانيه فى الشمال .

وعندما تولى الهيثم بن عبيد الكنانى أمارة الأندلس بذل جهدا مشكورا

فى بث السكينة والأمن فى ربوع البلاد وتمكن من تدمير حصون القوط ومعاقلهم فى الشمال . وغزا منوسة(١) أو أرض مقوسة(٢) أو أرض مقرشة(٣) فافتتحها . ثم توجه إلى ماوراء البرنية حتى وادى الرون فاستولى على ليون ، وماسون ، وشالون ، وبون وأوتون . وصالحته بعض المدن الأخرى . وقد حدث خلاف بين قوى الجيش أدى إلى عودة الهيثم إلى الجنوب حيث توفى ولم يحتفظ المسلمون بهذه المدن وضاع الجهد الذى بذلوه سدى .

وتولى أمارة الأندلس بعد موت الهيثم محمد بن عبدالله الأشجعى ، وذلك لمدة شهرين حتى أسندت إلى عبدالرحمن بن عبدالله الغافقى إمارة الأندلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وإلى أفريقيه(٤) .

وقبل أن أتحدث عن أمارة الغافقى أحب إلقاء نظرة على مايذكره المؤرخون الغربيون ويورده سيد أمير على وعنان فى كتابيهما عن منوسة ومحاولته الاستقلال بالمنطقة الواقعة غربى البرنية ، ثم انشقاقه على المسلمين ومحاربة الهيثم له . فقدتردد المؤرخون فى بيان حقيقته : فمرة يقولون هو حاكم عربى ومرة : هو حاكم بربرى وأخرى : هو حاكم نصرانى ، ثم يذكرون مرة أنه من لامبجيا ابنة أودودوق أكوتين ومرة من أخت بلاجيوس زعيم جليقية القوطى . . . الخ . وأنه عقد معاهدة دفاع مع أودو وطلب من أمير

---

(١) رواية ابن عذارى ج ٢ ص ٢٨

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠

(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ٢ / ٢٨ ، مختصر تاريخ العرب ١٤٦ ، دولة الاسلام ص ٨٢ .

الأندلس المصادقة عليها. وكذلك يتحدثون عن أطماعه السياسية في الاستقلال ثم رغبة المصاهرة من فتاة بارعة الجمال. ويتخذون ذلك وسيلة لاستقلال الحاكم بما تحت يده فيأتي والى الأندلس ويكشف القناع ويقاتله ويقتله ويقضى على لامبجيا ويرسلها إلى دمشق.

ومع فرض صحة ما يذكرون فانى أميل إلى أن منوسة لم يكن عربيا ولا بربريا، وإنما كان نصرانيا أسند إليه المسلمون إدارة منطقة قرب البرنية ولا مانع من ذلك لأننا رأينا فى البداية أن المسلمين أسندوا إدارة بعض المدن إلى النصارى كما حدث فى طليطلة، ومن يدرى فلعله أيضا كان حاكما سابقا لتلك المنطقة وصالح المسلمين فتركوا له إدارة البلاد مثل تدمير، ثم نقض العهد أو أخل بالشروط فحاربه المسلمون وذلك لأن المصادر العربية لا تذكر سوى أن الهيثم غزا منوسة أو أرض مقوشة

أما قصة الحب والزواج والقبح والجمال التى يوردها المؤرخون الأفرنج فهى من الأمور التى تذكر لحبك القصة التى يراد اختراعها. لأننا لا نصدق انتقاض حاكم مسلم سواء كان عربيا أو بربريا فى ذلك الوقت المبكر لأن الظروف كانت لا تسمح له بالاستقلال فى منطقة مازالت ميدانا للغزو ولم تستقر فيها الأمور بعد. ثم لأن الجنود الذين تحت امرته لا يوافقوه على ذلك. فهو لا يملك القوة لتنفيذ هذا الاستقلال لا بالنسبة المسلمين لانشقاقه عليهم، ولا بالنسبة المسيحيين لأنه لا يضمن ولاءهم له بالمعاهدة التى عقدها معهم حسب زعمهم فوضعه مضطرب لا يسهل له عملية الاستقلال أو الانشقاق على المسلمين (١)

---

(١) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١٤٨، دولة الاسلام ص ٨٤ – ٨٨، أندلس العرب حبيب جاماتى ص ١٤.

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :

تولى عبد الرحمن الغافقي إمارة الأندلس فى صفر سنة ١١٢ هـ وكان يتسم بحسن الإدارة وسياسة الأمور بحكمة ، بجانب مهارته فى القيادة العسكرية وطموحه وآماله العريضة فى أن يأخذ بثأر من استشهد من المسلمين وقوادهم فى فرنسا وكان يأمل فى تحقيق ما عجزوا عنه بالاستيلاء على فرنسا .

وقد بدأ عبد الرحمن أعماله بالاصلاحات الداخلية فى الأندلس : فعمل على نشر العدل ورفع المظالم وقام بجولة فى ربوع الأندلس قضى فيها قرابة عامين وطاف خلالها بمعظم مدن الأندلس مستمعا إلى شكاوى الرعية وناظرا فى أمورهم ومحققا لمصالحهم ، فعزل كل من ثبت جوره من الحكام المحليين ومن أهمل أو أخل بواجباته وعين بدلا منهم رجالا اشتهروا بالعدالة والنزاهة وحسن السمعة .

وقد عامل عبد الرحمن المسلمين والمسيحيين واليهود على قدم المساواة بدون تمييز ، فأعاد للمسيحيين الكنائس التى انتزعت منهم وكان لهم الحق فيها وفقا للعهود ، كما نظم الادارة المالية وعاقب بشدة من أثار شغبـــا أو أحدث فتنة أضرت بالرعية وبذلك تمكن من توطيد الأمن ونشر السلام والاستقرار فى ربوع البلاد .

ومع اهتمام عبد الرحمن بالاصلاحات الادارية فقد عنى باعداد الجيش وحسن اختيار عناصره وقواده وتدريبهم وتنظيمهم وتعريفهم بالمهمة الكبرى التى ستلقى على عاتقهم وأثار فيهم روح التضحية والفداء وأعلن الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله فانضم إليه كثير من خيرة المقاتلين فى أفريقية والأندلس .

وبذلك تجمع لديه جيش كبير كان يأمل أن يحقق به ما عجز عن تحقيقه الولاة قبله وأن يبسط سيادة المسلمين على فرنسا .

وفى بداية سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م تحرك ذلك الجيش الضخم بقيادة عبد الرحمن مخترقاً البرنية عن طريق بنبلونة ودخل فرنسا متجهاً شرقاً إلى مدينة آرل الواقعة على نهر الرون لامتناعها عن أداء الجزية ودارت على شواطىء الرون معركة شديدة تغلب فيها المسلمون واستولوا على المدينة وزحف عبد الرحمن بعد ذلك نحو الغرب وعبر نهر الجارون منقضاً على ولاية أكوتين التى تصدى للدفاع عنها الدوق أود وبجيش كبير فدارت معركة عنيفة بينه وبين المسلمين فى مضيق دوردون هزم فيها الدوق ومزق جيشه شر ممزق ، وتمكن الدوق من الفرار ببعض رجاله إلى الشمال وبهذا بسط المسلمون سلطانهم على ولاية أكوتين كلها .

ثم عاد الجيش الاسلامى ثانيا نحو الشرق مخترقاً برجونية واستولى على ليون وبيزانصون وصانص التى تبعد قرابة مائة ميل من باريس،وبذلك تم للمسلمين الاستيلاء على النصف الجنوبى لفرنسا كله من الشرق إلى الغرب ولم يبق إلا الاتجاه نحو عاصمة الفرنج .

وقد تم هذا فى أشهر قليلة . وترك عبد الرحمن فى المدن التى استولى عليها حاميات قوية من جيشه للاحتفاظ بسلطان أن المسلمين فيها . ولكن حرصه على قوة هذه الحاميات مع كثرتها قد أدى إلى ضعف قوة الجيش الذى معه والذى اتجه به نحو عاصمة الفرنج حيث اللقاء مع شارل مارتيل معه والذى فى بلاط الشهداء .

موقعة بلاط الشهداء :

عندما هزم الدوق أوردوفى مضيق الدوردون وفقد كل أكوتين اتجه إلى شارل مارتيل — الذى كان أمير القصر فى دولة الفرنجة وكانت السلطة

الحقيقية لدولة الفرنج فى يده — وطلب منه العون والنجدة والوقوف معه فى صد هجوم المسلمين ومحاولة استرجاع اكوتين التى استولوا عليها منه فسارع شارل مارتيل إلى إجابته وسار بجيشه حتى التقى بالمسلمين فى موقعة بلاط الشهداء فى السهل بين تورو بواتييه.

ولاشك أن شارل مارتيل كان يعلم بتحركات المسلمين فى جنوب فرنسا ويعلم أنهم سوف يقصدون دولته بعد الاستيلاء على أكوتين فاستعد لذلك اللقاء وجمع جيشا كبيرا من فرنسا ومن القبائل المتوحشة فى حدود الدانوب والألب وقفار المانيا، ولكنه لم يتحرك للقاء المسلمين عندما وطئوا جنوب فرنسا ليلتقى بهم فى شمبانيا أو اكوتين وإنما ترك الجيش الإسلامى يذهب شرقا وغربا ويفتح المدن ويخوض المعارك ويترك الحاميات هنا وهناك ويفقد بعض الجنود فى المعارك المختلفة التى خاضها ضد أودو وكأنه يريد بذلك أن ينهك جيش المسلمين قبل اللقاء به وأن يحدد الزمان والمكان الذى يلتقى فيه بجيش المسلمين وكان يعد لهذا اللقاء فى سر وكتمان عجز جواسس عبد الرحمن عن اكتشافه حتى كان اللقاء الحاسم.

فما نظن أن شارل مارتيل استعد للوقوف فى وجه المسلمين عندما استنجد به أودو وإنما كان يستعد لهذا اللقاء من قبل. وبقى يتخير الزمان والمكان المناسبين هذا ما يذكره الحجارى فى المسهب « فاجتمعت الأفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة، وهذه سمة لملكهم، فقالت له. ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم. فقال لهم ما معناه: الرأى عندى أن لانعترضهم فى خرجتهم فانهم كالسيل يحمل من يصادفه وهم فى إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع

ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا على الرياسه ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر [١]، وكان ذلك مما أعطى لجيش الفرنجة شيئا من الثبات أمام المسلمين وأمر آخر ثبت جيش الفرنجة فى وجه المسلمين وهو أنه لم يشعر بالتعب والإرهاق من القتال وطول التطواف قبل هذه المعركة مثل الجيش الاسلامى.

ولم يكن بينهم — أى بين جيش شارل — عبد يحارب فى صفوف سادته المقهورين بل كانوا اخوانا أبطالا ملتفين حول رئيس يعدهم أقرانا له [٢] فامتازوا بذلك عن جيش لذريق الذى التقى به المسلمون بقيادة طارق قبل ذلك فى موقعة شريش كان هذا هو وضع جيش الفرنجة قبل خوض هذه المعركة الفاصلة.

أما جيش المسلمين فكان قد انتهى من الاستيلاء على مدينتى بواتييه وتور، وعندما أراد عبد الرحمن أن يعبر نهر اللوار كان جيش الفرنجة قد وصل إليه دون أن يشعر المسلمون بقدومه. وهنا رأى عبد الرحمن أن ينسحب بجيشه من شواطىء اللوار واستعد للمعركة فى السهل الواقع بين تور وبواتييه. وكان الجيش الإسلامى قد فقد بعض رجاله فى المعارك التى خاضها وترك بعضها فى الحاميات التى خلفها فى المدن، بالاضافة إلى أنه قد شعر ببعض الارهاق من الحروب التى خاضها فى الأشهر السابقة ومع ذلك فى يده كثير من الغنائم التى حصل عليها من حروبه السابقة ويحرص بعض الجنود عليها حرصا شديدا أو يرون وجوب المدافعة عنها بعد أن حصلوا عليها. بل كان بعض هؤلاء الجنود يفضلون عدم اللقاء بالعدو والانسحاب بالأسلاب التى فى أيديهم.

---

(١) عن نفح الطيب ج ١ ص ٥٧.

(٢) تاريخ العرب العام اسبديو ص ١٦٨.

وقد حاول عبد الرحمن أن يثنى هؤلاء الجنود عن التمسك بالأسلاب حتى لاتعوقهم فى خوض المعركة ولكن محاولته لم تحقق النجاح المطلوب فرأى أن يخوض المعركة قبل أن يحدث الانشقاق فى جيشه وبذل كل جهده وطاقته لحمل الجيش على القتال بصدق واخلاص . فلما ألتقى الجمعان وابتدأ المسلمون القتال فى أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين ، وفى اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخى الليل سدوله وتحاجز الجمعان ثم استؤنف القتال فى اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على الفرنج حتى كادوا أن يقطفوا ثمار النصر غير أن فرقة من الفرنج تمكنت من الوصول إلى المكان الذى فيه الغنائم وأشيع بين صفوف الجيش الإسلامى أن الغنائم سيستولى عليها العدو وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الامامية ليدافعوا عن الأسلاب ، مما أدى إلى خلل فى صفوف المسلمين وحاول عبد الرحمن جهده ليعيد النظام إلى صفوفهم وتقدم الصفوف يقودها ويجعل من نفسه سدا منيعا أمام الأعداء وهنا أصابة سهم من الأعداء ، فسقط شهيدا فى ميدان القتال واضطرب المسلمون لاستشهاد قائدهم وشدد الفرنج الحملة واغتنموا هذه الفرصة ، ألا أن المسلمين صمدوا فى ميدان القتال وثبتوا لأعدائهم يقاتلوهم حتى حجز الليل بين الجيشين وعاد كل جيش إلى مواقعه دون أن يحقق أحدهما النصر على الآخر وكان ذلك فى أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ .

كان على المسلمين أن يحددوا موقفهم بعد استشهاد قائدهم عبد الرحمن وهنا اختلف رأى القادة بين مواصلة القتال والانسحاب ، فمواصلة القتال قد تأتى بالنصر وقد تأتى بالهزيمة ، والانسحاب لاهزيمة فيه ولا نصر .

وبعد تداول الآراء استقر الرأى على الانسحاب ، فغادر المسلمون أماكنهم فى ظلام الليل متجهين إلى سبتمانيا مخلفين خيامهم وجرحاهم الذين لم يستطيعوا حملهم معهم .

ولاحظ جيش العدو فى الفجر الهدوء يسود معسكر المسلمين . فظن شارل وأود وأن فى الأمر خدعة فتقدمت فرق من معسكر الفرنج بحذر نحو معسكر المسلمين فتبين لهم خلو المعسكر من المقاتلين عدا بعض الجرحى فأجهزوا عليهم وفرح شارل بذلك ولم يتعقب المسلمين وإنما اكتفى بانسحابهم وعاد مسرعا بجيشه نحو الشمال . وقد سمى المسلمون المكان الذى دارت فيه المعركة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيه من عظماء الرجال مع عبد الرحمن .

منزلة هذه المعركة :

وقد أشاد المؤرخون الغربيون بهذه الموقعة وقالوا عنها أنها قد حمت أوربا من فتح المسلمين ، وأنها كانت السد المنيع الذى أوقف المد الإسلامى من أن ينتشر فى أوربا ، وأن جيش المسلمين قد مزق فيها شر ممزق ولذلك بالغوا فى عدد الشهداء من المسلمين حتى وصلوا بهم إلى أضعاف مضاعفة بالنسبة لعدد الجيش الأصلى ... الخ .

ولنا أن نقول : إذا كانت الحرب قد ظلت طوال هذه الأيام العشرة بدون أن تتحقق هزيمة أحد من الجانبين فإن المسلمين مساء اليوم العاشر الذى استشهد فيه عبد الرحمن — رغم استشهاد عبد الرحمن ورغم انسحاب عــــدد كبير من الجند لحماية مغانمهم — قد تمكنوا من الصمود فى المساء وكان من الممكن لهم أن يحققوا النصر وأن يصمدوا أمام شارل مارتيل إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا كان من الممكن أن يحدث ذلك إذا حاولوا أن يستفيدوا من الدرس الذى تلقوه نتيجة لانصراف بعضهم لحماية الغنائم وذلك بأن يسووا صفوفهم ويسقطوا الدفاع عن الغنائم من حسابهم .

إلا إذا كان ذلك حسب تخطيط حربى ثم يوجهوا كل طاقاتهم إلى قتال شارل وجيشه بعد أن يجمعوا على زعيم آخر يخلف عبدالرحمن ربما لو فعلوا ذلك لكان للمعركة وجه آخر غير هذه النتيجة التى انتهت اليها .

ولكن يبدو أن القائد لم يستشهد وحده انما استشهد معه عدد من كبار القود وأدى ذلك إلى عدم الاتفاق على رأى فى اختيار من يخلفه وكان الارهاق من الحروب التى خاضوها قبل المعركة والجهد الذى نالوه خلال المعركة بالاضافة إلى حرص بعض الجنود على المغانم التى فى قبضتهم وخوفهم من ضياعها . — إذا كانت الدائرة عليهم — من العوامل التى أدت إلى تغليب رأى القائلين بالانسحاب ، واضطر عند ذلك بقية الجند إلى تفضيل الانسحاب، من أرض المعركة حتى لا تكون هناك هزيمة محققة ، وحق عليهم القول : فازوا من الغنيمة بالاياب .

وإذا نظرنا بعين الحقيقه إلى انسحاب المسلمين من معركة بلاط الشهداء لوجدناه مثل انسحابهم من طولوشة منذ اثنتى عشرة سنة . وليس هناك فرق بينهما : فقد انسحب المسلمون عقب قتل القائد فى كلا المعركتين . غير أن الفرنجة فى الثانية كانوا أكثر عددا وتجمعوا من أماكن كثيرة ففى طولوشة كان المسلمون يقاتلون قائد دوقية أكوتين وحدها . بينما فى موقعة بلاط الشهداء كانت فرنسا وجيرانها ورئيس دوقية أكوتين — بالإضافة إلى تأييد بابا روما لهم مجتمعين لقتال المسلمين .

أما السبب فى عدم مواصلة المسلمين بعد ذلك للفتح فى فرنسا بجيش كبير مثل الجيش الذى كان تحت أمرة عبد الرحمن الغافقى . فالسبب الحقيقى فى رأيى يرجع إلى عوامل تتعلق بوضع المسلمين داخليا من شيوع الفرقة بينهم وأنشغال السلطة المركزية بمقاومة الخارجين عليها ثم سقوط الدولة . الأموية بعد ذلك فى دمشق ثم انفصال الاندلس عن السلطة المركزية فى بغداد وأصدق دليل على ذلك الهزائم التى كانت تحل بالمسلمين أثناء فتح أفريقية فقد كان بعض هـــذه الهزائم يستمر بضع سنوات وينسحب المسلمون.

من البلاد والمدن التى استولوا عليها ، ثم يعود المسلمون ليستأنفوا القتال ثانيا ، حتى تمكنوا من فتح افريقية كلها فى أكثر من نصف قرن .

ولكن الوضع فى دولة المسلمين كان قد تغير فأدى ذلك إلى عدم استئناف الفتح فى فرنسا لا لأن الفرنجة أقوى من المسلمين أو لأن المسلمين انسحبوا من موقعة بلاط الشهداء وإنما لأن المسلمين قد حدث ضعف فيهم فى داخل جماعتهم التى تفرقت وربما حدث أهمال أو تكاسل وعدم جدية فى تحقيق أهدافهم تتعلق بهداية البشرية والتى خرج المسلمون لأجلها من جزيرتهم، فلم يعد نشر الدين وتعريف الناس بمبادئه هدفا لمجموعهم وانما لقلة منهم ، بينما يهفوا معظمهم إلى الحياة ومتعها مع اغترارهم بأمجادهم العسكرية القريبة فألهاهم ذلك عن حسن الاستعداد وأخذ الحيطة عند لقاء عدوهم ، مما أدى إلى تخلخل فى معنوياتهم وكان سببا فى ايقاف موجة الفتح الاسلامى فى أوربا .(١)

ويرى ابن خلدون ، ويتفق معه المؤرخ الانجليزى الشهير ارنولد توينبى ومن سار على دربهما من المؤرخين ، أن كل فتح - خاصة فى تلك العصور حيث الامكانيات العسكرية المتقدمة غير موجودة والامكانيات البشرية محدودة - له مدى ينتهى اليه ولا يمكن أن يتخطاه ذلك لأن المسلمين بوصولهم إلى جبال البرنيه كانت فتوحاتهم قد بلغت منتهاها جهة الغرب والشمال الغربى كما أن وصولهم إلى نهر السند كان نهاية فتوحاتهم إلى الشرق . ووصولهم إلى ماوراء النهر نهاية فتوحاتهم فى الشمال الشرقى . اذ لا يمكن لهذه الاتساع

---

(١) أنظر : لسان المغرب ج٢ ص ٢٨ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٤٧ ، ١٥١ ، المجمل العبادى ص ٥٦ — ٦١ ، دولة الاسلام فى الأندلس ص ٨٣ — ١٠٩ ، مع المسلمين فى الأندلس ص ١٠٧ — ١١٨ ، أندلس العرب ص ١٤ — ١٩ ، تاريخ الاسلام السياسى ج١ ص ٣٢٧ .

الشاسع والبعد عن المقر الرسمى للخلافة (دمشق) مع طول خطوط امداداتهم وتموينهم ، أن يستمرا طرادا لأن ذلك يحتاج إلى امكانيات هائلة لا يمكن لدوله مثل الأموية — والتى كانت تتعرض لفتن واضطرابات داخلية — أن تستمر فى الفتح . ذلك لأنه الله تعالى — لحكمة لا يعلمها إلا سبحانه — لم يشأ للمسلمين أن يفتحوا هذه المناطق الأوربية الشمالية الغربية إذ لو شاء لفتح عليهم مثلما حدث فى معاركهم فى صدر الاسلام وابان عنفوان الأمويين.

عبد الملك بن قطن الفهرى :

كان لاستشهاد عبد الرحمن الغافقى ومن معه وانسحاب المسلمين من بلاط الشهداء دون تحقيق النصر هزة كبيرة فى نفوس المسلمين. فأرسل والى افريقية فى رمضان سنة ١١٤ هـ عبد الملك بن قطن الفهرى واليا على الأندلس فى جيش من خيرة جند افريقية وأمره بالعمل على حماية الاندلس واسترجاع هيبة المسلمين وتثبيتها فى جنوب فرنسا .

وكان بعض السكان فى المناطق الشمالية فى شبه جزيرة الاندلس قد حاولوا أن يستفيدوا من استشهاد عبد الرحمن ومن معه ويتخلصوا من الحكم الاسلامى فوجه اليهم عبد الملك جهوده فسار إلى كتالونيا وارغون ونافار (١) وهزم الثوار فى عدة معارك وأخبرهم على طلب الصلح والانقياد للمسلمين ثم توجه عبد الملك إلى لانكيدوك فثبت أقدام المسلمين فيها ونظم أمور الدفاع عنها حتى تتمكن من الصمود فى وجه الافرنج الذين كانوا يكثرون من الاغارة عليها .

---

(١) كتالونيا وهى بلاد الكتالان التى قاعدتها برشلونة ، وأرغون هى مملكة شمال أسبانية إلى الشرق ، ونافار هى البلاد المجاورة لأرغون والعرب يسمونها نابرا وأحيانا نبرونه : غزوات العرب لارسلان ص ١٠٣ .

وكان حكام البلاد فى مقاطعات سبتمانيا وبروفانس يدع بعضهم شارل مارتيل وبعضهم دوق أكوتين ولكنهم كانوا يميلون إلى التخلص من هذه التبعية والاستقلال ببلادهم . ولذلك نجد بعضهم يحالف حكام المسلمين ليتقى بأس ملوك الأفرنج ، ومن هؤلاء موروند ، دوق مرسيليا وفى سنة ١١٦ هـ/ ٧٣٤ م اتفق يوسف أمير أربونة المسلم مع موروند دوق مرسيليا حيث زحف المسلمون بجيش كبير تمكن من الاستيلاء على مدينة آرل ثم تقدموا فى مقاطعة البروفانس وحاصروا مدينة فرينا المعروفة بسان ريمى واستولوا عليها ثم توجه المسلمون إلى أفنيو وتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد قتال عنيف مع حاميتها وبقى المسلمون يسيطرون على بلاد البروفانس أربع سنوات .

وبعد أن تمكن عبد الملك بن قطن من استرجاع هيبة المسلمين بهذه الغزوات فى أرض فرنسا عاد إلى جبال طبرينة لتأديب العصاة فيها فهبت عليه عواصف وأمطار شديدة وهو فى جبال وعرة . وقد مكنت هذه الأنواء العصابات الجبلية البسكونية من إلحاق خسارة كبيرة بجيشه فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من بسط سلطان المسلمين عليهم(١) .

عقبة بن الحجاج :

وقد عزل ابن قطن عن إمارة الأندلس فى رمضان سنة ١١٦ وخلفه فى الإمارة عقبة بن الحجاج السلولى الذى دخل الأندلس فى شوال سنه ١١٦ هـ/ أواخر سنة ٧٣٤ م . ويعرف عقبة بالشجاعة وحسن الرأى فى

---

(١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٨ ؛ نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٠ ، غزوات العرب لارسلان ص ١٠٣ - ١٠٥ دولة الاسلام فى الأندلس ص ١١٠ - ١١١ مختصر تاريخ العرب ص ١٥٢ .

تدبير الأمور والتمسك بالعدل والتقوى ولذلك استبشر المسلمون بولايته وقد حقق عقبة خلال توليه إمارة الأندلس الهدوء والأمن فى ربوع البلاد فنشر العدل ورد المظالم وحاسب العمال وعزل من ثبت ظلمه وحيفه وعاقبهم حسب جرمهم وولى مكانهم من اتصف بالعدالة والنزاهة والحرص على مصلحة الرعية وأمر العمال بتجنيد فرق لجباية الأمن والضرب على أيدى العابثين به . واهتم بدور العلم والعبادة فأسس كثيرا من المساجد والمدارس وعين لها من يقوم بشئونها وبتعليم الناس فيها ورصد لهم الأموال للانفاق منها . وكان لا يفرق فى المعاملة بين الرعية فلا يحابى أحدا لإسلامه أو قرابته أو يظلمه لمخالفته له فى الدين فاطمأن الناس فى عهده وفرحوا بولايته .

وقد وجه عقبه جهوده الحربية أولا إلى شمال الأندلس عازما على تثبيت أقدام المسلمين فيها وجعلها سكنا لهم ففتح بنبلونة ومعظم جهات جليقية « غير الصخرة التى لجأ إليها ملك جليقية وكان بها فى ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه فى خروق الصخرة واعى المسلمين أمرهم فتركوهم »[1] . ولعلهم استصغروا شأنهم وظنوا أنهم يهلكون ولا يكون لهم شأن فعاد عقبة ومن معه موجها جهوده تجاه جنوب فرنسا دون أن يتم القضاء عليهم كما رجع عنهم من قبل موسى بن نصير عندما استدعاه الخليفة . وإذا كنا نلتمس لموسى بن نصير عذرا فى رجوعه عن القضاء على بلاى وعصابته المعتصمة بالصخور بتلبيته لأمر الخليفة فإننا لا نجد عذرا يحمل عقبة بن الحجاج ومن معه يرجع عن بلاى ومن معه دون أن يقضى عليه . فقد كان القضاء على بلاى وعصابته خيرا مما قام به من بعد

---

(١) البيان المغرب ٢٩/٢

ذلك من تثبيت سلطان المسلمين فى جنوب فرنسا . ذلك أن سلطان المسلمين سوف ينكمش ثم ينسحب من جنوب فرنسا كما سينكمش ثم ينسحب من شمال الأندلس ، غير أن الفرنسيين سوف لا يستطيعون مقاومة المسلمين فى الأندلس بينما سوف يستطيع خلفاء بلاى وعصابته مقاومة المسلمين فى الأندلس بل سيحملون أحفاد المسلمين بعد ثمانية قرون على مغادرة الأندلس أو البقاء مع ترك عقيدتهم الاسلامية واعتناق المسيحية وزادوا الطين بلة بسلبهم حريتهم فصاروا عبيدا بعد أن كانوا سادة وحكاما .

ومهما كان الأمر فقد وجه عقبة جهود المسلمين الحربية بعد توطيد الأمن فى شمال الأندلس تجاه جنوب فرنسا فتابع الجهاد خلال فترة ولايته التى استمرت أكثر من خمس سنوات فصارت أربونة موطنا للمسلمين ومكانا لسكناهم ، أما مواقع القتال والحرب فكانت فى الأماكن المكشوفة حتى نهر الرون حيث أقام المجاهدون فى المراكز العسكرية « الرباط » من أجل الدفاع والاستكشاف .

وفى سنة ١١٨ هـ/٧٣٦ م توجه الجيش الإسلامى للاغارة على إقليم دوفينة(١) فاستولى على سان بول ، ودونزور وفالانس ، وفيين وليون وغيرها وانتشرت طلائع الجيش الاسلامى فى بوغونية مهددة عاصمة فرنسا ومحاولة استرجاع هيبة المسلمين والأخذ بثأر الجيش الإسلامى الذى استشهد قائده وبعض جنوده فى بلاط الشهداء .

وكان شارل مارتيل مشغولا بمقاتلة الثائرين عليه فى الشمال فأرسل أخاه هلد براند بجيش لصد المسلمين واستنجد بصهره وحليفه لوتيبراند ملك اللومارديين ، فى إيطاليا ليعاونه فى قتال المسلمين الذين تمكنوا من جبال

---

(١) دوفينه : مقاطعه فى شمال بروفانس وغربى سافو وشرق ليون غزوات العرب ص ١٠٥ .

دوفينة وبيمونت (١) .

وقد ضرب شلد براند بجيشه الحصار على المسلمين فى افينون ولحق به شارل مارتيل بجيش ثان وجاء لتوراند ملك اللومبارديين بجيش آخر من إيطاليا حيث تمكنوا من الاستيلاء على افينون بعد حصار طويل وقضوا على حاميتها المسلحة مما اضطر الحاميات الإسلامية المنتشرة فى بعض الأربطة أمام هذا الجيش الهائل إلى الإنسحاب والاعتصام فى اربونة فتقدم شارل بجيشه الضخم وحاصرا بيونة فصمد له المسلمون فيها وردوا كل هجماته ورأى عقبة إنجاد المدينة حتى لا تقع فى يد شارل مارتيل فأرسل إليها مدداً عن طريق البحر إلا أن شارل شعر به وتمكن من منعه عن الوصول إلى أربونة وأنزل به خسارة فادحة ولم ينج منه سوى عدد قليل لجأ إلى السفن وذلك فى سنة ١١٩ﻫ / ٧٣٧م ومع عدم تمكن هذه النجدة من الوصول إلى أربونة إلا أن المسلمين فى أربونة صمدوا للحصار ودافعوا عن أربونة ببسالة نادرة مما حمل شارل مارتيل إلى أن يرحل عن أربونة ويرفع عنها الحصار وفى أثناء إنسحابه نحو الشمال هدم كثيراً من الحصون والمدن التى كان يحتلها المسلمون فهدم مدينة بيزيه ، وأدج ، وماجلون، وأحرق مدينة نيمة بآثارها الرومانية الفاخرة وهكذا حول البلاد إلى خراب بلقع بعد أن كانت عامرة مزدهرة أيام المسلمين وذلك ليمنع تقدم المسلمين إلى هذه البلاد وربما يشبه عمله هذا ما قامت به الكاهنة فى شمال أفريقية عندما هزمت حسان بن النعمان .

وقد حاول المسلمون بقيادة عقبه بن الحجاج استرجاع هذه البلاد ثانيا

---

(١) بيمونت : هى البلاد الواقعة فى شمال إيطاليا وتعرف باسم بيمونته غزوات العرب ص ١٠٦ .

فى سنة ١٢٠ ، ١٢١هـ ولـكن الفرنج بقيادة شارل مارتيل تكاثروا عليهم واضطروهم إلى الانسحاب من بروفانس ومعظم مدن سبتمانيا ولم يبق للمسلمين سوى أربونة ورقعة من الأرض بين أربونة والعرنية .

وإذا كان هجوم المسلمين على جنوب فرنسا براً قد اتى مقاومة عنيفة وصارت أراضى جنوب فرنسا فى مد وجزر بين المسلمين والافرنج خلال حياة شارل مارتيل . فإن ذلك لم يمنع المسلمين من أن يتابعوا غزواتهم البحرية على المدن الواقعة على شواطىء فرنسا الجنوبية وعلى الجزر الغربية منها .

فقد أنشأ المسلمون منذ الفتح دور الصناعة لبناء الأساطيل البحرية فى كثير من موانىء الأندلس عدا دار الصناعة العظيمة المقامة فى تونس . وكان للمسلمين فى الأندلس قائد للبحر يسمى أمير الماء وقد حرف بعد ذلك إلى أميرال .

ومع كل هذه الجهود الضخمة فلم يتمكن المسلمون من تحويل جنوب فرنسا إلى أرض إسلامية لأسباب سنتحدث عنها فيما بعد .

وربما — أمام هـذا الوضع — وهو عدم تمكن عقبه من الثبات فى وجه العدو — ثار أهل الأندلس على عقبة بن الحجاج فعزلوه وولوا مكانه عبد الملك بن قطن للمرة الثانية . وقال ابن القطان : أن عقبة بن الحجاج لما حانت وفاته استخلف عبد الملك بن قطن على الأندلس سنة ١٢٢هـ (١) .

---

(١) ابن خلدون جـ٤ ص١١٩ ، البيان المغرب جـ٢ ص٢٩ ، ٣٠ نفح الطيب ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، مختصر تاريخ العرب ص١٥٢ ، ١٥٣ ، غزوات العرب فى فرنسا ص ٩١ — ١٠٨ ، دولة الإسلام فى الأندلس ص١١١ — ١١٥ .

ولاية عبد الملك بن قطن الثانية :

وكانت ولاية عبد الملك بن قطن الثانية فترة لقيام الثورات وانتشار الفتن واضطراب الأمور فى الأندلس وقد كانت أسباب الاضطراب من خارج الأندلس وداخلها . فمن خارج الأندلس نجد أن المغرب الأقصى اضطربت الأمور فيه لانتشار مذهب الخوارج الصفرية وتزعم ميسرة المدغرى ثورة البربر ضد الحكام المسلمين العرب حيث قتلوا حاكم طنجة وحاكم السوس ودعوا لميسرة بالخلافة وقاتلهم والى أفريقية ولكن المسلمين هزموا فى معركة الأشراف سنة ١٢٣ هـ بعد أن قدموا كثيراً من الأبطال فولى الخليفة هشام بن عبد الملك على أفريقية كلثوم بن عياض القشيرى وأرسل معه جيشاً بقيادة بلج بن بشر القشيرى لقتال البربر والقضاء على فتنة الخوارج فى أفريقية وانضم إليهم جنود أفريقية وساروا نحو المغرب الأقصى حيث التقوا بخوارج البربر تحت قيادة خالد بن حميد الزناتى فى وادى سبو ودارت بين الفريقين معركة رهيبة انتصر فيها البربر واستشهد كلثوم بن عياض وتشتت جموع العرب المسلمين فلحق بعضهم بالقيروان ولجأ بلج بن بشر فى عشرة آلاف من أهل الشام إلى سبتة فتحصنوا بها فحاصرهم البربر وأشتد عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم فى العبور إلى الأندلس فماطلهم فى البداية خوفا منهم على مركزه وسلطانه .

ولكن أحداث أفريقية التى انتصر فيها البربر فى المغرب الأقصى كان لها تأثير فى داخل الأندلس بين البربر والعرب فتطاول البربر فى الأندلس على العرب فى التى يكثر فيها البربر فى الشمال فى جليقية وغيرها وقاتلوا العرب وطردوهم المناطق وكاد أن يحدث فى الأندلس ما حدث فى أفريقية عند ذلك اضطر عبد الملك ابن قطن أن يسمح لبلج وأصحابه ويعاونهم فى العبور إلى الأندلس ليستعين بهم فى القضاء على ثورة البربر فى الأندلس وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجوا عنها فرضوا بذلك وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم .

وعبر بلج ومن معه إلى الأندلس سنة ١٢٣ هـ وقدم لهم ما يحتاجون إليه من الطعام واللباس واجتمعوا إلى جيش عبد الملك ثم اتجهوا إلى البربر المجتمعين فى شذونة فهزموا البربر وأصاب بلج منهم غنائم كثيرة. ثم اتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف. فاجتمعت جموع كثيرة للبربر قريباً من طليطلة فزحف إليهم عبدالملك وبلج بعرب الأندلس. وتمكن العرب من هزيمة البربر بوادى سليط وقتلوا منهم عدة آلاف وبذلك قضى على فتنة البربر فى الأندلس واشتد ساعد بلج وأصحابه[1].

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشيرا باستقرار الأمور بالأندلس وإنما أعقب ذلك فتنة بين العرب أنفسهم. فقد طلب عبد الملك بن قطن من بلج وأصحابه الرحيل عن الأندلس حسب الشرط الذى أخذه عليهم فقال بلج أحملنا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير فقال لهم عبد الملك ليست لنا مراكب إلا بالجزيرة قال له: إنما تريد أن تردنا إلى البربر (أى المغرب الأقصى) ليقتلونا فى بلادهم. فلما ألح عليهم عبد الملك فى الخروج ثار بلج ومن معه من أهل الشام وقبضوا على عبد الملك وقتلوه فى هلاك أحد الرهائن التى كانت تحت يده وتولى بلج إمارة الأندلس فى أول ذى القعدة سنة ١٢٣هـ[2].

ولاية بلج بن بشر، وثعلبة بن سلامة:

وفى ولاية بلج بدأ الصراع بين العرب أنفسهم فقد حشد أمية وقطن ابنى عبد الملك جموعا كثيرة فى سرقسطة بلغت أكثر من مائة ألف وانضم إليهما عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وعبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم

(١) البيان المغرب جـ ٢ صـ ٣٠، ٣١، دولة الاسلام فى الأندلس صـ ١٢١، ١٢٢.

(٢) المرجعان السابقان: الأول جـ ٢ صـ ٣٢، ٣٣، والثانى صـ ١٢٢.

أربونة وفارس الأندلس وكل من أنكر قتل عبد الملك بن قطن ، وسارت هذه الجموع إلى قرطبة حيث خرج إليهم بلج فى عشرين ألفاً من أنصاره ودارت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها أحد عشر ألفاً وانتصر فيها الشاميون رغم قلتهم إلا أن بلجا أصيب بجراح توفى منها بعد أيام . فولى أهل الشام فى شوال سنة ١٢٤هـ ثعلبة بن سلامة الجذامى إمارة الأندلس وقالوا ان ذلك كان بعهد من هشام بن عبد الملك أو من كلثوم بن عياض كما ذكروا ذلك فى ولاية بلج(١) قبل ذلك . وقد حاول ثعلبة إصلاح البلاد ونشر العدل إلا أن سلطة الحكومة المركزية فى الأندلس كانت قد ضعفت ، وحاول حكام الولايات الوسطى والشمالية الاستقلال والانفراد بالنفوذ ، ونشبت الحرب مرة ثانية بين الشاميين بقيادة ثعلبة وبين أبناء عبد الملك بن قطن ومن انضم إليهم ودارت بينهما معارك حامية حول ماردة قتل فيها خلق كثير وانجلت الحرب عن انتصار ثعلبة على خصومه وأسر ألفاً منهم عاد بهم إلى قرطبة .

ولاية أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى :

وفى مطلع سنة ١٢٥ هـ أرسل حنظلة بن صفوان والى أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى واليا على الأندلس فقدم إلى قرطبة وتسلم السلطة من ثعلبة وعفى عن الأسرى الذين كان يريد ثعلبة قتلهم . وقد حاول أبو الخطار أن يعيد الأمن والسكينة إلى البلاد وتمسك بالتسامح والعدل وأحبه الناس واجتمع عليه أهل الشام وعرب البلد وانقاد له الحكام الخارجون على سلفه فأحسن إليهم ومن أبى الانقياد له خرج من الأندلس . وقد فرق أبو الخطار جند الشام وأنزلهم فى مدن مختلفة حسب المدن التى قدموا منها وكأنه يراعى هنا رابطة البلد والمكان الذى ينتسب إليه الفرد لا رابطة القبيلة وأنهى

(١) البيان المغرب جـ٢ ص ٣٣ .

الحكم الذاتى الذى كانت تتمتع به تدمير (مرسية) بعد وفاة تيودمير لأنه رأى أن تلك المعاهدة التى عقدت معه كانت تتعلق بفترة حياة تيودمير ولا تتجاوز إلى أبنائه من بعده وبذلك ضمت تدمير إلى باقى إمارات الأندلس وبذلك تم للمسلمين بسط سلطانهم الفعلى على جنوب الأندلس كله .

كان شعور المسلمين بالمساواة من أبى الخطار بين جميع القبائل عاملا أدى إلى الرضا عنه وتأييده وطاعته من الجميع ولكن يذكر المؤرخون أن أبا الخطار مال بعد ذلك إلى اليمنيين وحاباهم على حساب المضريين مما أدى إلى اشتعال نار الفتنة بين العرب من جديد .

وابتدأ الشر بإساءة أبى الخطار إلى زعيم من زعماء المضرية هو الصميل ابن حاتم بن شمر ذى الجوشن وجده شمر من أهل الكوفة وممن اشترك فى قتل الحسين بن على رضى الله عنه وكان الصميل شجاعا سخيا فالتف حوله المضرية وبعض الناقمين على أبى الخطار من اليمنية كجذام ولخم فلما أهانه أبو الخطار بعث الصميل إلى خيار قومه فشكا إليهم ما حل به من هوان فثاروا معه وأيدته لخم وجذام من اليمنية . فقدموا عليهم ثوابة بن سلامة الجذامى واتجهوا نحو قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فهزموه وأسروه واتجه ثوابة ومن معه نحو قرطبة فدخل قصر الإمارة وأعلن اختيار ثوابة وهو يمنى أميرا على الأندلس سنة ١٢٨ ﻫ بدلا من أبى الخطار ووافق على ذلك والى أفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى انتزع ولاية أفريقية من حنظلة بن صفوان ، وقام ثوابة بضبط الأمور فى الأندلس يعاونه الصميل فاجتمع عليه جند الأندلس . وهنا نشير إلى مايقوله معظم المؤرخين من أن العصبية القبلية بين اليمنيين والمضريين كانت هى السبب دائما فى إثارة الخلاف والحروب بين العرب فى الأندلس فإن هذه الدعوى قد تقبل على إطلاقها إذا لم نجد شيئا يدحضها : ومن ذلك إسناد الأندلس إلى ثوابة بن سلامة

الجذامي وهو يمني مع أن معظم المتنصرين كانوا من مضر وفيهم الصميل بن حاتم ومن ذلك قتال جذام وهي يمنية مع الصميل قائد المضرية لأبي الخطار اليمني والانتصار عليه ، وأسناد إمارة الأندلس إلى ثوابة بن سلامة الجذامي اليمني بعد أن تحقق الانتصار ينفي أن الثورة سببها العصبية إذ المتوقع حينئذ . أن يتولى الإمارة رجل مضري ولكن ذلك لم يحدث . وهذه الظاهرة تبين لنا أن هناك أسبابا أخرى كان يدور من أجلها الصراع في الأندلس في هذه الفترة الحرجة ، وأن كل فريق أو حزب كان يخوض الحرب لأنه يرى أن يولى الرجل الذى يطمئن إليه ويرتضيه ويحقق مطالبه سواء كانت هذه المطالب تتعلق بالدين أو بالسياسة أو بالشرف والكرامة وسواء كان الشخص يمنيا أو مضريا .

وقد تمكن أبو الخطار من الفرار من أسره وتمكن من حشد جمع كبير من اليمنية لقتال المضرية واسترجاع الإمارة وتقدم إلى قرطبة فخرج إليه ثوابة بمن معه من اليمنيين والمضريين ولكن جند أبي الخطار تفرقوا عنه فانسحب أبو الخطار ولم يلبث ثوابة أن توفى ن أوائل سنة ١٢٩ هـ .

وعندما توفى ثوابة ذر قرن الفتنة وعادت الحرب إلى ما كانت عليه . فقد أراد اليمنيون إعادة أبي الخطار إلى إمارة الأندلس ورفض ذلك المضريون بقيادة الصميل بن حاتم وحدث بين الفريقين صراع وقتال ظلت خلافة الأندلس أربعة أشهر بدون أمير وتولى الأحكام فيها عبد الرحمن بن كثير اللخمي برضاه من الفريقين .

آخر الولاة : يوسف بن عبد الرحمن الفهري :

ولما تفاقم الأمر واشتد الخلاف خاف الزعماء من تطور الفتنة إلى أسوأ مما كانت عليه فاتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري المضري.

الإمارة فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ لمدة عام يتولى بعده أمير من اليمنية ـ وهكذا تتبادل القبيلتان أو الحزبان بينهما الامارة فيكون الحكم لكل منهما مدة عام . ولما استقام الأمر ليوسف عزل يحيى ابن حريث أحد الحكام اليمنيين فغضب ودعا اليمنيين إلى الثورة معه وكاتب أبا الخطار فأجابه وحشدت جمـــوع اليمنية التى تؤيدها وزحفا على قرطبة فخرج إليهما يوسف والصميل فى جموع المضرية والتقوا بشقندة قريبا من قرطبة سنة ١٣٠ هـ حيث دارت بينهما معركة رهيبة انتهت بهزيمة اليمنية وقتل أبى الخطار وابن حريث وكثير من زعماء اليمنية واستتب الأمر ليوسف الفهرى بعد شقندة فرضى عنه جند اليمن والشام ومضر وعلا شأن الصميل فخشى منه يوسف على إمارته فأسند إليه ولاية سرقسطة ليبعده عن مقر الامارة التى اضطربت شئونها وزاد فى اضطراب الأمور أحداث المشرق وأفريقية وسقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ وعجز سلطان العباسيين عن الوصول إلى أفريقية والأندلس آنذاك .

وقد وجه يوسف الفهرى جهوده إلى إصلاح شئون الامارة بعد هذه الفتن التى مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية لمحاولة استقلال كثير من العمال بولاياتهم ، مما شجع النصارى فى الولايات الشمالية إلى السعى لاسترجاع السلطة فى أقاليمهم وزاد الطين بلة حلول القحط بالأندلس لفترة زادت على أربع سنوات من ١٣١ — ١٣٥ هـ مما حمل كثيرا من الناس على ترك الأندلس إلى أفريقية وخاصة من الولايات الشمالية فكان ذلك مشجعا للنصارى فى الشمال على الاستقرار فى البلاد التى رحلوا عنها .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد يوسف فأبدى همة عالية قاوم بها الصعاب والمحن وطاف بالأقاليم ينظر فى شئونها ويقضى على الفوضى ويرد المظالم

ويعزل الحكام الجائرين . وعبد الطرق وأصلح نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية وأمر بأن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط وتسقط عمن توفوا وأن تعدل السجلات تبعا لذلك وأحبه كثير من النصارى لهذه الاصلاحات . كما اهتم بالجيش وتدريبه وإصلاحه حتى يثبت سلطان إمارته . وقد وجه يوسف الفهرى جيشا إلى جنوب فرنسا بقيادة أحد أبنائه ليسترد هيبة المسلمين ولكنه عاد دون ان يحقق الهدف الذى أرسل من أجله . ومافطن أن ذلك كان أمرا ممكنا إذا علمنا الثورات التى قامت فى وجه يوسف وعمل على إخمادها فقد ثار عليه عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم أربونة وأزمع الخروج إليه فلم يلبث إلا يسيرا حتى أمكنه الله منه وثار عليه عروة ابن الوليد بباجة والتف حوله العرب والبربر وتحالف مع النصارى وتمكن من الاستيلاء على أشبيلية واتسع نطاق ثورته فخرج إليه يوسف ودارت بينهما معارك انتصر فيها يوسف وقتل عروة وكثير من أصحابه . وكان أشد الثورات وأخطرها ثورة تزعمها تميم بن معبد وعامر بن عمرو بن وهب العبدرى الذى يقال أنه كاتب الخليفة أباجعفر المنصور وطلب منه مرسوما بأمارة الأندلس حتى يدعو له بالأندلس ويحكمها باسمه وانضم إليهما الحباب ابن رواحة الزهرى واجتمع عليهم كثير من المضرية والعمنية والبربر واتجهوا إلى سرقسطة حيث كان الصميل بن حاتم وضربا عليه الحصار ودارت معارك بينهما انتهت بانسحاب الصميل من سرقسطة ووقوعها فى يد الثوار سنة ١٣٦ هـ /٧٥٣ م وأعلن عامر أنه أمير الأندلس بموافقة ادعى أنها وصلته من أبى جعفر المنصور وبسط سلطانه على ماحول سرقسطة فسار إليه يوسف فى سنة ١٣٨ هـ بجيش كبير أعده لذلك وتمكن من حصاره وهزيمته وقتله وبذلك قضى يوسف على كل الثورات التى قامت ضده فى الأندلس ولكنه لم يكد ينتهى من ذلك حتى فوجىء بخطر جد جديد جاءه من المشرق

فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م وهو الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك (الملقب بصقر قريش) الذى تمكن من نزع الامارة منه والاستقلال بالأندلس وكان ذلك فى نهاية عهد الولاه .

حالة الأندلس آخر عهد الولاة :

وإذا كان الولاة الأول قد وجهوا جهودهم إلى متابعة الفتح فى جنوب فرنسا وقدموا الشهداء وحرصوا على الاحتفاظ بما فتحوه فإن آخر عصر الولاة وماشاع فيه من الفتن والاضطرابات والثورات قد فقد المسلمون فيه تلك المناطق التى رووها بالكثير من دماء شهدائهم الأبرار .

فبينما كان يوسف الفهرى مشغولا بالقضاء على هذه الثورات الضارية التى قامت ضده اغتنم الفرنج تلك الفرصة واستولوا على أراضى ومدن سبتمانيا ولا نجدوك ، وكانت ماتزال فى أيدى المسلمين فقد سار بيبن بن شارل مارتل سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م ، بجيش إلى لانجمدوك واستولى على نيم وأفت وماغلون وبيزيه وغيرها وخرب مساجدها وهدم مستشفياتها وقتل من وجده فيها من المسلمين . ولم يجل المسلمون عن هذه البلاد فى جنوب فرنسا فى سهولة فقد دافعوا عن كل شبر فيها بدمائهم وقدموا الأبطال من شهدائهم .

ورغم عجز حكومة الأندلس آنذاك عن مساعدتهم فقدظلوا ثلاثة أعوام يقاومون وينسحبون لعجزهم عن الصمود حتى لم يبق فى أيديهم سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م سوى مدينة أربونة التى وصل إليها بيبن بجيشه القوى المنتصر وضرب عليها حصارا طويلا صمد له المسلمون طيلة أربعة أعوم ، إذ أن أربونة كانت فى حصانة ومنعه وصمم المسلمون على الدفاع عنها حتى آخر جندى وتمكنوا من رد كل هجمات العدو المحاصر لهم مع عدم تمكن الحكومة المركزية من إمدادهم بما يحتاجونه ولم يصلهم سوى بعض المؤن والإمدادات عن طريق البحر .

وأمام تصعيد المدينة الباسلة ضدها ابيبين وتصميم حماتها المسلمين على الدفاع عنها ، لجأ بيبين إلى الخيانة والمكر والخدعة ووجد فرصته فى سكان المدينة من القوط المسيحيين الذين أرهقتهم الحصار فاتفقوا معه على الغدر بالمسلمين ومساعدة جيشه على أن يكونوا مستقلين فى بلدتهم وتكون لهم إدارة أمورهم بحسب قوانين القوط وأعطاهم بيبين المواثيق على ذلك فوافقوا . وتم ذلك فى غفلة من المسلمين وإذا بالثورة تشتعل ضرامها فى داخل المدينة وينقض بعض القوط على حراس الأبواب المسلمين فيقتلوهم ويفتحوا الأبواب . فيتدفق جيش الفرنج المحاصر للمدينة عليها ويعمل الفرنج سيوفهم فى رقاب المسلمين رجالا ونساء وأطفالا ، ويهدموا مساجدها ومعاهدها ويدكوا معالمها وذلك سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩م وكان ذلك أعلانا بسقوط كآخر معقل المسلمين فيما وراء جبال البرنية بعدوجود دام قرابة نصف قرن وأبقى الملك بيبين جيشا كبيرا لحراسة البلاد .

وفى ذلك الوقت الذى تمكن فيه ببين من القضاء على سلطان المسلمين فى جنوب فرنسا لانشغال المسلمين بفتنهم وحروبهم الداخلية نجد نصارى الأندلس من القوط الذين ألتفوا حول زعيمهم بلاى فى استرقة وجيليقيه يتمكنون من إقامة إمارة يبسطون منها سلطانهم على بلاد المسلمين فى الشمال وساعدهم القحط الذى حل بالأندلس فى سنة ١٣١ — ١٣٥ هـ وجعل المسلمين يجلون عن تلك البلاد — على التوغل فى الأرض الإسلامية فاستولوا على استرقة وغيرها من البلاد ولم ينته عصر الولاة حتى كانت تلك الولاية شوكة قوية تنغص كيان المسلمين ووجودهم فى الشمال وأخذت تعمل بكل ما تملك لطرد المسلمين والاستيلاء على البلاد منهم (١) .

(١) أنظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤ — ٣٨ ، تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٤ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٦٠ — ١٦١ ، غزوات العرب فى فرنسا ص ١١٢ — ١١٣ . دولة الاسلام فى الأندلس ص ١٢٧ — ١٣٦ ؛ تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

وينبغي قبل أن نترك عصر الولاية في الأندلس أن نلقي نظرة عامة على بعض الأحداث فيه لنستشف منها مقدمات لنتائج نتجت عنها: فإننا نجد أن السمح بن مالك، من أتى بعده من الولاة الذين خاضوا الحرب في فرنسا ربما قد جانبهم الصواب في التخطيط لها بدقة ومهارة كما ينبغي. فلم يلتق الجيش الإسلامي بجيش العدو المتجمع لصد المسلمين والوقوف في وجههم في موقعة من المواقع إلا بعد أن يكون الجيش الإسلامي قد خاض بعض الحروب التي قد أنهكت قواه وترك بعض الحاميات منه في النواحي التي استولى عليها ثم أصبح مشغولا بالغنائم التي حصل عليها، وكل ذلك كان ذا تأثير سيء في القوة التي يتمتع بها الجيش الإسلامي.

ولعل الوضع السليم كان يتمثل في أن يعد الجيش لخوض غمار القتال في المعارك الكبيرة مثل الموقعة عند طلوشة وموقعة بلاط الشهداء ثم يرسل القائد سرايا لفتح البلاد المجاورة والاستيلاء عليها. وأيضا كان يحتاج الأمر إلى قوة احتياطية تكون مستعدة لنجدة أية حملة منها أو لنجدة الجيش الكبير إذا تورط في وضع ما

وعند ذلك كان يلقى الجيش عدوه وهو في كامل عدته وفي درجة عالية وبروح معنوية على درجة عالية لم تتأثر بإرهاق الحروب السابقة أو بالحرص على الغنائم التي حصلوا عليها ثم بالتالي يكون عنده الطاقة لمواصلة القتال أياما عدة.

ولا شك أن المسلمين كانوا يملكون جيشا احتياطيا كبيرا إذا نظرنا إلى امتداد رقعة بلاد المسلمين من الأندلس إلى دمشق ومن دمشق إلى السند.

وأمر آخر يتعلق بالقيادة وقد أرسى قواعدها رسول الله ﷺ قبل خوض تلك المواقع بأكثر من قرن من الزمان. وذلك عندما عين خلفاء

القائد الأعلى فى موقعة مؤتة حتى لا يحصل تقهقر أو انسحاب من ميدان القتال إذا استشهد القائد الأعلى ثم أن ما حدث فى مؤتة أيضا بعد استشهاد القواد الثلاثة واختيار ابن الوليد للقيادة كان يجب أن يكون درسا واضحا أمام المسلمين للسير فى معاركهم بعد ذلك . ولكن للأسف أننا نجد فى المعارك التى قتل فيها القائد الأعلى سواء فى افريقية أو الأندلس لم يبرز القائد الثانى الذى يتولى القيادة ويتصرف بحكمة وعزم سوى فى القليل النادر وفى كل الأحوال نجد أنهم ينسحبون فورا إلى قواعد متأخرة أحيانا بمهارة وحذق ومحافظة على قواتهم وأحيانا فى صورة انهزام مريع مثل ما حدث فى أفريقية .

ومع ذلك فإننى أرى أن العيون أو الجواسيس التى كان يرسلها القائد لتحرى أحوال العدو واستطلاع حقيقته ربما قد أخطأت التقدير أو لم تصل إلى الأماكن التى كان يتجمع فيها العدو ويتمكن من معرفة حقيقة وضعه .

ولذلك كان أخذ المسلمين على غرة قبل الوصول إلى الدرجة المطلوبة فى الاستعداد الذى يتفق مع العدو الذى سيلاقونه . ولهذا لم تكن النتيجة فى صالحهم عند اللقاء وخاصة عند استشهاد القائد الأعلى .

وملاحظة أخرى نراها فى محاوله شارل مارتل استرداد أربونة ودفاع المسلمين عنها : فاننا بعد اطلاعنا على هذه الجهود الكبيرة التى بذلها المسلمون لمحاولة التمسك بالأقاليم التى فتحوها فى فرنسا ، وتجمع كل أوربا لمحاولة إيقافهم ومنعهم من التقدم ثم أصرار المسلمين على مواصلة الجهاد رغم هذه الظروف الصعبة من تغيير البيئة وبعد خطوط القتال وتجمع العدو من جهات كثيرة لإيقاف تقدمهم — يتبين لنا أنه رغم ما يذكره المؤرخون من خلافات بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر ، فانهم حـــاولوا الاستمرار والتمسك بما فى أيديهم ، إلا أن ظروفهم الداخلية فى الولاية

وما انتشر بينهم من خلاف ثم التجمع الكبير الخارجي لعدوهم — يدفعهم التعصب الشديد لنصرانيتهم — هو الذى قلل من نتيجة هذه الجهود .

ولنا أن نذكر للمسلمين فى عهد الولاة أنهم حاولوا مرات كثيرة مواصلة الفتح حتى بعد بلاط الشهداء ، ألا أن الظروف الداخلية والمحلية فى الأندلس وفى ولاية أفريقية القريبة منها وفى مقر السلطة العليا و دمشق بجوار التجمع الخارجى ، كل ذلك كان عاملا مساعدا لايقاف الفتح عند هذه الأماكن من بلاد الفرنج .

ولنا أن نذكر أيضا أن الفتح فى جنوب المغرب لم يواصل بعد فتح المغرب بقوة الجيش الفاتح . فصار الوضع فى شمال الأندلس وجنوب فرنسا مثل الوضع فى جنوب المغرب وأيضا مثل الوضع فى الجبهة الشرقية فى آسيا . فلم يصل الإسلام إلى أندونيسيا والفلبين وجميع جنوب شرق آسيا بجيش فاتح وإنما وصلت دعوته عن طريق الدعاة والتجار .

وقد تلى وقوف حدود المسلمين فى هذه الأماكن سقوط الأمويين وقيام العباسيين ثم انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية مما أضعف مركز المسلمين فيها وجعلها عاجزة عن مواصلة الفتح فى أوربا

ولاشك أن انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية كان أكبر عامل فى إيقاف مواصلة الفتح فى أوربا ، ويدل ذلك على استطاعة المسلمين فى أفريقية مواصلة الفتح فى البحر المتوسط والاستيلاء على صقلية بعد ذلك بحوالى قرن من الزمن لأن الغالبية الذين قاموا بذلك تابعين للخلافة ويستمدون من تبعيتهم لها قوة بخلاف الوضع فى الأندلس الذى آل أمره إلى الانشقاق عن مقر الخلافة فى بغداد . فكان يشعر بالضعف إذا ما حاول غزو فرنسا وإن كان قد بذل جهودا كبيرة فى سبيل الاحتفاظ بالأندلس . وأيضا فإن المسلمين قد استطاعوا أن ينشروا دعوتهم بدون قتال فى غرب أفريقية وفى

وسطها وأن يكتسبوا أرضا جديدة فى تدين بدعوتهم ولم يحدث ذلك فى أوربا لأن أوربا وقفت من اعتناق الاسلام موقف العداء وإن كانت قد بدأت تقتبس من حضارته وتقدمه .

وهناك أمر آخر تنبه إليه ، وهو أن البعض يظن أن كثرة عدد الولاة فى الأندلس فى عهد الولاة قد جعل المسلمين لا يبذلون جهودا فى مواصلة الفتح . وهذا خطأ جسيم فإن دراستنا لعهد الولاة قد بينت لنا الجهود الكبيرة والضخمة التى بذلها المسلمون خلال هذه الفترة . وكثير من المؤرخين يمرون على هذه الفترة مر الكرام وكأنها لم يحدث فيها شىء سوى التطاحن بين العرب بعضهم وبعض أو بين العرب والبربر ولم يحققوا شيئا سوى ذلك

ولكننا بعد دراستنا للجهود التى بذلوها فى حرب أعدائهم واستماتتهم فى سبيل الانتصار عليهم يظهر لنا أن هناك مبالغة كبيرة فيما يصفه المؤرخون من حدة وشك فى وقوع الصراع والتطاحن بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر .

ويمكننا أن نقول عند ذلك أن هذا التطاحن إنما هو حوادث فردية ولكنها أكثر حدة وعنفا من الحوادث الفردية العصبية التى وقعت فى عهد الرسول ﷺ ، إلا أنها ليست بهذه الصورة البشعة المنفرة التى يصفها بها المؤرخون . وإن كان قد ترتب عليها آثار سيئة وخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين فى الأندلس .

الفصل السادس

قيام الدولة الأموية فى الأندلس

١ — سقوط الدولة الأموية فى المشرق :

فى سنة ١٣٢ هـ تمكن الجيش العباسى الذى انتصر على ولاة الأمويين فى المشرق أن يتقدم نحو الزاب حيث يعسكر آخر خليفة أموى مروان بن محمد وأن ينتصر عليه فى ١١ من جمادى الآخرة ١٣٢ هـ ثم يتتبعه إلى الشام ففلسطين فمصر حيث يقضى عليه فيها وبذلك تنتهى الخلافة الأموية فى المشرق وتقوم مقامها الخلافة العباسية التى حاولت أن يتم تقويضها للخلافة الأموية بالقضاء على أفراد تلك الأسرة . ولذلك تتبعتهم فى كل مكان لكى تقضى عليهم ، ولكن واحدا من الأمويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[1] تمكن من أن ينجو منهم ويصل إلى المغرب ليقيم الدولة الأموية فيها

ويورد ابن عذارى رأيا فى اتصال دولة بنى أمية فى المشرق بدولتهم فى المغرب إلى سنة ٤٢٤ هـ وأن الدولة لم تنقطع وبنى ذلك على أن عبد الرحمن ابن حبيب والى أفريقية من قبل بنى أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى المتغلب على الأندلس الذى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وهو أميرها ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة وفائدة عجيبة[2] .

---

(١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٤

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩

وكان يمكن أن يعتد بذلك وتكون الدولة الأموية فى المشرق والمغرب متصلة لو أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى انقاد لعبد الرحمن بن معاوية عند وصوله إلى الأندلس وسلم إليه إمارة الأندلس دون أن ينازعه عليها حتى تراق بينهما الدماء ، ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية فى المشرق قد انتهت . وأن عبد الرحمن بن معاوية قد استطاع بمجهوده الشاق أن يعيدها فى المغرب بعد ست سنوات من انتهائها فى المشرق .

ولذلك نجد أن أبا محمد بن حزم يذكر انتهاء الدولة الأموية فى المشرق بمروان بن محمد ويصفها بأنها كانت دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم وإنما كان سكن كل أمير منهم فى داره وضيعته اللتان كانتا له قبل الخلافة وأنهم لم يكثروا من احتجان الأموال ولا بناء القصور ولم يطلبوا مخاطبة الناس لهم بالعبودية والملك ولا تقبيل أرض ولا يد ولا رجل ، إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة ، والتولية والعزل فى أقاصى بلاد الدنيا ، فكانوا يعزلون العمال ويولون غيرهم فى السند والهند وفى خراسان وأرمينية ، وفى العراق واليمن وفى المغرب الأدنى والأقصى وبلاد السوس وبلاد الأندلس وبعثوا إليها الجيوش وولوا عليها من ارتضوا من العمال وملكوا أكثر الدنيا فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ماملكوه من الأرض إلى أن تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق وانقطع بها ملكهم(١) فابن حزم يذكر انقطاع ملكهم وهو الرأى الذى أميل إليه .

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٩

ولكن كيف انتهت الدولة الأموية في المشرق بسرعة وهي تتصف بهذه الصفات القوية التي ذكرها ابن حزم ؟

وهنا نجد أنها مع تمتعها بهذه الصفات القويه فى سلطانها فإن هناك أيضا عوامل فساد قوية استطاعت أن تهدم هذا الكيان القوى المترامى الأطراف.

فمن ذلك الظروف التى قامت فيها الدولة الأموية والآثار الدينية والمعنوية التى أثارتها السياسة الأموية فى أنحاء الدولة الإسلامية بالحد من مبدأ مهم من مبادىء الإسلام وهو مبدأ الشورى .

كذلك الصراع الذى قام بين الأمويين وبين العلويين وأدى إلى مقتل الحسين بن على وكثير من آل بيته فى كربلاء سنة ٦١ هـ ثم الحرب التى قامت بين الأمويين وبين عبدالله بن الزبير إستنفدت كثيرا من قوة الدولة وشبابها .

كما كان لثورات الخوارج المتعددة والمنتشرة فى أنحاء الخلافة فى المشرق والمغرب أثر كبير فى ضعف الدولة وتشتت قواها .

وإذا أضفنا إلى ذلك اضطرام العصبية بين القبائل العربية ثم شيوع التنافس بين العرب وبين غيرهم من أبناء البلاد التى دخلت تحت سلطة الدولة الإسلامية مع البعد فى بعض الأحيان عن تحقيق العدالة التى ينشدها الإسلام بينهم تبين لنا مدى الضعف الذى دب فى أرجاء الدولة والعداوة التى انتشرت بين سكانها .

ثم إن التنافس المعقوت على السلطة بين أفراد الأسرة الأموية كان من العوامل الداخلية القوية التى أدت إلى سرعة زوالها .

وقد مكنت كل هذه العوامل السابقة العباسيين من أن يخططوا ويدبروا فى سر وكتمان وأن يستغلوا بعض هذه العوامل أو كلها ويجمعوا الأعوان والأنصار ويحشدوا كل العناصر المعادية للأمويين ليلتقوا بهم فى ميادين القتال فيكون انهيار الدولة الأموية على أيديهم وتقوم الدولة العباسية لتحل محلهم سنة ١٣٢ هـ (١)

٢ — عبد الرحمن بن معاوية ينجو من العباسيين ويتوجه إلى أفريقية :

حاول العباسيون بعد انتصارهم على الأمويين والقضاء على مروان بن محمد آخر خليفة أموى أن يتتبعوا بقية أفراد البيت الأموى ويقضوا عليهم حتى لاتقوم لهم قائمة ولا يتحرك أحد منهم ليثير الشغب عليهم فيذكر المؤرخون أنهم أخذوا يقتلون كل من يقع فى أيديهم مما حمل أفراد البيت الأموى على التخفى والهرب .

وكان ممن تمكن من الفرار منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان(٢) ومعظم المؤرخين القدامى والمحدثين يذكرون قصة هربه بصورة أسطورية كما يذكرون نبوءات تدور حول أنه سيجدد ملك بنى أمية فى المغرب وسوف أورد رواية صاحب أخبار مجموعة التى يوردها على لسان عبد الرحمن عن هذا الأمر ثم أعلق عليها بالنسبة لهربه وللتنبىء بمستقبله يقول : أخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من

---

(١) أنظر : محمد عبدالله عنان دولة الاسلام فى الأندلس صـ ١٧٩

(٢) أول أمراء بنى أمية بالأندلس يكنى أبا المطرف مولده بالشام سنة ثلاث عشرة ومائة وأمه أم ولد اسمها راح هرب لما ظهرت دولة بنى العباس ولم يزل مستترا إلى أن دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة زمن أبى جعفر المنصور جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس للحميدى صـ ٩٢٨

بدء حديث هربه قال : لما أمنا وشاع ذلك ركبت متنزها فوقع بهم وأنا غائب فرجعت إلى منزلى فنظرت فيما يصلح أهلى ويصلحنى وخرجت حتى صرت فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب وكنت قد بلغتنى رواية كان والدى رحمه الله قد هلك فى زمن جدى رحمه الله وكنت صبيا إذ هالك فأقبل بى وبأخوتى إلى الرصافة إلى جدى ومسلمة بن عبد الملك رحمه الله لم يمت بعد فنحن وقوف ببابه على دوابنا إذ سأل مسلمة عنا فقيل أيتام معاوية فاغرورقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الإثنين فالإثنين فاقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه فأخذنى وقبلنى ثم قال للقيم هاته فأنزلنى عن دابتى وجعلنى عن أمامه وجعل يقبلنى ويبكى بكاء شديدا فلم يدع بعدى من كان أصغر من أخوتى وشغل بى فلم يفارقنى فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدى فلما رآه قال ماهذا يا أبا سعيد فقال بنى لأبى المغيرة رحمه الله ثم دنا من جدى فقال له تدانى الأمر هو هذا قال أهو ؟ قال : أى والله قد عرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه . قال ثم دعا القيم فدفعنى إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها فكان جدى رحمه الله يؤثرنى ويتعاهدنى بالصلة والبعثة التى فى كل شهر وكنا بكورة قنسرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات مسلمة أبو سعيد قبله لسنتين فكانت تلك فى نفسى مع أشياء كانت تذكر فإنى لجالس فى القرية فى دار كنا فيها ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة فكنت فى ظلمة البيت وأنا أرمد شديد الرمد ومعى خرقة سوداء أمسح بها مدامعى والصبى سليمان — أى ابنه يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها إذ دخل من باب البيت فترامى فى حجرى فدفعته لما كان إلى ثم ترامى وجعل يقول لى مايقول الصبيان عند الفزع قال فخرجت فإذا أنا برايات مطلة فلم يرعنى إلا دخول أخى فلان فقال يا أخى رأيت المسودة فكنت لما فعل بى الصبى مافعل قد خرجت فرأيتهم فلم أدرك شيئا أكثر من دنانير تناولتها ثم خرجت

أنا والصبي أخي وأعلمت أخواتي أم الأصبغ وأمة الرحمن بمتوجهي وأمرتها أن يلحقني غلامي بما يصلحني أن سلمت فخرجت حتى اندست في موضع ناء عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثرا ومضينا حتى لحقني بدر ثم خرجت حتى أتيت رجلا على شاطىء الفرات وأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلحني فأنا أرقب ذلك إذ خرج عبد له أو أو مولى فدل علينا العامل فأقبل إلينا فوالله ماراعنا إلا بجلبة الخيل إلينا في القرية فخرجنا نشتد على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجنة على الفرات واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا . ارجعا لا بأس عليكما فسبحت وسبح الغلام أخي فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات فالتفت لأرفق وأصيح عليه ليلحقني فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه وعجل خاف الغرق فهرب من الغرق إلى الموت فناديته أقبل ياحبيبي إلى فلم يأذن الله بسماعي فمضى ومضيت حتى عبرت الفرات وهم بعضهم بالتجرد ليسبح في أثري ثم بدا لهم وأخذوا الصبي فضربوا رقبته وأنا أنظر وهو ابن ثلاث عشرة سنة رحمه الله ثم مضيت فهذا حديثه رحمه الله (١) .

تلك هي القصة التي ذكرتها المصادر القديمة ورددتها المراجع الحديثة للمؤرخين المسلمين والمستشرقين(٢) وهم يحرصون على ذلك كل الحرص .

---

(١) أخبار مجموعة صـ ٥١ - ٥٤

(٢) ابن قتيبة الدينوري الامامة والسياسة جـ٢ صـ ١٤٦ ابن الأثير الكامل جـ ٥ صـ ٤٩٤ ابن خلدون العبر جـ٤ صـ ١٢١ محمد عبدالله عنان دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول صـ ١٤٨ ، د/ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس صـ ١٤٨ ، دوزي تاريخ مسلمي أسبانيا صـ ١٨٤

وهروب عبدالرحمن من الشام إلى المغرب أمر وقع ولاشك فيه ولكن إحاطة قصة الهرب بطلب خيل العباسيين له وأنهم عثروا عليه فألقى بنفسه فى الفرات وسبح وأن أخاه كان معه فعندما سمع الأمان المقدم إليه وعجز عن السباحة عاد إليهم فكان نصيبه القتل على مرأى من عبد الرحمن الذى كان قد وصل إلى الضفة الأخرى . فذلك أمر يدعو إلى الشك فى الصورة التى حدث بها الهرب . لأن حرصهم على القبض عليه يدعوهم إلى أن يؤخروا قتل أخيه أمام عينيه حتى يطمئن إليهم ليقبضوا عليه كما كان من السهولة بمكان أن يعبر خلف عبد الرحمن من يريد القبض عليه خاصة وهو عار ولا يحمل سلاحا كما أن اختفاءه بعد خروجه من النهر أمر صعب عليه يسهل مهمة القبض عليه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ولم يفكر فيه مما يدعو إلى الشك فى حدوث الهرب بهذه الصورة التى يصر المؤرخون عليها ولذلك نجد ابن قتيبة لايشير إلى شىء من ذلك وإنما يقول : إن عبد الرحمن ولى ذاهبا وخرج لايدرى متى خرج فلحق بالمغرب[1] أى أن خروجه وهربه كان فى سر وكتمان ولم يعلم به أحد ويقول ابن عذارى خرج متخفيا من من موضع إلى موضع وهمه الأندلس[2]

الأمر الثانى الذى نلاحظ إصرار المؤرخين عليه الإشارة إلى قرب زوال دولة بنى أمية والبشارة بأن عبد الرحمن بن معاوية هو محى دولتهم فى المغرب . وكأن كل شىء يحدث فى الدولة الإسلامية يتعلق بنبوءة من النبوءات ولولا ذلك ما كان هناك تحرك ذاتى وأنه لولا هذه النبوءة ماحرص عبد الرحمن على أن يقوم بما قام به وهو أمر غير مقبول . علينا أن نجرد تاريخنا منه لأن العزيمة والإصرار وتحدى المصاعب الذى كان يتحلى

---

(١) ابن قتيبة الدينورى الامامة والسياسة جـ ٢ صـ ٤٧

(٢) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ صـ ٤٠ ، ٤١

به عبد الرحمن هو الذى سهل له الوصول إلى ماوصل إليه من تأسيس دولة فى الأندلس. كذلك لو كانت النبوءة قد حدثت بقرب زوال دولة بنى أمية كما يزعمون لكان ذلك داعيا لهم لكى يأخذوا حذرهم ويتبعوا أسباب الضعف حتى لاتصل الدولة إلى النتيجة التى وصلت إليها .. ولكن ذلك لم يحدث مما يدعونا إلى الشك فى مثل هذه النبوءة عن سقوط الدولة فى المشرق وعن قيام عبد الرحمن بإحيائها فى المغرب .

تمكن عبد الرحمن بن معاوية أن ينجو من تتبع العباسيين له كى يصل إلى فلسطين فمصر حيث لحق به مولاه بدر وسالم مولى شقيقته وكانا يحملان مالا وجوهرا أرسلته إليه أخته أم الأصبغ وقد توجه بعد ذلك إلى برقة ونزل على أخواله من نفزة وهم من بربر طرابلس[١] ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح وكان يحكم إفريقية آنذاك عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى سبق أن تحدثنا عنه فى ولاة إفريقية وقد ثار الفهرى على حنظلة بن صفوان حتى رحل عن إفريقية وقدم الفهرى طاعته للأمويين ثم للعباسيين عند قيام دولتهم وحاول أن يكون مستقلا بإفريقية تحت هذه الطاعة الإسمية . ولذلك نراه يتتبع الأمويين الذين لجئوا إلى إفريقية هربا من العباسيين فقتل بعضهم وهما ولدا الوليد بن يزيد كما تتبع بقية الأمويين ليقضى عليهم حتى يأمن خطرهم الذى يحذره وهو محاولتهم الثورة عليه وأخذ إفريقية منه لأنهم أصحاب ملك أخذ منهم سيعملون على إسترجاعه أو إحيائه فى منطقة من مناطق دولتهم المسلوبة .

ويذكر المؤرخون[٢] جد عبد الرحمن بن حبيب فى تقصى أخبار

---

(١) المقرى نفح الطيب ج١ ص ٣٠٧ .

(٢) انظر : ابن عذارى البيان المغرب ج٢ ص ٤١ ، دوزى تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٨٧ ، د أحمد إبراهيم شعرادى الأمويين امراء الأندلس ص ٤٥ .

عبد الرحمن بن معاوية ومحاولة القبض عليه ويذكرون مرة أخرى نبوءة يهودى له بأن ابن معاوية سوف يملك إفريقية وهكذا يحاولون أن يجعلوا أحداث التاريخ الإسلامى قائمة على التنبؤات وذلك بعيد كل البعد عن حقيقة التاريخ الإسلامى الذى يربى أبناءه على أن الغيب لايعرفه إلا الله سبحانه وتعالى مما يجعلنا نميل إلى أن الروايات التى تتعلق بالتنبؤات روايات ملفقة ومخترعة ولا أساس لها من الصحة .

حاول عبد الرحمن بن معاوية أن يبتعد عن هذا الوالى الذى يتتبع الأمويين فأخذ ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر . فيذكرون أنه ذهب إلى موضع يقال له بادى فنزل فى قبيلة مكناسة وقد نال فيها بعض الضيق[1] وقيل أنه نزل بقبيلة مغيلة عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى أبا قرة ويبدو أن رسل ابن حبيب شعروا باختفاء عبد الرحمن عند وانسوس فعملوا على تفتيش منزله ولكن زوجته تكفات البربرية عملت على إخفائه عنهم بحيلة ما ولكن ليس بالصورة التى يذكرها المؤرخون من أنها خبأته تحت ثيابها لأن ذلك غير ممكن بالنسبة لرجل جاوز العشرين من عمره . وقد أحسن عبد لرحمن إلى وانسوس وزوجته بعد أن صار أميرا للأندلس ويأبى المقرى إلا أن يورد طرفة عن الهيئة التى ذكرها لإخفاء عبد الرحمن آنذاك فيذكر أن عبد الرحمن قال لتكفات مداعبا حين استظلت بظله فى الأندلس بعد أن صار أميراً لقد عذبتنى بريح إبطيك ياتكفات على ما كان بى من الخوف وسطعتنى بأنتن من ريح الجيف فكان جوابها له مسرعة . بل ذلك كان والله ياسيدى منك ، خرج ولم تشعر به من فرط فزعك فاستظرف جوابها وأغضى عن خواجهها بمثل ذلك وهذا

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥

من آفات المزاح(١) .

ويذكر ابن الأثير وابن خلدون والمقرى أنه عندما اشتد عبدالرحمن عامل إفريقية فى طلبه أتى مكناسة فلقى عندهم شدة ثم هرب من عندهم فأتى نفزاوة وهم أخواله وقيل أتى قوما من الزناتيين فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة وأخذ فى تدبير المكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس(٢) .

تلك هى الأماكن التى تردد عليها خلال فترة إقامته فى إفريقية ويخطىء دوزى ويتبعه دكتور احمد إبراهيم الشعراوى عندما يقول : أنه لاذ حينا آخر ببلاط بنى رستم ملوك تاهرت لأن الدولة الرستمية لم تكن قد قامت بعد فكيف يلوذ بها(٣)

٣ - عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس .

مكث عبد الرحمن بن معاوية يتنقل فى إفريقية خمس سنوات لقى فيها كثيرا من الصعاب والعنت، ولكن عبد الرحمن الفهرى حاكم إفريقية الذى كان يطارده لم يستطع أن يقبض عليه ، وقد نزل ابن معاوية أخيراً عند قوم من زناته على شاطىء البحر قرب سبتة ، وكان أثناء إقامته فى إفريقية يتطلع إلى الأندلس ويدرس أحوالها وأخبارها ويرقب فرص العبور إليها .

كانت الأندلس فى ذلك الوقت يسودها الاضطراب بسبب الفتن والعصبيات القبلية بين المضرية واليمنية ورأى عبد الرحمن بن معاوية أن

---

(١) المقرى نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٣ ، عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص١٧٨ .

(٢) ابن الأثير جـ٥ الكامل ص٤٩٤ ، ابن خلدون العبر جـ٤ ص ١٢١ المقرى جـ١ ص ٣٠٧

(٣) دوزى تاريخ مسلمى أسبانيا ص١٨٨ أحمد إبراهيم الشعراوى الأمويون أمراء الأندلس ص٤٦

يستغل هذا الوضع بأن يجذب بعضهم إليه ليؤيدوه حتى يصل إلى تحقيق مايريد بأن يعيد الدولة الأموية فى الأندلس ، فأرسل مولاه بدراً بكتاب فى آواخر سنة ١٣٦ هـ إلى موالى بنى أمية فى الأندلس فنزل بدر بقرية طرش من ساحل البيرة وكانت منزل جند الشام ويجتمع فيها موالى بنى أمية . وكانت رياستهم إلى أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد فاجتمع بدر بهما وقدم إليهما كتاب عبد الرحمن[1] « يشكو فيه ماابتلوا به ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وماصنع به ابن حبيب وقومه بإفريقية ويعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه وإن تهيأ لهم مافيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه[2] » .

وقد نشط موالى الأمويين لهذا الأمر واستشاروا الصميل زعيم القيسية فى معاونة عبد الرحمن وتأييده ولكن الصميل بعد أن استجاب لنصرة ابن معاوية عاد فأبدى ترددا وفتورا واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف وأن ينزل آمنا فى ظله ثم صرفهما . وقال : إن عبد الرحمن من نسل قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة لغرقنا فى بوله ولكن خار الله لكما فى مولاكما وعلى ستر ما أودعتما فى فستر عليهما وانصرفا[3]

عمل موالى بنى أمية بعد أن يئسوا من مساعدة مضر وربيعة على دعوة اليمنية لمناصرة عبد الرحمن بن معاوية فوجد اليمنيون الفرصة لأخذ ثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة شقندة وليستردوا مكانتهم التى فقدوها فرحبوا باستقبال الأمير الأموى وأبدوا استعداد المناصرته . وكان من الزعماء اليمنيين الذين استجابوا لذلك أبو الصباح اليحصبى شيخ اليمانية

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ٢ ص ٤١ ، ابن خلدون العبر جـ٤ ص ١٢١

(٢) أخبار مجموعه ص ٦٧

(٣) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧ .

فى غرب الأندلس ومسكنه قرية مورة، وعلقمة بن غياث اللخمى وأبا علاقة الجذامى وزياد بن عمر الجذامى جد بنى زياد الشذونية وكانوا رؤساء الشاميين بشذونه ومنهم رؤساء القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بنى أضحى الهمذانيين وجد بنى حسان وبنى عمر الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين بجيان كما انضم إليهم الحصين بن الدجن العقيلى للتباعد الذى كان بينه وبين وبين الصميل بن حاتم ولم يمل من المضرية إلى عبد الرحمن بن معاوية غيره [1].

عند ذلك طلب موالى الأمويين من بدر أن يجتاز إلى عبد الرحمن ليخبره بذلك ولكن عبد الرحمن أبدى حذره وقال : ليس تطيب نفسى على دخول الأندلس إلا أن يكون معى واحد منهم [2].

عاد بدر إليهم بجواب عبد الرحمن وكانت الأمور مهيئة لقدوم عبد الرحمن حيث أن يوسف الفهرى خرج إلى سرقسطة لمحاربة عامر القرشى الذى خرج عليه فابتاع موالى الأمويين مركبا ووجهوا فيه أحد عشر رجلا مع بدر [3] حيث وصل إلى الشاطىء الأفريقى ولقى بدر مولاه وقدم إليه تقريرا سريعا عن ترحيب أنصاره به فى الأندلس من موالى الأمويين وقبائل اليمنيين كما قدم إليه الأشخاص الذين قدموا معه ومنهن تمام بن علقمة الذى قال له عبد الرحمن ما اسمك قال تمام قال وما كنيتك قال أبو غالب قال تم أمرنا وغلبنا عدونا واتخذه بعد ذلك حاجبا له [4].

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس صـ ٤٥

(٢) المرجع السابق صـ ٤٦

(٣) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ صـ ٤٤

(٤) أخبار مجموعة صـ ٧٥

هم عبد الرحمن بالدخول إلى المركب ولكن البربر أقبلت إليهم لتمنعهم من أخذ عبد الرحمن ففرق عليهم تمام بعض المال ثم اتجهوا إلى الأندلس فنزل فى المنكب فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ[1] ٧٥٥ م وعرف بعد ذلك بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من ملوك بنى أمية الأندلس (٢) .

عبد الرحمن الداخل فى الأندلس

توجه عبد الرحمن إلى الأندلس مع الركب الذى قدم لصحبته حيث أرست السفينة التى أقلته فى المنكب من شاطىء الأندلس وكان فى استقباله أبو عثمان وعبدالله بن خالد اللذان رحبا به وصحباه إلى الفنتين منزل عبدالله بن خالد ثم توجها إلى مدينة طرش من كورة البيرة منزل أبى عثمان[3] وفيها يكثر موالى بنى أمية الذين أقبلوا إليه يعلنون تأييده ومناصرته وقد أعد الأمير مايصلحه من المركب والمنزل والملبس[4] فغاظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس من كل مكان إليه وازداد أمر قوة بعد أن أخذ يوسف بن بخت البيعة له من جند الأردن ، وأخذها تمام بن علقمة من جند فلسطين ، وعبد الله بن خالد من جند حمص

وكانت رياسة العرب بكورة رية إلى جدار بن عمرو القيسى جد بنى عقيل فذهب إليه أبو عثمان وعبدالله بن خالد وأعلماه بقدوم عبد الرحمن الداخل

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ صـ ٤٤ ويذكر صاحب أخبار مجموعة أنه نزل فى آخر ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ صـ ٧٥

(٢) ابن خلدون العبر جـ ٤ صـ ١٢٢

(٣) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس صـ ٤٧

(٤) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ صـ ٤٤

فقال لهما : توافونى به مصلى أرجذونة يوم الفطر وترون ما يكون منى إن شاء الله .

فلما توافوا وأتى الخطيب قام إليه جدار فقال له : اخلع يوسف بن عبدالرحمن وأخطب لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام فهو أميرنا وابن أميرنا ثم قال : يا أهل رية ما تقولون ؟ فقالوا : نقول ماتقول فخطب وبايعوه عند انقضاء الصلاة[١] . وهكذا ابتدأت بيعة عبد الرحمن الداخل أميرا فى كورة رية ، فى يوم الفطر سنة ١٣٨ هـ ثم أتى عبد الرحمن شذونه فبايعه غياث بن علقمة اللخمى ثم أتى مورور فبايعه إبراهيم بن شجرة عاملها ثم أتى أشبيلية فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى[٢] .

ويصور ابن عذارى بدأ تكوين الجيش المؤيد لعبد الرحمن بأن تمام بن علقمة قال دخلنا رية فى ستمائة فارس فخرجنا منها فى ألفى فارس وخرجنا من أشبيلية إلى قرطبة فى ثلاثة آلاف فارس[٣] وعندما نزل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس كان يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه فى سرقسطة وبدأ يتخلص من خصومه الذين يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولولده من بعده ولكنه فوجىء بقدوم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وتأييد موالى الأمويين والقبائل اليمنية له وكان عليه أن يضع الخطط للتخلص منه وقد شاور الصميل بن حاتم فى أمره فأشار عليه بأن يتوجه إليه قبل أن يشتد ساعده

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧

(٢) ابن الأثير تاريخ الكامل جـ ٥ ص ٤٩٤ وفى نفح الطيب يسمى غياث عتاب جـ ١ ص ٣٠٧

(٣) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٤٦

بكثرة المناصرين له ولكن جيشه الذين كان قد فرغ من التغلب على الثائرين فى سرقسطة رفض أن يتابع التقدم نحو عبد الرحمن الداخل مما اضطر يوسف إلى أن يذهب إلى قرطبة وينتظر انتهاء فصل الشتاء الذى قد بدأ ورأى يوسف الفهرى أن يرسل إلى موالى الأمويين يحذرهم ويخوفهم من مناصرة عبد الرحمن الداخل والخروج عليه فأجابوه بأن عبد الرحمن الداخل إنما أقبل إليهم يريد الذى كان لجده هشام وليس فيما يظن الأمير من الخروج عليه وقدموا إليه اعتذارهم ولم يخبروه بحقيقة بيعتهم لعبد الرحمن أميرا عليهم [1].

كما أرسل يوسف إلى عبد الرحمن بن معاوية كتابا يحذره فيه من أتباعه الذين انضموا إليه وأنهم أهل غدر ونقض للإيمان المؤكدة ويعرض عليه المال وسعة السلطان والحماية وأنه لايغدر به ومن نصوص هذا الكتاب : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا وبه - جل وعلا - نستعين عليهم ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفا وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى لك ممن لجأت إليه أكنفك وأصل رحمك أنزلك معى إن أردت وبحيث تريد ، ثم لك عهد وذمته فى ألا أغدر بك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقيه ولا غيره [2] » .

وإذا تأملنا هاتين الرسالتين وجدنا أن يوسف يحذر فى الرسالة الأولى

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٦

أتباع عبد الرحمن من الانسياق خلفه وتأييده وفى الرسالة الثانية يحذر عبد الرحمن من أتباعه ويخوفه منهم وأنهم سينقضون عهده لأنهم أهل غدر ونقض للإيمان وأنه أولى بمن لجأ إليهم . وهو بهذا يحذر بعضهم من بعض ويريد أن يبذر بذور الشقاق بينهم .

وعندما لم يفلح هذا التحذير لعبد الرحمن والمؤيدين له فى إرجاعهم عما عزموا عليه أرسل إليه كتابا آخر يعرض عليه فيه أن يزوجه ابنته ويسكنه فى أى الجهتين شاء من دمشق أو الأردن أو يسكن بينهما ويصير إليه أمر الكورتين وبعث إليه بكسوتين ومطيتين وخمسمائة دينار ووجه إليه كاتبه خالد بن يزيد وقال له : « أعرف أمره وأى جند عنده وتأمل أخباره وأخبار من معه » فخرج فى الليل مع أصحابه وأصبحوا على ابن معاوية بالمال والكسوة والمطيتين ووجه أيضا إلى بدر فرساً ومائة دينار وكسوة فقبل ابن معاوية الهدية وكره التزويج فتكلم خالد بكلام غليظ لابن معاوية إذ أبى التزويج فأمر به فضم إلى وثاق ورد غيره إلى يوسف ولم يرد عليه جوابا[1] .

ومن هذه الرواية التى يذكرها ابن عذارى نجد أن عبد الرحمن رفض التزوج من ابنة يوسف مما دعا خالد بن يزيد رسول يوسف أن يتكلم بكلام غير مقبول أدى إلى فشل مهمته . وإن كان صاحب أخبار مجموعة يذكر أن خالد بن يزيد عندما قدم الكتاب إلى عبد الرحمن دفعه عبد الرحمن إلى أبى عثمان وقال : اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا ويذكر أنهم كانوا موافقين على ماعرضه يوسف إلا أن أبا عثمان عندما تهيأ ليرد على الخطاب قال له خالد بن يزيد : يا أبا عثمان لتعرقن إبطاك قبل أن تحبر فيه جوابا فضرب أبو عثمان بالكتاب وجه خالد وقال له . لاتعرق لى فيه إبط ولا أجد فيه جوابا ثم قال خذوه فأخذ وكبل من ساعته وقالوا : لعبد الرحمن هذا أول

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ صـ ٤٥

الفتح هذا سلطان يوسف كله(١).

وأميل إلى رواية ابن عذارى لأنه يذكر قبل ذلك أنه عندما أتاه كتاب الفهرى بما فيه المال والمطية وتزويجه بابنته أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه وإلا حاكمه إلى الله وقالوا له: إنما يمكر بك ولا يفي لك بشيء لأن وزيره ومالك أمره الصميل وهو غير مأمون(٢).

وهذا يدل على رفض أنصاره لعروض يوسف وأنهم مصممون على أن يتنازل له يوسف عن الملك وإلا حاكمه إلى الله وهم يقصدون بذلك القتال وهكذا فشلت المحاولات التي أبداها يوسف لخديعة عبد الرحمن ولم يبق إلا المواجهة في ميادين القتال.

٥ — موقعة المصارة والاستيلاء على قرطبة:

بدأ كل من الفريقين يستعد للقتال عندما انتهى فصل الشتاء وفشلت محاولات الصلح بينهما وكان عبد الرحمن عندما وصل إلى إشبيلية قد بلغ تعداد جنده ثلاثة آلاف فارس وأقبلت عليه المتطوعة من كل صوب من المضرية واليمنية وجند الشام(٣) فعظم جنده وبدأ في تنظيمه وإعداده للمعركة الفاصلة وكان يتكون من جند فلسطين وجند الأردن وجند حمص وكلها يمنيه وانضم إليه من القيسية جماعة على رأسهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الرجن. ولم يكن لعبد الرحمن لواء بينما كانت الاجناد قد خرجت بألويتها فلما وصل إلى قرية قلنبيره بين إقليم طشانه من كورة اشبيلية قال شيوخ الاجناد: إمام لا لواء له خطأ في

(١) اخبار مجموعة ص ٨١

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٤٦ البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦.

(٣) المقرى نفح الطيب المجلد الأول ص ٣٠٨

الرأى وعزموا على العقد له فأقبل أبو الصباح يحيى اليحصبى بقناة وعمامة وهما لرجل من حضرموت ودعوا رجلا من الأنصار تفاءلوا باسمه وعقدوا اللواء لعبد الرحمن بن معاوية بهذه القرية بين شجرتى زيتون وشهد ذلك أبو الفتح الصدفورى العابد المجاهد كما شهده فرقد السرقطى[٢] أثنا ذلك كان يوسف الفهرى قد جمع جيشه ومعظمه من القيسيه والفهرية ثم صار بحذاء الوادى الكبير لمقابلة عبد الرحمن فى طشانة فى أول ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ فتناوشا والنهر بينهما وكان ماء النهر زائدا فمنعهما من عبوره ، وقيل لعبد الرحمن أن عامة من فى قرطبة من موالى بنى أمية وهم يؤيدونه فرأى أن يسبق يوسف إليها وحاول إيهام يوسف بالبقاء فأوقد ناراً فى معسكره ثم رحل من جوف الليل وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعون ميلا فلم يسر ميلا واحدا حتى أتى يوسف من يعلمه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة فأصبحا كفرسى رهان والنهر بينهما . حتى نزل يوسف فى المصارة ونزل عبد الرحمن ببابش ، وكان جند عبد الرحمن فى ضيق من العيش حتى أصبحوا يتقوتون بالفول الأخضر، بينما جند يوسف فى رفاهية من العيش ، ومع ذلك فقد انضم إلى عبد الرحمن كل من استطاع اللحاق به من اليمنين وبنى أمية من أهل قرطبة[١] .

وقد نقص ماء النهر يوم الخميس ٩ ذى الحجة سنة ١٣٨ يوم عرفه فقال عبد الرحمن لجنده : فى أى يوم نحن ؟ فقيل له : يوم الخميس وهو يوم عرفه فقال: يوم عرفه وغدا الأضحى والجمعة وأمرى مع فهرى أرجو أنها أخت مرج راهط[٢] .

---

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٩ أخبار مجموعة ص٨٤

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ ، د عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص٤٩ :وكانت الوقيعة يوم مرج =

ويبدو أن يوسف حاول عرض الصلح على عبد الرحمن حقنا لدماء المسلمين فدعا عبد الرحمن قواد جنده وقال لهم : إنا لم نجىء للمقام وقد دعانا هذا الرجل إلى ماعلمتم وعرض ماسمعتم ورأيي لرأيكم تبع فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فاعلمونى وإن يكن فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلمونى فأصفقت اليمن كلها بأسرها على الحرب ورأت ذلك موالى بنى أمية. وعندما وثق عبد الرحمن من معرفة عزم جيشه على الحرب تظاهر برغبته فى مفاوضة يوسف وميله إلى الصلح والمسالمة مما جعل يوسف ينخدع بما أبداه عبد الرحمن من رغبه فى الصلح فلم يتعرض لجيشه عندما عبر النهر وعسكر بجواره فى المصارة .

كان عبد الرحمن قد نظم جيشه سرا قبل العبور فجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبي وعلى رجالة اليمن بلوهة اللخمى من جند فلسطين ، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصم بن عاصم العريان وعلى خيل بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى وعلى خيل من صحبه من البربر إبراهيم بن شجرة الأودى وناول أبا عثمان اللواء ونزل جماعة بنى أمية فحفوا به .

راسل يوسف عبد الرحمن فى الصلح عشية الخميس وبات عبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح وعبر يوسف عن رغبته بذبح البقر والغنم وإعداد الطعام للمعسكرين مما جعل عسكر يوسف لايشك أن الصلح قد تم . وفى الصباح من يوم الجمعة يوم الأضحى أفصح عبد الرحمن عن نيته

= راهط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهرى قائد عبدالله بن الزبير فى يوم جمعة ويوم اضحى سنة ٦٤ ودارت الدائرة لمروان على الفهرى وقتل معه سبعون ألفاً من قيس وقبائلهم .

فى الحرب وأنه لايقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف له بالإمارة باعتباره وريثاً لبنى أمية على الأندلس وهكذا أفصح عبد الرحمن عن حقيقة مطالبه ومايسعى إلى تحقيقه وعند ذلك اشتبك الجيشان فى قتال ضار عنيف وكان على خيل يوسف من أهل الشام ومضر عبيد بن على وعلى الرجالة كنانة بن كنانة الكنانى وجوش بن الصميل وعبد الله بن يوسف الفهرى وعلى خيل غلمانه وصنائعه من البربر خالد سودى .

أشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل وكان عبد الرحمن يركب فرسا أشقر وبيده قوسه وحوله مواليه فقال بعض رجال جيشه « غلام حدث فما يؤمننا أن يطير على هذا الفرس فنهلك فبلغه ذلك فنادى أبا الصباح فأقبل إليه فقال ليس فى عسكرنا بغل أوفق من بغلك وإن هذا الفرس يقلق تحتى فلا أقدر على ما أريد من الرمى من قوس فخذ فرسى وهات بغلك وإنى أحب أن تكون تحتى دابة تعرف إن حال الناس فتبادلا الدابتين واطمأنت قلوب الخائفين واشتد القتال بين الجيشين حتى انتهى بهزيمة يوسف والصميل هزيمة شنعاء وقتل واداهما وقتل عبيد الله بن على وكنانة بن كنانة وغيرهما من وجوه القيسية والفهرية وفر يوسف إلى طليطلة وفر الصميل صوب جيان واستولى عبد الرحمن على عسكر يوسف وأكلوا الطعام الذى كان قد أعده ثم دخل قرطبة منتصراً ولم يقاومه أحد وحاول حمل جنوده ما استطاع على الاعتدال والقناعة كما عمل على حماية أسر خصومه وحرمهم وأموالهم من السلب والنهب مما حمل بعض اليمنية على الغضب منه ورموه بأنه تعصب لقومه وقد صلى عبد الرحمن الجمعة بالناس فى المسجد الجامع وخطبهم لأول مرة ووعدهم بالعدل والاحسان وبويع فى الحال بالامارة ثم نزل قصر الإمارة وذلك فى يوم الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ ه

ويعتبر ذلك بداية قيام الدولة الأموية فى الأندلس[1] وقد دعا عبد الرحمن في بداية أمارته للمنصور عشرة أشهر ثم قطع الخطبة للمنصور وحمله على قطعها عبد الملك بن عمر المروانى الذى قال له: تقطع الخطبة وإلا قتلت نفسى فقطعها[2].

ولاشك أن الانتصار فى تلك الموقعة يدل على عبقرية عبد الرحمن ودهائه وحسن سياسته ومعرفته لنفسية رجاله الذين التقى بهم فى الأندلس وتمكن من أن يجذبهم إلى صفه بمشاورته لهم وبعث الطمأنينه فى نفوسهم حتى يثقوا به ويعتمدوا عليه . وقد أحكم خطة التمويه فى خداعه ليوسف حتى أعتقد أنه يميل إلى الصلح بينما هو يخطط ويدبر للحرب حتى تمكن من التغلب على يوسف وجيشه مع ما كان يتمتع به جيش يوسف من تناسق وتآلف ووفرة فى العدة والعتاد والطعام والشراب .

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار فقد كان فاتحة الكفاح لعبد الرحمن حيث كانت الأندلس آنذاك تموج بالفتن والعصبيات فلم تكن الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية بل أصبحت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة وكانت تلك القوى المتفرقة المستقلة برأيها وهواها تتمسك باستقلالها المحلى وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة ، كما كان البربر يحرصون على الاحتفاظ بما انتزعوه خلال الفتنة من النواحى والضياع ، وكان هناك ماهو أشد خطراً من ذلك على المسلمين فى الأندلس وهى المملكة النصرانية

---

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ ، ٩٠ ابن عذارى البيان المغرب ج٢ ص ٤٧ ، د / عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص١٨٩ ، ١٩٠ ، عبد الله عنان دولة الاسلام فى الأندلس ص ١٥٢ د أحمد شعرارى الأمويون أمراء الأندلس ص٨١ ، ٨٤ .

(٢) ابن الأثير تاريخ الكامل ج٦ ص ١٠ ابن خلدون اليسر ج٤ ص١٢٢ .

فى الشمال والتى استطاعت أن تتخطى بسرعة مرحلة الهزيمة والفوضى وكذلك ممالك الفرنجة التى تمكنت أثناء الفتنة من انتزاع الأراضى الاسلامية فيما وراء البرنية ، وقد حاول نصارى الشمال والفرنج الذين يتربصون بالمسلمين فى الأندلس أن يستغلوا فرصة الفرقة والضعف ليتصلوا ببعض الزعماء الخارجين عن الإمارة لتحقيق مشاريعهم فى تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان على عبد الرحمن المنتصر فى المصارة والذى لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره أن يواجه هذه الخطوب ويقارعها فقضى بقية عمره فى كفاح مستمر يخوض المعارك ويقمع الثورات ويسحق الخارجين عليه وصمد لذلك بعزم وثبات وجلد وصبر حتى قبض على مصاير الأندلس بيده القوية وازدهرت الحياة فى ظل الإمارة الأموية وتمكنه من ذلك تفرق خصومه فالتقى بهم فى الميدان فرادى فأخمد ثوراتهم وحطم قواهم حتى قضى عليهم جميعاً وازداد هو قوة ومنعة وخبرة وحنكة .

٦ — عقبات واجهت عبد الرحمن وتغلب عليها .

ا — يوسف الفهرى والصميل وكيف قضى عليهما .

لم يكن انتصار عبد الرحمن فى موقعة المصارة ودخوله قرطبة وبيعة الناس له إيذانا بأن الأمور قد تمت له ، وإنما كان عليه تتبع يوسف ومعاونه الصميل حتى يقضى عليهما خاصة وأن يوسف قد توجه إلى طليطلة وحشد فيها ما استطاع من أنصاره وساعده فى ذلك عامله عليها هشام بن عروة الفهرى ، كما توجه الصميل إلى جيان وجمع فيها أنصاره والمؤيدين له ثم اجتمعت القوتان وتوجهت إلى البيرة وكانت خطة يوسف والصميل أن أن يعملا على جذب عبد الرحمن بن معاوية من قرطبة لقتالهما فى جيان ثم يذهب عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ليحتل قصر الإمارة فى قرطبة .

وعندما علم عبدالرحمن بن معاوية بنزول يوسف والصميل فى البيرة جمع جنده وتوجه إليهما سنة ١٣٩ هـ بعد أن ترك قوة صغيرة لحماية قرطبة بقيادة أبى عثمان ، ولكنه لم يبعد كثيرا حتى هاجم عبد الرحمن بن يوسف الفهرى الذى كان مقيما فى ماردة ـ قرطبة واحتل قصر الإمارة وتمكن من القبض على أبى عثمان نائب عبد الرحمن فى قرطبة وكبله بالأغلال . وصل ماحل بقرطبة إلى عبد الرحمن فعاد مسرعا إلى قرطبة ففر ابن يوسف الفهرى إلى أبيه فى البيرة ومعه أبوعثمان عند ذلك عين عبد الرحمن على قرطبة عامر بن على وكانت له صولة وسيادة عند اليمنية ثم عاد لمواجهة يوسف والصميل بالبيرة وحاصرهما فيها فلما شعرا بعدم قدرتهما على الصمود فى وجه عبد الرحمن فاوضاه فى الصلح وأن يعترفا بإمارته ولا ينازعاه فيها على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل وأن يؤمن حلفاءهما وأعوانهما ويسمح لهما بسكن قرطبة تحت رعايته ورقابته فقبل عبد الرحمن هذه الشروط على أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد أبا الأسود رهينة لديه يعتقلهما فى قصر قرطبة حبسا جميلا ـ أى اعتقالا سياسيا ـ حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وأن يفرج عبد الرحمن عن خالد بن زيد فى مقابل أن يفرج يوسف عن أبى عثمان وتم عقد الصلح بين الفريقين فى سنة ١٤٠ هـ (١) وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة وانفض جندهما ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقفى ونزل الصميل بداره بالربض وعمل عبد الرحمن على إكرامهما وتقدير مكانتهما (٢) وأقام يوسف

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ويذكر عبدالله عنان دولة الاسلام فى الأندلس ص ١٥٦ أنه فى صفر سنة ١٣٩

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٢ - ٩٤ ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ ، عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩١ - ١٩٣ ، محمد عبد الله عنان دولة الإسلام ص ١٥٥ — ١٥٦ ، د أحمد الشعراوى الأمويون أمراء الأندلس ص ٦٢ — ٦٣ .

والصميل على أحسن حال يختلفان إلى عبد الرحمن ويحضرهما الرأى مرة بعد مرة ، ودخل يوسف الفهرى فى عسكر الأمير كأحد رجاله فأنزله على ماله وأطلق له عياله(١) .

كان لسلوك عبد الرحمن مع يوسف والصميل وعفوه عنهما وتسامحه معها ومحاولته إزالة الأحقاد من النفوس أثر فى حب أهل الأندلس له وإقبال كثير من المشارقة عليه وأقبل من المشرق فى سنة ١٤٠ هـ كثير من بنى أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا وأكرمهم وأحسن جوائزهم وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات .

مضى عام حاول فيه أنصار يوسف السابقون حمله على الثورة على عبد الرحمن الذى أزال عنهم ما كانوا يتمتعون به من رفعة ومنزلة ومازالوا به يغرونه بالثورة على عبد الرحمن حتى كاتب الناس فأما أهل الأجناد فقالوا : لا والله مانرجع إلى الحرب بعد السلم وكره الصميل وقيس ذلك وقالوا : حسبنا قد قضينا الذمام ، لا والله لانخلعه(٢) فلما يئس منهم كاتب أهل البلد(٣) وأهل ماردة ولقنت فأجابوه وكتبوا إليه بدعوته إلى أنفسهم فهرب إليهم سنة ١٤١ هـ ناكثا لعهده ناقضا للأيمان بعد توكيدها فاجتمع إليه الناس وبلغ جمعه عشرين ألفا ولما علم عبد الرحمن بهربه اتبعه الخيل وقبض على ابنته واعتقل الصميل فاحتج أنه لاذنب له ولو أنه أذنب هرب معه فلم يأخذ عبد الرحمن باحتجاجه وسجنه .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٥ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٤٨

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٥ ، ٩٦

(٣) البلديون هم العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس أثناء الفتح والشاميون هم الذين قدموا الأندلس مع بلج بن بشر

تقدم يوسف بجيشه نحو إشبيلية وحاصرها وكان واليها عبد الملك بن عمر المرواني الذي طلب من ابنه والى موردور نجدته . وكان عبد الرحمن يستعد لملاقاة يوسف ففك يوسف الحصار عن إشبيلية ليتوجه إلى عبد الرحمن ووصل والى موردور إلى أبيه فى أشبيلية وكثر جمعهما فزحفا خلف يوسف الذى رأى أن يتخلص منهما أولا حتى لايقع بين جيشهما وبين جيش عبد الرحمن . ودارت الحرب بين يوسف وبين عبد الملك وبدأت الحرب بالمبارزة فقتل مبارز يوسف . ثم حمل عبد الملك ومن معه حملة رجل واحد فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه وسار يوسف إلى طليطلة ليحتمى بها عند ابن عروة والى طليطلة فأدركه عبدالله بن عمر الأنصارى قبل طليطلة بأربعة أميال فقتله وأراح الناس من شره وحملت رأسه إلى عبد الرحمن فأمر بقتل ابن يوسف عبد الرحمن المعتقل لديه كما خنق الصميل فى سجنه وبذلك تخلص عبد الرحمن من يوسف والصميل وهى أولى العقبات فى سبيل استقرار إمارته وحكمه(١) . واستوثقت الأمور له وأمضى عبد الرحمن بن عقبة على ولاية أربونة وما اتصل بها إلى طرطوسة وولى طليطلة رجلا من ولد سعد بن عبادة الأنصارى كان ساكنا بها(٢) .

(ب) ثوار من العرب والبربر والأقارب .

لم تستقر الأمور لعبد الرحمن بعد القضاء على يوسف والصميل وإنما قامت عليه خلال عهده ثورات متعددة هى ثورة رزق بن النعمان الغسانى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٥ — ١٠٠ ؛ ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ ، عنان دولة الاسلام فى الأندلس ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٥ ، ١٩٦

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٢

وثورة هشام بن عروة الفهرى بطليطلة وثورة عبد الغافر اليمانى باشبيلية وثورة العلاء بن مغيث اليحصبى بباجة وثورة سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بلبلة ، وثورة الصباح باشبيلية ، وثورة الفاطمى بماردة ، وثورة حيوة بين ملامس فى أشبيلية ، وثورة أهل بيته عليه ، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بتدمير ، وثورة الرماحس بن عبد العزيز الكنانى فى الجزيرة ، وثورة سليمان بن يقظان الأعرابى والى برشلونة ، وثورة الحسين بن يحيى فى سرقسطة ، وثورة محمد بن يوسف الفهرى فى طليطلة ، وثورة قاسم بن عبد الرحمن الفهرى[١] .

وهذه الثورات والمؤامرات ضد الأمير عبد الرحمن الداخل[٢] تدل على حالة الفوضى المنتشرة فى أنحاء الأندلس ومدى التنافس بين القبائل المختلفة، والأحقاد المتأصلة بين زعماء تلك القبائل وحكام المدن والثغور ، وأن نزعة الانفصال كانت تهدد وحدة الأندلس، مما أتاح لأعداء المسلمين فى الأندلس خاصة الممالك المسيحية فى الشمال أن تحتل بعض المدن الشمالية وتهدد أمن المسلمين ، وسهل التدخل الخارجى سواء من جانب الفرنج أو العباسيين ولولا يقظة وحكمة عبد الرحمن وحزمه وسرعة مجابهة هذه الثورات والقضاء عليها والعمل على تقوية الدولة والعمل على وحدتها لتفتت الأندلس وسقط لقمة سائغة فى يد أعدائه وسنرى أن هذا الجهد والكفاح الدائب الذى قام به عبد الرحمن قد جمع شتات القبائل ووحد فيما بينها وجعل حكمه بداية عهد جديد فى الأندلس سار عليه أبناؤه من بعده لتشييد صرح الدولة الإسلامية فى الأندلس[٣] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١-١١٢، ابن عذارى البيان المغرب ج٢ ص ٥٠-٥٨

(٢) سمى الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بنى مروان

(٣) أنظر د / أحمد الشعراوى الأمويون امراء الأندلس الأول ص١٠٦، ١٠٧

ولا نريد هنا أن نتتبع هذه الثورات واحدة بعد أخرى وإنما سنعرض بعض هـــذه الثورات وكيف قضى عليها عبد الرحمن حتى حقق وحدة الأندلس وقوته .

١ — فقد ثار فى طليطلة هشام بن عروة الفهرى وهو قيسى من أتباع يوسف الفهرى فسار إليه عبد الرحمن وشدد عليه الحصار حتى اضطر إلى طلب الصلح وقدم ابنه رهينة فقبل عبد الرحمن إذعانه ورجع عنه . فعاد هشام إلى نقض العهد فغزاه الأمير فى السنة الثانية وشدد عليه الحصار ودعاه إلى الرجوع فلم يذعن له فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه وقذف الرأس بالمنجنيق فى المدينة ورجع عنه لانشغاله بثورة العلاء بن مغيث اليحصبى وبعد أن قضى عليها . بعث مولاه بدرا وتمام بن علقمة سنة ١٤٧ هـ فى جيش كثيف إلى طليطلة فحاصرا هشام بن عروة حصارا شديدا منعا فيه الأقوات عن طليطلة حتى مل أهل المدينة الحصار واستثقلوا الحرب وكاتبوا تماما وبدرا وسألوهما الأمان على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب وحيوة بن الوليد التجيبى وكانوا يدا واحدة فتم ذلك وحملوا إلى قرطبة وفى الطريق حلقت رءوسهم ولحاهم وألبسوا جببا صوفية وحملوا على الحمر ودخلوا قرطبة على هذه الحال وأمر عبد الرحمن بقتلهم وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة(١) .

٢ — وفى سنة ١٤٦ هـ ثار العلاء بن مغيث اليحصبى بباجة وكان من وجوهها وله بها رياسة وعصبة وكان أبو جعفر المنصور قد بعث إليه بسجل

---

(١) أخبار مجموعة صـ ١٠١ ، ١٠٤ ابن عذارى البيان جـ ٢ صـ ٥٣ ، عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس صـ ١٩٧ ، ١٩٩ عبدالله عنان دولة الاسلام فى الأندلس صـ ١٥٩ ، ١٦١

ولواء وقال له : إن كان فيك محمل لمناهضة عبد الرحمن وإلا فأبعث إليك بمن يعينك(١) . وبذلك استطاع العلاء أن يسبغ على ثورته لونا من الشرعية بتبعيتها للخلافة العباسية فدعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود فتبعه خلق كثير وتطلع أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن ولاسيما الفهرية واليمنية وجند مصر وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه ، وأقبل إليه غياث بن علقمة اللخمي من شذونة مددا لهم .

فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته وبعث بدرا مولاه ببعض القوات إلى شذونة فحاصرها فأذعن غياث لطلب الصلح ، وسار عبد الرحمن إلى قرمونة فتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته ، فسار إليه العلاء بجموعه وهاجم قرمونة مرارا وحاصره بها قريبا من شهرين فلما طال مقامهم انخزل عن العلاء أكثر من كان معه ووهنت روح قواته المعنوية ، وأدرك عبد الرحمن ذلك وكان في سبعمائة من أشداء الرجال ومشاهير الأبطال فأمر بنار فأوقدت عند الباب المعروف بباب أشبيلية ثم أمر بأجفان سيوفهم فطرحت فيها ثم قال لهم « أخرجوا معي لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع » ، وتقدم الصفوف وخلفه رجاله فانقضوا على جيش العلاء ابن مغيث فمزقوه شر ممزق وقتل العلاء مع ستة آلاف من أتباعه(٢) وأمر عبد الرحمن بحز رأس العلاء ورءوس أشراف أصحابه ووضعت فيها صكوك بأسمائهم وحمل بعضها إلى القيروان فطرح في الليل في الأسواق وحمل البعض الآخر إلى مكة مع بعض التجار الثقاة وفيه رأس العلاء ومعه السجل واللواء الذي أرسله إليه المنصور فوضعوه أمام سرادق المنصور

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ج ٥٤

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ والمقرى في نفح الطيب يذكر أنهم سبعة آلاف ج ١ ص ٣١١

الذى كان يحج ذلك العام سنة ١٤٧ هـ فلما نظر إليه المنصور قال : « إنا لله عرضنا بهذا المسكين للقتل الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان ».

وبهذه الشجاعة النادرة التى أبداها عبد الرحمن وأنصاره استطاع أن يقضى على هذه الثورة الخطيرة التى كانت تدعمها الخلافة العباسية معنويا وتضفى عليها ، الصبغة الشرعية وجمعت كثيرا من خصوم عبد الرحمن تحت لواء واحد(١) .

٣ — وفى سنة ١٥٢ هـ قامت ثورة من البربر فى شمال شرقى الأندلس وكان زعيمها داعية بربرى خطر يدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة وكان فقيها يعلم الصبيان وزعم أنه من ولد الحسن بن على رضى الله عنه وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمى وتسمى بعبد الله بن محمد فذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة وكانوا أكثرية ، وكانوا على استعداد لحمل السلاح إذا مادعاهم إلى ذلك أحد من بنى جنسهم فاستطاع بهم أن يستولى على شنت بريه وجعلها مركزه العام ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين فعظم خطره وهزم الكتائب التى أرسلها إليها حاكم طليطلة . فزاد ذلك فى سلطانه وبغيه فسار إليه عبد الرحمن بنفسه واقتحم منطقة الثورة ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة وامتنع الثائر بالجبال فرجع عبد الرحمن عن مطاردته إلى قرطبة وأرسل مولاه بدرا ليتابع القتال مع الثائر البربرى فاستمر الفاطمى متنعا بصحبه فى الجبال لا يريد لقاء الجيش المهاجم .

---

(١) ابن القوطية افتتاح الاندلس ص ٥٤ . ٥٥ أخبار مجموعة ص ١٠٢ - ١٠٣ ابن عذارى البيان ج٢ ص ٥١ - ٥٢ عنان دولة الاسلام ص ١٦٠ - ١٦١ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٧ - ١٩٨ ، أحمد الشعراوى الامويون امراء الاندلس الاول ص ٩٧ - ٩٩ .

وقد فشلت الحملات المتوالية في القضاء على الثائر البربري في تلك المنطقة الوعرة فعاد عبد الرحمن سنة ١٥٥هـ بجيش إلى شنت برية وقدم عليه هلال المديوني كبير البربر في شرق الأندلس فكتب له عهدا على قومه وأقره على موضعه وعهد إليه بولاية الأعمال التي غلب عليها الفاطمي وفوض إليه أمر استخلاصها منه وكان لذلك أثره في بث الخلاف بين البربر ، فانفض عن الفاطمي كثير من انصاره واضطر أن ينسحب من شنت برية ليعتصم بالجبال في الشمال مرة أخرى وكانت مشاكل عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثائر والعودة إلى قرطبة للبت في أمر دولته مما جعل هذه الثورة تظل مشتعلة قرابة عشر سنوات كما كان للأسلوب الذي يتبعه الفاطمي من تجنب المعارك والفرار إلى قمم الجبال إذا شعر بالخطر من عـــوامل بقائها كذلك ، ولم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له اثنان من أصحابه بمساعدة الزعيم البربري الآخر هلال المديوني فقتلاه وأخذا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن في قرطبة، وبذلك انفضت جموعه وخبت ثورته بعد أن مكثت عشر سنوات تحمل الدمار وتسفك الدماء في شرق الأندلس وتهدد سلطان عبد الرحمن، وحققت الخيانة في لحظة واحدة مالم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة وكان مصرع الفاطمي وانتهاء ثورته في سنة ١٦٠ هـ[١]

٤ — مؤامرات اشتركت فيها القوى الداخلية والخارجية :

بينما كان عبد الرحمن يواجه هذه الثورات المتلاحقة التي يقوم بها الثوار

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٧ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ . ابن خلدون العبر جـ٢ ص١٢٣ . عبد الله عنان دولة الاسلام ص١٦٢ - ١٦٥ ، أحمد شعراوي الأمويون امراء الأندلس ص ١٠٠ - ١٠٢ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٢٠٠ .

بالداخل ويقضى عليها واحدة تلو الأخرى ويثبت دعائم إمارته ويقوى أركانها إذا ببعض الثوار يتحكم الحقد فيهم ويملأ السخط نفوسهم فلا يهمهم إلا تحقيق أهوائهم ومصالحهم الشخصية فيتصلون بقوى خارجية من أجل القضاء على الإمارة الأموية .

فقد استعان عبدالرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى - لطوله وزرقته وشقرته - بالبربر فى إفريقية وعبر إلى تدمير وثار فيها ودعا للعباسيين وكاتب سليمان بن يقظان الكلبى (الأعرابى) وكان ببرشلونة ودعاه إلى الدخول فى أمره فأجابه : بأنه لايدع عونه ولكن ذلك لم يرق للفهرى وتوجه لغزوه ، ولكن الأعرابى تمكن من هزيمته فعاد الفهرى إلى تدمير[1] ، وواصل الثورة فيها فخرج إليه الأمير عبد الرحمن واشتد فى قتاله فلجأ إلى الجبال يحتمى بها فبسط عبد الرحمن سلطاته فى كورة تدمير وتقدم إلى كورة بلنسية بعد أن أحرق المراكب بساحل البحر حتى لا يمكنه من الهرب ودس عبد الرحمن على الصقلبى مشكارا البربرى فتمكن من اغتيال ابن حبيب الصقلبى وحمل رأسه إلى عبدالرحمن وبذلك انهارت دعوته وثورته سنة ١٦٢ ، ١٦٣ هـ[2].

أما الثورة الثانية فقد قام بها سليمان بن يقظان الكلبى الأعرابى حاكم برشلونة ، والحسين بن يحيى بن سعيد بن عبادة الأنصارى والى سرقسطة وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه فأرسل إليهم عبد الرحمن جيشا بقيادة ثعلبة ابن عبيد الجزامى فهزمه سليمان وأسر قائد الجيش واتسعت الثورة فى الشمال ولكن سليمان لم يطمئن إلى هذا النصر خوفا من عبدالرحمن ورأى الاستعانة

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠ .

(٢) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ٥٦ ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ٥٤

بملك الفرنج شارلمان فأرسل إليه يستقدمه إلى شمال الاندلس واعدا إياه بتسليم برشلونة أو سرقسطة إليه وبعث إليه بالقائد المأسور ثعلبة بن عبيد، أغتنم شارلمان الفرصة فعبر جبال البرانس بجيش كبير واستولى على بنبلونة من البشكنس وكان يهدف إلى أن يسيطر على شمال الأندلس. وقد استقبله سليمان وسار معه إلى سرقسطة وهما يعتقدان أنها ستفتح أبوابها لشارلمان. ولكن حاكمها الحسين بن يحيى الأنصارى خشى عاقبة محالفة الأفرنج كما أن أهل سرقسطة صمموا على الصمود والقتال وقدموا الشهداء دفاعا عن مدينتهم مما جعل شارلمان يفكر فى العودة بعد عجزه عن الاستيلاء على سرقسطة وقد شك فى نية سليمان وموقفه فقبض عليه.

وأثناء عودته تعرضت مؤخرة جيشه لهجمات المسلمين بقيادة ابنى سليمان والبسكنس فى جبال البرنية فخلصوا الأسرى منهم، كما فتكوا بمؤخرة الجيش وقتلوا كثيرا من كبار القواد.

عاد سليمان إلى سرقسطة وبعد فترة قتله الحسين الأنصارى الذى ظل ثائرا ضد الأمير عبد الرحمن الذى خرج إليه فى جيش كبير وحاصره حصارا شديدا اضطر الحسين إلى طلب الصلح وأرسل ابنه رهينة فقبل منه عبد الرحمن ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ولكنه عاد وغدر فى عهده فعاد الأمير إلى حصاره ونصب على المدينة ستة وثلاثين منجنيقا من كل جانب وضاق أهلها بالحصار فاتصلوا بعبد الرحمن وسلموا إليه الحسين بن يحيى الثائر فقتله وانتهت بذلك ثورته (١).

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج٢ص٥٦،٥٧ أخبار مجموعة ص ١١٢-١١٤ د عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٠٢ — ٢٠٥ عنان دولة الاسلام ص ١٦٦ — ١٨١ ، أحمد الشعراوى الأمويون امراء الأندلس ص١٠٢ — ١٠٦.

وقد حاول دوزى[1] وتبعه عبد العزيز سالم، احمد الشعراوى أن يوجدوا ترابطا وتحالفا بين ثورة سليمان بن يقظان وثورة عبد الرحمن الصقلبى وبرطوا كذلك بين العباسيين وشارلمان فى هذا التحالف من أجل القضاء على عبد الرحمن الداخل فى الأندلس لمصلحة كل منهما فى القضاء عليه .

ولا نميل إلى الأخذ بهذا الرأى الذى يطعن فى الخلافة العباسية ويتهمها بالتحالف مع الفرنجة للقضاء على عبد الرحمن الداخل فى الأندلس حيث لم تشر إلى ذلك المصادر العربية من قريب أو بعيد ، ولن يحمل العداء بين العباسيين والأمويين فى الأندلس العباسيين على التحالف مع الأفرنج حتى يقضوا على الأمويين فى الأندلس لأن قضاء الأفرنج عليهم لن يسفر عن ضم الأندلس إلى الدولة العباسية .

٧ — منزلة عبد الرحمن وإصلاحاته :

بعد عمر قارب الستين عاما توفى عبد الرحمن بن معاوية الأموى يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ[2] بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاما قضاها فى حركة دائبة أقام فيها الإمارة الأموية فى الأندلس وأرسى دعائمها وحافظ عليها ضد الخارجين عليها حتى ثبتت أركانها وعلا بنيانها، وعاونه وأيده خلال رحلة بناء إمارته أنصاره من موالى بنى أمية واليمنية وبعض القيسيين وأهل البلاد الأصليين

وكان عبد الرحمن راجح الحلم فاسح العلم ثاقب الفهم كثير الحزم نافذ العزم بريئا من العجز سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه متصل الحركة لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ثم لا ينفرد

---

(١) دوزى تاريخ مسلمى أسبانيا ص ٢٢٨ : ٢٣٣

(٢) ابن عذارى البيان جـ٢ صـ ٥٨ .

فى إبرامها برأيه شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر قليل الطمأنينة بليغاً مفوها شاعرا محسننا سمحا سخيا طلق اللسان(١) .

ولاشك أن هذه الصفات الحيدة التى وصف بها ابن حيان عبد الرحمن قد استمدها من سلوك عبد الرحمن وتصرفاته أثناء أمارته وتغلبه على المصاعب والأهوال خلال فترة حياته حتى حقق مايصبوا إليه من إمارة قوية واسعة . وقد حملت صفات عبد الرحمن وأفعاله أباجعفر المنصور العباسى على وصفه بصقر قريش فقد قال المنصور يوما لبعض جلسائه : أخبرونى : من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الادواء ! قال : ماقلتم شيئا ! قالوا : فمعاوية ؟ ق : لا قالوا فعبد الملك بن مروان ؟ قال : ماقلتم شيئا . قالوا : ياأمير المؤمنين ! فن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن ابن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه وطد الخـــلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين(٢) .

وهى شهادة من خصم قارن فيها أبو جعفر بينه هو ومعاوية وعبدالملك وبين عبد الرحن وحكم لعبد الرحمن بأنه الجدير بلقب صقرقريش لماتصف به من صفات وقام به من أعمال .

---

(١) نقله المقرى فى نفح الطيب عن ابن حيان جـ ٢ صـ ٦٧ كما ذكره عنان دولة الاسلام ص١٩٢

(٢) ابن عذارى جـ٢صـ ٥٩ ، ٦٠

وقد عمل عبد الرحمن على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الانقياد والخضوع للدولة وليس للعصبية أو القبيلة وقد بذل فى سبيل ذلك جهدا كبيرا منذ دخوله قرطبة منتصرا ، كما عمل على تنظيم الجهاز الحكومى فانشأ منصب الحجابة وأسندها إلى تمام بن علقمة ثم ولاها يوسف بن بخت ثم عبد الكريم بن مهران ثم عبد الحميد بن مغيث ثم منصور فتاه الذى ظل فيها حتى وفاته . وكان يختص بمشورته ومعاونته فى شئون الحكم أربعة يطلق عليهم ابن عذارى لقب وزراء(١) وهم عبدالله بن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، ويوسف بن بخت ، وحسان بن مالك . وقد تولى قيادة عسكره مولاه بدر ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المروانى وثعلبة بن عبيد وغيرهم وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش فى معظم الوقائع والحروب التى قامت بينه وبين خصومه . كما أسند الولاية على المدن والأقاليم والثغور إلى من يثق فيهم من مؤيديه وذوى رحمه الوافدين عليه . وسار على سياسة الاعتدال والمهادنة بالنسبة للنصارى (المستعربين) وعين رئيسا عاما لهم باسم القمص (القومس) يقيم إلى جواره فى قرطبة ويستشيره فى كثير من الأمور(٢) .

كما اهتم عبدالرحمن بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزقة من كل صوب . وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من الموالى والبربر والرقيق ويبلغ قرابة أربعين ألفا واهتم فى أواخر عهده بالقوات البحرية فانشأ عدة قواعد لبناء السفن فى طركونة وطرطوشة ، وقرطاجنة وأشبيلية

---

١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) ابن القوطيه تاريخ افتتاح الاندلس ص ٥٨ ، أحمد بدر دراسات فى تاريخ الأندلس حضارتها ص ٩٧

وغيرها (١) .

ووجه عبد الرحمن عنايته لنشر العدل بين الرعية وفض الخصومات بينها وقلد القضاء في عهده يحي بن يحي التجيبي، ومعاوية بن صالح ، وعبد الرحمن بن طريف وعمر بن شراحيل ، والمصعب بن عمران وكان له قاض خامس في صوائفه يسمى جدار بن مسلمة بن عمرو المزحجي(٢) .

ومع كثرة الأعباء التي ألقيت على كاهل عبد الرحمن لم يغفل الناحيه المعمارية فاهتم بقرطبة عاصمة أمارته فحصنها بسور وجملها وانشأ في شمالها قصرا ضخما تحيط به الحدائق وسمى تلك الضاحية بالرصافة تخليدا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام . وقد جعلها عبد الرحمن مقاما ومتنزها ومركزا للإمارة .

وأنشأ في قرطبة وبقية المدن مساجد كثيرة وفي سنة ١٧٠ هـ بدأ بإنشاء المسجد الأموى الجامع بقرطبة وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد وقد توفى عبد الرحمن قبل إتمامه فأتمه ابنه هشام وزاد فيه ولاة بني أمية من بعده حتى صار أعظم مساجد الأندلس وقد انفق عليه عبد الرحمن في عهده مائة ألف دينار ، كما أنشأ عبد الرحمن في قرطبة دارا للسكة تضرب فيها النقود حسب ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزناً ونقشاً (٣) .

وحسبي في النهاية أن أورد ما ذكره ابن حيان عنه : بأنه دون الدواوين

---

(١) المقرى نفح الطيب جـ ٢ صـ ٦٧ ، ٧٤ نقلا عن عنان دولة الاسلام صـ ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) ابن عذارى البيان جـ ٢ صـ ٤٨

(٣) أنظر عنان دولة الاسلام صـ ١٩٧ ، ١٩٨

ورفع الأوادين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد فأقام الملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له البلاد واستقل له الأثر فيها[1]، وقول أبى جعفر المنصور عنه بأنه « فتى قريش الأحوذى[2] الفذ فى جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسية حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبه إليه بالرهبة منه إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لايكذب مادحه .

وكان الداخل جم التواضع يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل إليه من اراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه[4] .

واختم حديثى عن مؤسس الدولة بشعره العذب الرقيق الذى يصور رقة نفسه وشدة حنينه إلى موطنه فى الشام :

---

(١) نقلا عن نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

(٢) الأحوذى : السريع فى كل ما أخذ فيه .

(٣) نقلا عن نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠

(٤) نفح الطيب المقرى ج ١ ، ٣١٠ ، ٣١١

أيها الراكب الميمم أرضى
أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعاد علينا
فعسى باقترابنا سوف يقضى(١)

---

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٦٠

الفصل السابع

امراء بنى أمية فى الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل

١ — هشام بن عبد الرحمن[1] ١٧٢ — ١٨٠ هـ ٧٨٨ — ٧٩٦ م

تولى إمارة الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام بعهد منه وكان لعبد الرحمن أحد عشر ولدا فآثر هشاما بولاية العهد لاقتناعه بأنه الجدير بولاية العهد من بين أبنائه . ويتفق على إسناد ولاية العهد إليه ابن الأثير[2] وابن خلدون[3] والمقرى[4] وكان هشام حين وفاة أبيه مقيما بماردة مقر ولايته ، وكان أخوه عبدالله المعروف بالبلنسى حاضرا بقرطبة لدى والده وكان أكبر إخوته سليمان بمدينة طليطلة واليا عليها . فلما توفى عبد الرحمن جدد عبدالله البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده وكتب إلى أخيه هشام يعرفه بموت والده والبيعة له فتوجه هشام إلى قرطبة فدخلها بعد ستة أيام وتولى مقاليد الإمارة وبايعه الخاصة والعامة .

هذا ما نميل إليه بالنسبة لإسناد ولاية العهد إلى هشام ولا نأخذ بما يذكره ابن عذارى بقوله : وقيل إن عبد الرحمن بن معاوية لما حضرته الوفاة وابنه هشام بمارده وابنه الآخر سليمان بطليطلة وكل ابنه عبدالله المعروف بالبلنسى وقال له : « من سبق إليك من أخويك فارم إليه بالخاتم والأمر فإن سبق هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه وإن سبق إليك سليمان

---

(١) ولد بمدينة قرطبة فى شوال سنة ١٣٩ هـ وأمه أم ولد تسمى حلل وقيل جمال وتوفى فى صفر سنة ١٨٠ هـ وكان عمره أربعين سنة .

(٢) الكامل جـ ٦ صـ ١١٢

(٣) العبر جـ ٤ صـ ١٢٤

(٤) نفح الطيب جـ ١ صـ ٣١٣

فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين إليه(*) ، لأن ذلك ينافى ما اتفق عليه ابن الأثير وابن خلدون ، ثم إن المعروف عن عبد الرحمن البت فى الأمور فهو لا يترك أمر الإمارة يتحكم فيه من سبق إلى قرطبة ، ثم إن هذا الوضع يثير الفتنة بين الأخوة ويجعل المتأخر منهما فى الوصول إلى قرطبة يطالب السابق إليها بحقه وهذا يؤيد أن ولاية العهد كانت لهشام وحده .

الثورات الداخلية فى عهده :

عندما تمت البيعة لهشام وتولى مقاليد الامارة فى قرطبة ثار عليه أخوه الأكبر سليمان وكان واليا على طليطلة فدعا لنفسه فيها وفيما جاورها ثم لحق به أخوه عبدالله البلنسى فى طليطلة مما حمل هشاما على أن يذهب بجيش لحصارهما فى طليطلة ولكن سليمان خرج مستخفيا إلى قرطبة ليتولى الأمور فيها وقد فشل فى ذلك لأن هشاما أرسل إليه ابنه عبد الملك فى جيش لمطاردته ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية) وبعد حصار دام شهرين لطليطلة عاد هشام إلى قرطبة وشعر عبدالله بفشل الثورة فقدم إلى هشام فى قرطبة يلتمس صفحه فعفا عنه وأكرم مثواه ، وأرسل هشام جيشا بقيادة ابنه معاوية إلى تدمير لتعقب أخيه سليمان وضيق عليه الخناق حتى طلب الأمان فوافق هشام على طلبه على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب وأعطاه ستين ألف دينار مصالحة على تركة أبيه عبد الرحمن ، وسار معه أخوه عبدالله وأقاما بعدوة المغرب وانتهت بذلك ثورة الأخويين سنة ١٧٤ هـ(٢) .

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٦١

(٢) ابن الأثير الكامل جـ٦ ص ١١٦ ، ١١٧ ، ابن عذارى البيان جـ٢ ص ٦٢ ، ٦٣ ابن خلدون جـ٤ ص ١٢٤ عنان دولة الإسلام ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وقد حاول بعض الموتودين من عبد الرحمن الثورة على ابنه هشام فقد ثار سعيد بن الحسين الأنصارى بطرطوشة وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه والتفت حوله اليمانية وأخرج عامل هشام يوسف العبسى فعارضه موسى بن فرتون فى المضرية داعيا لهشام حتى تمكن منه وقتله(١) ، كما ثار عليه مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة وكثر جمعه فاستولى على سرقسطة ووشقه فبعث إليه هشام جيشا بقيادة عبيد الله بن عثمان فضيق الحصار على سرقسطة حتى ضاق أهلها ذرعا بالحصار . فخرج مطروح فى بعض الأيام متصيدا فاغتاله صاحباه عمروس بن يوسف وابن صلتان واحتزا رأسه وقدماه إلى ابن عثمان الذى تقدم إلى سرقسطة فدخلها وبعث الرأس إلى هشام سنة ١٧٥ هـ وانتهت بذلك الثورة فى الشمال .

وهناك ثورة أخرى قام بها البربر فى منطقة رندة المعروفة بإقليم تاكرنا سنة ١٧٨ هـ حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فدعاهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسيرا إليهم جيشا كبيرا بقيادة عبد القادر بن أبان مولى معاوية بن أبى سفيان فشتت جموع البربر وقتل كثيرا منهم وخرب ديارهم حتى صارت بلقعا سبع سنين وبالقضاء على تلك الثورة استقرت الأمور الداخليه فى البلاد(٢) .

الحروب الخارجية :

كانت الثورات الداخلية التى قامت فى الأندلس أيام عبد الرحمن وهشام دافعا للدول والإمارات المسيحية فى الشمال لكى يغيروا على حدود الأندلس

(١) ابن الأثير الكامل حـ ٦ ص ١١٧ : ١١٨
(٢) ابن الأثير الكامل جـ ٦ ١٤٤ ، ابن عذارى البيان حـ٢ ص ٦٤

ويقتطعوا منها الأجزاء كما كان لبعض هذه الدول أصابع فى تحريك بعض هذه الثورات وتشجيعها على مواصلة الفتنة . لذلك كان على هشام بعد أن استقرت أموره الداخلية أن يتوجه بجيوشه إلى تلك الدول التى تعمل على إثارة الفتن الداخلية وتعمل على إضعاف المسلمين والاستيلاء على أراضيهم .

فى سنة ١٧٥ ﻫ سير هشام إلى الشمال جيشا كبيرا بقيادة عبيدالله بن عثمان فوصل إلى ألبة والقلاع حيث اصطدم بالنصارى فهزمهم وشتت جموعهم وقتل منهم تسعة آلاف ، كما سير فى نفس العام جيشا آخر بقيادة يوسف بن بخت فتوجه إلى جليقية حيث التقى بملكها برمود الكبير ملك استوريش حيث دارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون وقتلوا من عدوهم عشرة آلاف وغنموا منهم غنائم كثيرة .

وفى سنة ١٧٧ ﻫ أعد هشام جيشا كبيرا بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فتوجه إلى الشمال حيث وصل إلى جرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم استولى على عدد من المعاقل والحصون ونفذ إلى سبتمانيا زحف على أربونة قاعدة الثغر الاسلامى القديم فاستولى عليها وبقى الجيش شهورا يجوس خلال بلادهم يخرب الحصون ويحرق ويغنم وفر العدو من أمامه ثم عاد الجيش إلى قرطبة ظافرا محملا بالغنائم التى بلغ خمس السبى فيها خمسة وأربعين ألفا من الذهب وتعد هذه الغزوة من أشهر مغازى المسلمين بالأندلس وأرغم أسرى النصارى على حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة حيث بنى منها جزء فى جامع قرطبة تخليدا لتلك الغزوة الشهيرة(١) .

وفى سنة ١٧٩ ﻫ أرسل هشام جيشا كثيفا إلى جليقية بقيادة عبد الكريم

---

(١) ابن الأثير الكامل ج٦ ص١٣٥ ، ابن عذارى البيان ج٢ ص٦٤ ، ابن خلدون العبر ج٤ ص١٢٥ ، عنان دولة الإسلام ص٢٢٤

من عبدالواحد بن مغيث[1] فتوغل فى جليقية حتى بلغ استرقة وكان أذفونش ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين واستعان بحلفائه من البشكنس وأهل تلك النواحى وأمر سكان السهل بالصعود إلى الجبال ووضع كمائن ضخمة من فرسانه فى قمم الجبال حتى تأخذ المسلمين على غرة ولكن قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده فرج بن كنانة فى أربعة آلاف فارس وسار على أثره فالتقوا بكمين الجلالقة وتمكنوا من هزيمته وبثوا الخيل فى القرى ثم تقدموا إلى وادى كوتية فالتقوا بكمين آخر من ثلاثة آلاف فارس بقيادة غندماره فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم ثم تتبعوا أذفونش ملك جليقية حتى وصل إلى عاصمة ملكه فتبعه فرج بن كنانة فى عشرة آلاف فارس فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته وذخائره فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قوى الجلالقة وقد حققت هذه الغزوة الغرض ببث الذعر فى نفوس الجلالقة فسكنوا إلى حين وساد الأمن فى الولايات الشمالية[2]

الإصلاحات فى عهده:

فى عهده قضى على الفتن الداخلية فساد الأمن والاستقرار فى ربوع الاندلس وحمى حدود الدولة ورفع راية الجهاد ووجه الحملات المتتالية إلى أعدائه فى الشمال فارتفعت راية الاسلام عزيزة قوية وهابه جيرانه حتى أن رجلا مات فى أيامه فأوصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته فطلب ذلك فلم يوجد فى دار الكفار أسير يشترى ويفك لضعف العدو وقوة

---

(١) ابن الأثير الكامل حـ ٦ ص ١٤٦ ، وابن خلدون العبر حـ ٤ ص ١٢٥ يذكر أن اسم القائد هو أخوه الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٢) ابن عذارى البيان حـ ٢ ص ٦٤ ، ٦٥ ابن الأثير الكامل حـ ٦ ص ١٤٦ ابن خلدون العبر حـ ٤ ص ١٢٥

المسلمين[1] ولم يستشهد فى عهد هشام أحد من جنده فى شيء من ثغوره أو جيوشه إلا ألحق ولده فى ديوان أرزاقه وخصص رزقا لأسرته[2].

وقد اهتم هشام بالعمارة فأتم مسجد قرطبة الجامع الذى بدأ أبوه بإنشائه وتوفى قبل إتمامه كما أنشأ عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بعدد من الأبنية والحدائق الفخمة وجدد قنطرة قرطبة وانفق فى بنائها أموالا عظيمة وأشرف على بنائها بنفسه وعندما قال الناس: إنما بناها لتصيده ونزهته حلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة وفى عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس ومعاهد النصارى واليهود وكان لذلك أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة وبث روح التفاهم والوئام بينها ولاسيما بين المسلمين والنصارى مما جعل كثيرا من النصارى يعتنقون الإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين[3].

وقد عمل هشام على نشر العدل فى أنحاء البلاد متحريا الحكم بالسنة والكتاب فقبض الزكوات من طرقها ووضعها فى حقها لم يأخذه فى الله لوم ولا تعلق به ظلم، وكان يبعث إلى الكور قوما عدولا يسألون الناس عن سير العمال حتى ينتشر العدل ومما يدل على انتشار العدل فى عهده أنه كان لبعض رجال هشام خصومة فى دار عند القاضى مصعب بن عمران فسجل عليه القاضى فيها وأخرجه منها فنهض الرجل إلى هشام وقال له : إن القاضى سجل على فى دارى التى كنت أسكنها وأخرجنى منها . فقال له هشام : وماذا تريد منى ؟ والله لو سجل على القاضى فى مقعدى هذا لخرجت عنه انقيادا منه للحق[4].

وفى عهده ذاع مذهب الإمام مالك الذى كان معاصرا له ، وكان هشام

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١٤٨ (٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠

(٣) عبد الله عنان دولة الإسلام ص ٢٢٦ .

(٤) ابن عذارى البيان ج٢ ص٦٦ .

كثير الإجلال لمالك ومذهبه فانتشر مذهب مالك فى الأندلس وكانوا قبل ذلك يعلمون بمذهب الأوزاعى إمام أهل الشام . وقد قرب الفقهاء ورجال الدين وأسند إليهم كثيراً من المناصب وكان صاحب شرطته. عبد الغافر بن أبى عبيدة ووزراؤه ثمانية و كتابه اثنان : فطيس بن عيسى وخطاب بن زيد. وقاضيه المصعب بن عمران (١) .

وتوفى هشام فى صفر سنة ١٨٠ هـ وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، وكان متصفا بالرأى والشجاعة والعدل وحب أهل الخير والصلاح ، والشدة على الأعداء والرغبة فى الجهاد(٢) ،

٢ — الحكم بن(٣) هشام : ١٨٠ — ٢٠٦ هـ ٧٩٦ - ٨٢٢م

تولى إمارة الأندلس بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه فى صفر سنة ١٨٠ هـ وعمره ست وعشرون سنة وهو ثالث أمراء بنى أمية بالأندلس وقد عمل على حماية الدولة ونشر الأمن فيها فحارب الثوار فى الداخل ودافع المهاجمين من الخارج بجيش قوى أعده لذلك وحرص على العدل والإنصاف بين الرعية حتى أذعنت له الاندلس كلها بالطاعة ولم يختلف عليه فيها مختلف ولذلك خاطب ابنه عبد الرحمن ولى عهده فى أواخر عهده بقوله :

فهاك سلامى إننى قد تركتها
مهادا ولم أترك عليها منازعـا

---

(١) المرجع السابق ص ٦١

(٢) ابن عذارى البيان جـ٢ ص ٦٥ ، ٦٦ ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ١٤٨ ابن خلدون جـ٤ ص ١٢٥ عنان دولة الإسلام ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) كنيته أبو العاصى أمه زخرف ولد سنة ١٥٤ وبويع وعمره ست وعشرون سنة، وتوفى سنة ٢٠٦ هـ بعد أن حكم ستا وعشرين سنة وأحد عشر شهراً.

الثورات الداخلية فى عهده

كانت أولى الثورات التى واجهها الحكم عقب توليه الإمارة ثورة عميه سليمان وعبيد الله اللذين كانا قد نفيا إلى المغرب فى عهد أبيه هشام. وعقب تولى الحكم الإمارة عبر عبد الله إلى الاندلس قاصدا الثغر الاعلى[1] الذى يكن أهله كراهية للأمير الجديد فنزل سرقسطة عند بهلول ابن مرزوق الثائر على الامير الحكم سنة ١٨١ هـ ولكنه لم يجد هناك من يريده لمبايعته وعزل الحكم فعبر جبال البرنية إلى بلاد الفرنج طالبا عون شارلمان أما سليمان فقد عبر إلى الاندلس سنة ١٨٢ هـ واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة ولكن الحكم تمكن من التغلب عليه، فعاود سليمان القتال والتقى مع الحكم فى بنجيطه فهزم سليمان ولكنه مع ذلك عاود القتال للمرة الثالثة وجمع جيشا من البربر سنة ١٨٣ هـ وتوجه إلى استجة فسار إليه الحكم ودرات بينهم حروب شديدة لعدة أيام ثم انهزم سليمان بمن كان معه ولكنه عاود القتال فى العام نفسه فهزم أيضاً، وفى سنة ١٨٤ هـ حشد سليمان جيشا من شرق الاندلس واستولى به على جيان ثم البيرة وانضم إليه جماعة من سكانها فقصده الحكم بجيشه ودار القتال بينهما عدة أيام كادت الهزيمة أن تحل خلالها بالحكم إلا أنه تغلب فى النهاية على سليمان الذى فر من المعركة بعد أن ترك على أرض المعركة عددا كبيرا من أنصاره، وبعث الحكم فى أثره أصبغ بن عبد الله بن وانسوس فلحقه بجهة ماردة وقبض عليه وأتى به إلى الحكم فأمر بقتله سنة ١٨٤ هـ وطيف

---

(١) الثغر الاعلى يشمل عدا سرقسطة، لاردة وتطيلة ووشقة وطرطوشة وطركونة وغيرها وتقابل ارجوان من ولايات اسبانيا الحديثة، وسميت طليطلة وأعمالها بالثغر الاوسط لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) عنان دولة الإسلام ص٢٨٨ .

برأسه فى قرطبة ثم أمر الحكم بدفن عمه سليمان فى مدافن الأسرة فى قرطبة، أما عبد الله بن عبد الرحمن فبعد عودته من بلاد الفرنجة توجه إلى بلنسية حيث أيده أهلها فأقام بها شبه مستقل بعد أن عفا عنه الحكم وصالحه سنة ١٨٦ هـ على أن يقيم بقية عمره فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه وقد ظل بها حتى عرف بعبد الله البلنسى وبعث عبدالله إلى الحكم بابنه عبيد الله فزوجه الحكم أخته وولاه قيادة جيوشه فعرف بصاحب الصوائف، وتخلص الحكم بذلك من أولى الثورات المعارضة لحكمه والتى أثارتها الأحقاد العائلية للسيطرة على الحكم.(١)

وفى سنة ١٩٠ هـ قامت ضد الحكم ثورة فى ماردة بقيادة أصبغ بن عبدالله بن وانسوس بسبب وشاية قام بها أحد أعداء أصبغ بين الحكم وبينه فخاف أصبغ وتوقع العقوبة والسطوة من الحكم فدخل ماردة وثار بها والتف حوله العرب، فخرج إليه الحكم وحاصره ولكنه اضطر لفك الحصار عنه والعودة إلى قرطبة لفتنة قامت فيها ثم تابع الحكم الحملات إلى ماردة سبع سنين وأخيرا استمال جماعة من أهل ماردة وبعض ثقاة أصبغ فمالوا إلى الحكم وفارقوا أصبغ مما دعاه إلى طلب الأمان من الحكم فأمنه وخرج من ماردة وأقام عند الحكم فى قرطبة(٢).

وفى سنة ١٩١ هـ تمكن الحكم من الإيقاع بأهل طليطلة التى كانت

---

(١) ابن عذارى ج٢ ص ٧٠ ابن خلدون العبر ج٤ ص١٢٥ ، عنان دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٢٠ ، احمد الشعراوى الامويون امراء الأندلس ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذارى البيان ج٢ ص٧٠ ، عنان دولة الإسلام ص ٢٣٤ .

مركزا للثورة وملجأ لكل خارج على الدولة منذ قيام الإمارة الأموية نظراً لحصانتها وكثرة المولدين والنصارى المعاهدين فيها وكان أهلها يعتزون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم وأنها كانت دار ملك القوط مما يدعوهم إلى التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة وقد ثار فيها سنة ١٨١ هـ عبيدة بن حميد وتمكن عمروس بن يوسف حاكم طلبيرة وهو من المولدين من القضاء عليه بطريق الغيلة بعد وقائع عدة خاضها ضده فسكنت الثورة فيها، ولكن إلى حين، مما دعا الحكم إلى إعمال الحيلة فى الظفر بهم، واستعان بعمروس ابن يوسف من أهل وشقة الذى ظهر فى الثغر الأعلى وأعلن انقياده للحكم وتأييده فاستدعاه الحكم إليه وبالغ فى إكرامه وأطلعه على عزمه فى الإيقاع بأهل طليطلة فواطأه على التدبير عليهم فولاه طليطلة وكتب إلى أهلها يقول: « إنى قد اخترت لكم فلانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم(١) » فمضى إليهم عمروس ودخل طليطلة وأنس به أهلها واطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم وتظاهر أمامهم ببغض بنى أمية وبموافقتهم على خلع طاعتهم فمالوا إليه ووثقوا به، فأنشأ بموافقتهم قلعة حصينة فى ظاهر طليطلة لإيواء الجند والموظفين فيها بعيدا عن أهل المدينة وحرصا على راحتهم، ثم سير الحكم جيشا بقيادة ولده عبد الرحمن لقتال نصارى الشمال فى الظاهر ثم عرج هذا الجيش أثناء العودة على طليطلة وخرج عمروس ومعه أعيان المدينة للقاء قائد الجيش فأكرمهم عبد الرحمن وأحسن إليهم، ثم أقام عمروس وليمة عظيمة فى القلعة الجديدة دعا إليها ألوفا من أعيان وكبراء طليطلة وقرر أن يدخلوا من باب ويخرجوا من باب آخر ليقل الزحام فأتى الناس أفواجا وكان المستقبلون يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام فوجا فوجا وكلما دخل

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ١٩٩ .

فوج أخذ إلى ناحية معينة فى القلعة فضربت أعناقهم وألقيت جثثهم فى حفرة كبيرة أعدت لذلك . وأصوات الطبل والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم، فلما تعالى النهار أتى بعضهم فلم ير أحداً فقال أين الناس فقيل إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر فقال ماالقيني منهم أحد وعلم بالمكيدة فأعلم الناس هلاك أصحابهم فنجى من بقى منهم . وهلك فى تلك المذبحة التى عرفت بواقعة «الحفرة» سنة ١٩١ هـ عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها يقدره ابن عذارى بسبعمائة وابن القوطية وابن الأثير بخمسة آلاف وكانت طعنة قوية للمدينة الثائرة قضت على زعمائها واضعفت شأنها فحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام ولده عبد الرحمن[1] .

وثالث الثورات التى كادت تطيح بالحكم هى الثورة التى عرفت بثورة الربض[2] وكان بدايتها سنة ١٨٩ هـ عندما دبرت مؤامرة للإطاحة بالحكم وكان من ورائها الفقهاء الذين سخطوا على الحكم ورمــــوه من فوق المنابر بالفسوق والخروج على أحكام الدين وبعض الأعيان الذين ينقمون على الحكم صرامته وشدته واتفقوا على خلع الحكم وبيعة محمد بن القاسم القرشى المروانى ولكنه أفشى سرهم للحكم وعندما استوثق الحكم من صحة المؤامرة قبض على اثنين وسبعين منهم وصلبهم على شاطىء النهر تجاه القصر فأثار ذلك ارتياع الناس وملأ قلوبهم الخاصة والعامة بالبغض للحكم مما حمله على تحصين قرطبة وترميم سورها وحفر خندقها .

وبعد ثلاثة عشر عاماً كانت الثورة الخطيرة فى الربض فى رمضان

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥ ، ٦٧ ابن عذارى البيان المغرب جـ٢ ص ٦٩ ، ٧٤ ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ١٩٩ — ٢٠١ ابن خلدون العبر جـ ٤ ص١٢٦ عنان دولة الإسلام ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٢) الربض ضاحية من ضواحى قرطبة على ضفة النهر الأخرى مقابل قرطبة

سنة ٢٠٢هـ ويشير ابن الأثير إلى أن سببها يرجع إلى تشاغل الحكم باللهو والصيد والشرب وقتل جماعة من أعيان قرطبة فكرهه أهلها وصاروا يتعرضون لجنده بالأذى والسب حتى بلغ الأمر بالغوغاء أنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان الصلاة يامخمور الصلاة وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف ثم فرضه ضريبة العشر على المواد الغذائية كل سنة من غير خرص فكره الناس ذلك(١) وابن عذارى يشير إلى اختلاف الروايات في سبب ثورة الربض ولكنه لايذكر تلك الروايات سوى رواية يقول فيها : إن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر إذ لم تكن ثم ضرورة من إجحاف في مال ، ولا انتهاك لحرمة ، ولا تعسف في ملكة . والحال تدل على صحة ذلك : فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ، ولا سخرة ، ولاشيء يكون سبباً لخروجهم على السلطان بل كان ذلك أشراً وبطراً وملالا للعافية وطبعاً جافيا ، وعقلا غبيا وسعياً في هلاك أنفسهم . أعاذنا الله من الضلال والخذلان وأسباب البور والخسران(٢) .

وهذا يدل على تطاول العامة والغوغاء للانتقاص من سلطة الأمير والغض من مكانته فشرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وارتبط الخيل على بابه واستكثر من المماليك ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح فزاد ذلك من حقد أهل قرطبة وبغضهم له .

وقامت الثورة عندما ذهب أحد مماليك الحكم إلى صيقل (حداد) وأعطاه سيفه ليصقله فماطله الصيقل وتشاجرا فقتل المملوك الصيقل ، فثار العامة واجتمع أهل الأرباض بالسلاح وكان أشدهم هياجا أهل الربض الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر وهي ضاحية قرطبة "جنوبية المسماة شقندة

---

(١) ابن الأثير الكامل حـ ٦ صـ ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب حـ ٢ صـ ٧٦ .

وزحف الثوار إلى قصر الأمارة من كل ناحية ، واجتمع الجند والأمويون والعبيد بالقصر وفرق الحكم الخيل والأسلحة وجعل أصحابه كتائب ووقع القتال بين الطائفتين فغلبهم أهل الربض فنزل الحكم من أعلى القصر ولبس سلاحه وركب وحرض الناس فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا .

عند ذلك لجأ الأمير إلى الحيلة فأرسل عبيد الله بن عبد الله البلنسى المعروف بصاحب الصوائف وإسحاق بن المنذر القرشى فثلم فى السور ثلمة وخرج منها ومعه قوة من الجيش وأتوا الربض فأشعلوا النار فيه وما كادت ألسنة النار تظهر حتى هرع الكثير من أهل الربض إلى داره لحماية أهله ومنزله فأخذتهم السيوف من أمامهم وخلفهم وقتلوا قتلا ذريعا وطاردوهم فى كل مكان ونهبت دورهم وأسر منهم عدد كبير انتقى منهم الحكم ثلثمائة من وجوههم فقتلهم وصلبهم منكسين صفا واحدا من المرج إلى المصارة أرهابا لأهل قرطبة . وقد استمر القتل والنهب والحريق فى أرباض قرطبة ثلاثة أيام . ثم كف الجند عنهم ونودى بالأمان على أن يرحلوا عن قرطبة ومن بقى بعد ثلاثة أيام قتل وصلب فتفرق أهل الربض فى جميع أقطار الأندلس وعبر جماعة إلى المغرب فأقاموا عدوة الأندلس فى مدينة فاس ، وتوجهت جماعة كبيرة منهم قوامها خمسة عشر ألفا فى عدد من السفن إلى المشرق ورست فى مياه الأسكندرية ، واستقروا فيها وبعد عشر سنوات غادروا الأسكندرية إلى جزيرة أقريطش وأسسوا دولة استمرت زهاء قرن وثلث حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٩٦٠ م .

بهذا قضى الحكم على الثورة التى كادت أن تطيح بحكمه وتعصف به وقد تبين له أن حكمه لا يمكن أن يقوم على القوة العسكرية وحدها وإنما عليه أن يضم إلى ذلك تأييد رجال الدين ليستعيد أهليته للحكم فى نظر رعيته

ولذلك عفا الحكم بعد ذلك عن رجال الدين الذين فروا بين موقعة الربض وقربهم إليه وأخذ يستشيرهم فى أمور دولته (١)

الحروب الخارجية :

ابتدأ الحكم عهده سنة ١٨٠هـ بتوجيه حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازيا بالصائفة إلى ألبة والقلاع بجيش عظيم قسمه إلى ثلاثة أقسام وقدم على كل قسم قائدا وأمر كل واحد بالإغارة على الناحية التى قصدها ووجه إليها فانطلقوا إلا ما وجهوا إليه وأثخنوا فى البلاد ورجعوا غانمين ظافرين . ثم عادوا ثانية إلى الإغارة فجاوزوا خليجا من البحر كان الماء قد جزر عنه وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج ظنا منهم أن أحدا لا يقدر أن يعبر إليهم فجاءهم مالم يكن فى حسبانهم فغنم المسلمون جميع مالهم وأسروا الرجال وسبوا الحريم وعادوا سالمين (٢) .

وفى سنة ١٩٢هـ تجهز الفرنج بقيادة لويس بن شالمان (٣) للإغارة على الثغر الأعلى وحصار طرطوشة فبعث الحكم جيشا كثيفا بقيادة ابنه عبد الرحمن وانضم إليه عمروس وعبدون عاملى الثغر ومعهم أهل الثغر وتبعهم كثير من المتطوعين فالتقوا مع الفرنج فى أطراف بلادهم قبل أن ينالوا

---

(١) ابن عذارى البيان ج٢ ص ٧٦، ٧٧، ابن الأثير الكامل ج٦ ص٢٢٩-٣٠٠ عنان دولة الإسلام ص ٢٤٠ - ٢٤٢ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٤-٢٢٥ أحمد الشعراوى الأمويون أمراء الأندلس ص٢٣٨-٢٥٢.

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ابن عذارى البيان ج ٢ ص٦٩ .

(٣) يسميه ابن الأثير لذريق ج ٦ ص ٢٠٢ وابن عذارى رذريق ج٢ ص٧٢ ويذكر عبد الله عنان دولة الإسلام أنه لويس بن شالمان ص ٢٣٧ .

من بلاد المسلمين شيئا ودارت بينهم حروب شديدة ثبت الله فيها أقدام المسلمين وأنزل نصره عليهم فانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والأسر واستولوا على أموالهم وعتادهم وعاد المسلمون ظافرين غانمين (١)، ونلاحظ هنا معرفة المسلمين بتجهيز الفرنج فى بلادهم وإرسال الجيش لقتالهم قبل أن يطرقوا أرض المسلمين مما يدل على أنه كان لدى المسلمين جهاز مخابرات لمعرفة تحركات العدو وإفادتهم بها .

وفى أثناء إنشغال الحكم بالقضاء على ثورة ماردة تحرك ملك جليقية الفونس الثانى بحملات متوالية على أراضى المسلمين وعاث فيها قتلا ونهبا وسبيا وكانت حملاته موجهة إلى الثغر الأدنى بين نهرى دويرة والتاجه وعانى المسلمون فى هذه الأنحاء من غزوات النصارى المتتالية وصاحت امرأة فى وادى الحجارة تقول : « واغوثاه ياحكم قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا حتى أستأسد العدو علينا »، وسمع عباس بن ناصح الشاعر صراخ المرأة فصاغه فى شعر قدمه إلى الحكم يقول فيه :

تململت فى وادى الحجارة مسئدا (٢)
أراعى نجوما ما يرون تغيرا
إليك أبا العاصى نضيت مطيتى
تسير بهم ساريا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة
فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

---

(١) ابن الأثير الكامل ج٦ ص ٢٠٢ ابن عذارى البيان ج٢ ص٧٢ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ .

(٢) مسئدا : اسم فاعل من الاسآد وهو سير الليل كله وهو أيضا السير السريع .

فجمع الحكم جنوده وسار بنفسه إلى أراضى جليقية سنة ١٩٦هـ(١)، وأوغل فى بلادهم وافتتح الحصون وهدم المنازل وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم وقصد أهل الناحية التى كانت المرأة وقدم لهم كثيرا من الغنائم التى استولى عليها وقال للمرأة وسكان تلك الناحية: هل أغاثكم الحكم؟ فقالوا: شفا والله الصدور ونكى فى العدو وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا فأغاثه الله وأعز نصره (٢). فسر الحكم وقال:

ألم تر يا عباس أنى أجبتها على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطارا وبردت غلة ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

وفى سنة ١٩٩هـ أرسل الحكم جيشا إلى برشلونة فى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى وكان الفرنج قد استولوا عليها فدارت بينهم معارك شديدة انتصر فيها المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا (٣).

وكان آخر غزوة قام بها المسلمون إلى الشمال فى عهد الحكم سنة ٢٠٠هـ إذ أرسل الحكم حاجبه عبد الكريم بن مغيث إلى جليقية فى جيش ضخم فتوغل فيها وأهلك معايشها ومرافقها وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها إنتقاما لما انزلوه بالمسلمين وقد تجمع الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ونزلت بعدوة نهر أردون وصار النهر حاجزا بينهم وبين المسلمين فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخائض الوادى ونهض أعداء الله إليهم فقاتلوهم

---

(١) ابن الأثير وابن خلدون والمقرى يجعلون تاريخها سنة ١٩٦هـ وابن عذارى يذكرها سنة ١٩٤هـ.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٩، ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٧٣، ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٢٣٦ أحمد الشعراوى الأمويون امراء الأندلس ص ٢٦٢.

(٣) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٧٤.

على كل مخاضة منها فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين واقتحم أعداء الله النهر إليهم فاقتتلوا على مخاضته ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة فى المضايق وأدخلوهم على غير طريق فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح والغرق فى المياه فقتل من المشركين عدد عظيم لا يحصى كثرة ومات أكثرهم بالتردى ودرس بعضهم بعضاً وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة [١]، وأسر المسلمون جماعة من ملوكهم وقامصتهم وعاد الفرنج يلزمون جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه ومكثوا على ذلك ثلاثة عشر يوماً يقتتلون كل يوم ثم كثرت الأمطار ومد النهر وتعذر جوازه فعاد عبد الكريم بالجيش ظافراً إلى قرطبة سابع ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ[٢].

الإصلاحات فى عهده :

نظراً للثورات الداخلية والحروب الخارجية التى كانت تحيط بالدولة وجه الحكم عناية فائقة نحو الجيش والاهتمام به فهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والحواشى وارتبط الخيول على بابه[٣] واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه وكانت له عيون

---

(١) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ٧٥ .

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ٣١٨ ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٢٧ .

(٣) ذكر ابن عذارى جـ ٢ ص ٧٩ أنه كان للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس فإذا بلغه عن ثائر ثار فى أطرافه عاجله مثل استحكام أمره فلا يشعر حتى يحاط به .

يطالعونه بأحوال الناس وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبة بالأندلس[1]. و لاشك أن ذلك يدل على اهتمامه بشئون رعيته وحمايتها ومعرفة أحوالها حتى يمكن قضاء مطالبها ونشر الأمن بينها .

وقد اهتم الحكم بنشر العدل وسيادة الأنصاف بين الرعية وكان يقول: « ماتحلى الخلفاء بمثل العدل » وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه فضلا عن ولده وخاصته[2] وسنذكر حادثتين تدلان على واقعية هذه الصفات فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة : أن رجلا من أهل كورة جيان اغتصبه بعض عمال الحكم جارية له فلما عزل العامل قدم الجارية إلى الحكم فلما صارت عنده واتصل بالرجل المغصوب حال القاضى فى أحكامه واستخراج الحقوق للرعية من يدى الحكم وأهل خاصته أتى الرجل إلى القاضى وهو مصعب بن عمران ، وشرح له خبره فدعاه إلى إقامة البينة فشهد له من قبل عليه على المعرفة بما قال به وتظلم منه ، وعلى معرفة عين الجارية فأوجبت السنة أن تحضر الجارية . فاستأذن القاضى للدخول على الحكم فلما صار عنده قال . أيها الأمير إنه لايتم عدل فى العامة دون إقامته فى الخاصة وحكى أمر الجارية وخيره فى إخراجها وإبرازها للسنة أو عزله عن القضاء فقال : أو خير من ذلك تبتاع من صاحبها بأنفس ثمنها وأبلغ ما يسأله فيها قال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق فى مظانه فلما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله فلعل قائلا أن يقول : باع مالم يملك ببيع متفسر على نفسه ولا بد من إبراز الجارية أو تصير أمرك إلى من أحببت .

---

(١) ابن خلدون العبر جـ ٤ صـ ١٢٧ المقرى نفح الطيب جـ ١ صـ ٣٢٠ .

(٢) ابن عذارى البيان جـ ٢ صـ ٧٩ .

فلما رأى عزمه أمر بإخراجها من قصره وقد كانت وقعت من نفسه موقعاً فشهد على عينها وقضى بها لصاحبها . ثم قال له . إياك وبيعها ألا فى بلدك لتقوى بذلك الرعية على طلباتهم ، ويجسرهم على استخراج حقوقهم[1] » .

هذه حادثة وقعت مع الحكم ونفذ القاضى حكمه عليه وكان القاضى صريحاً فى أن يقيم العدل أو يعتزل القضاء واستجاب الحكم لما حكم به القاضى

أما الحادثة الثانية فيذكرها صاحب أخبار مجموعة فيقول : كان عباس بن عبد الله بن مروان القرشى من الخاصة بالأمير الحكم والمنزلة عنده بحيث لم يدانه أحد فى زمانه . فقام عليه رجل فى ضيعة كانت له تحت يده فأثبتها عند محمد بن بشير القاضى . فلما علم القرشى بأن القاضى عزم على أن يوجه الحكم عليه عاذ بالأمير الحكم واشتكى إليه مانال من القاضى وسأله صرفه إلى غيره وجعل يتوبخه ويقع فيه . فقال له الحكم : إن كان حقاً ماتقول فامض بنفسك إليه فى داره وهو غير قاعد للحكم فإن أخلاك نفسه وأدخلك عليه فقد صدقناك وعزلناه فقال : أفعل فوكل به الأمير الحكم بعض فتيانه ليمتحن مايكون من القاضى . فخرج القرشى والأزقة تغص بموكبه حتى أتى باب القاضى فقرع الباب فخرجت إليه عجوز فأعلمها بنفسه وأمرها أن تستأذن له عليه . فلما علم به نهر العجوز وقال لها : قولى له إن كانت له حاجة فتسكن فى المسجد مع طلاب الحوائج حتى أخرج إليك . فليس إلى إدخالك من سبيل ، فتردد عليه وألحف . فلم يأذن له . فرجع الفتى إلى الحكم فأعلمه بما كان من القاضى فطار به سروراً .

هاتان الحادثتان تكفيان لتوضيح حرص الحكم على سيادة العدل بين الرعية ، وأن الحاكم والمحكوم أمام العدل سواء .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٥ ، ١٣٦ .

وعندما وقعت المجاعة الشديدة بالأندلس سنة ١٩٩ هـ وعانى المسلمون منها ضروب الحرمان والبؤس ومات كثير من الناس جهدا بادر الحكم إلى تخفيف ويلاتها عنهم ففرق عليهم الأموال الكثيرة حتى انكشفت غمتها وعادت الحياة الى طبيعتها (١) .

وكان يتولى الحجابة للحكم : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ووزراؤه وقواده خمسة اسحاق بن المنذر، والعباس بن عبدالله وعبدالكريم بن عبد الواحد بن مغيث وفطيس بن سليمان ، وسعيد بن حسان وكتابه ثلاثة : فطيس وخطاب بن زيد وحجاج بن العقيلي وقضاته : مصعب بن عمران ومحمد بن بشير ، والفرج بن كنانة وبشر بن قطن ،وعبيد الله بن موسى، ومحمد بن تليد وحامد بن محمد بن يحيى(٢) .

وفى سنة ٢٠٦هـ اشتد مرض الحكم بن هشام فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمغيرة من بعده وكان ذلك فى الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ وتوفى الحكم يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٠٦هـ وعمره اثنتان وخمسون سنة وصلى عليه ابنه عبد الرحمن ودفن فى مقبرة القصر المعروفة بالروضة(٣) بعد حياة حافلة وكفاح مستمر دعم به الدولة فى الداخل وحماها من أعدائها فى الخارج

٣ — عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ — ٢٣٨ هـ ٨٢٢ — ٨٥٢ م

رابع أمراء بنى أمية فى الأندلس وقد ولد فى طليطلة سنة ١٧٦هـ عندما كان والده واليا عليها ويسمى بعبد الرحمن الثانى وعبد الرحمن الأوسط

---

(١) ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ٧٣ ، نفح الطيب حـ ١ صـ ٣١٩ .

(٢) ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ٦٨ .

(٣) ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ٧٧ ، عنان دولة الاسلام صـ ٢٤٤ .

والأول هو جده عبد الرحمن الداخل والثالث هو عبد الرحمن الناصر وقد بويع له فى اليوم التالى لوفاة والده فى أواخر ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ وقد عنى أبوه بتربيته والاهتمام به وإعداده للاضطلاع بالمهمة التى ستلقى على كاهله فكان يسند إليه أعمال الحكم المختلفة وينيبه عنه أثناء غيابه أو مرضه، وقد أكسبه ذلك خبرة بشئون الحكم والإدارة. فأحسن اختيار الرجال لمعاونته من الوزراء والولاة، والقادة والقضاة. وقد استمر فى الحكم قرابة اثنين وثلاثين عاما حافظ فيها على الدولة الإسلامية فى الأندلس وقضى على الثورات والفتن الداخلية، وتم فى عهده كثير من الإصلاحات والمنشآت وانتشر الأمن وساد الرخاء وازدهرت الحياة. ونمت الحضارة بشتى مظاهرها المادية والمعنوية(١):

الثورات والفتن الداخلية :

فى أوائل عهده خرج عليه عم أبيه عبدالله البلنسى وسار إلى تدمير والتف حوله جمع أراد التوجه به إلى قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فلما بلغ ذلك عبدالله خاف وضعفت نفسه فرجع إلى بلنسية ومات أثر ذلك ونقل عبد الرحمن أولاده وأهله إليه بقرطبة وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبد الرحمن (٢)

وفى سنة ٢٠٧ هـ قامت فى تدمير فتنة بين المضرية واليمنية بسبب قتل يمانى لمصرى أخذ ورقة دالية من جنان اليمنى فاستفحل الشر بينهما وكانت بينهم موقعة بلورقة تعرف بيوم المصارة قتل منهم فيها ثلاثة آلاف رجل، ووجه

---

(١) أنظر ابن الأثير الكامل حـ ٦ صـ ٣٧٨ ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ٨٠ ابن خلدون العبر حـ ٤ صـ ١٢٧ عنان دولة الاسلام صـ ٢٥١

(٢) ابن الأثير الكامل حـ ٦ صـ ٣٧٦ ابن خلدون العبر حـ ٤ صـ ١٢٧

إليهم عبد الرحمن قائده يحيى بن عبدالله بن خالد فى جيش فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال وقد تزعم اليمانية ابو الشماخ واستمرت الفتنة سبع سنين وكانت الدائرة تدور على اليمانية والقتلى منهم حتى فنى من المسلمين خلق كثير ولم تهدأ الفتنة إلا فى سنة ٢١٣ هـ عندما أرسل الأمير قائده أمية بن معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة وصار أبو الشماخ من ولاه الأمير عبد الرحمن وثقاته وقد أمر الأمير بهدم إلة حاضرة تدمير التى انبعثت منها إلى الفتنة وصارت مرسيه مقرا لوالى تدمير(١)

وفى سنة ٢١٣ هـ ثار أهل ماردة على عاملهم وقتلوه — بقيادة محمود ابن عبدالجبار البربرى وسليمان بن مرتين من المولدين — وعاثوا فى الأرض فسادا فسير إليهم عبدالرحمن جيشا لحصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعادوا إلى الطاعة وأخذت منهم رهائن لضمان طاعتهم وخرب سور المدينة كى لايعودوا إلى المعصية ثم طلب عبد الرحمن أن تنقل حجارة السور إلى النهر حتى لايطمع أهلها فى عمارة السور فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور واتقنوه فسار إليهم عبد الرحمن بجيوشه سنة ٢١٤ هـ ومعه رهائن أهلها فافتك العامل ومن أسر معه برهائنهم ثم حاصرهم فامتنعوا عليه فرجع عنهم ثم تابع إرسال الجيوش إليهم حتى كانت سنة ٢٢٠ هـ فسار إليهم عبد الرحمن وشدد الحصار عليهم ودارت بينهم حرب انتصر فيها عبد الرحمن وافتتح ماردة وقتل كثيراً من الثائرين

---

(١) ابن الأثير الكامل حـ٦ صـ٣٨٤ ابن عذارى البيان حـ٢ صـ ٨٢، ٨٣ ابن خلدون حـ ٤ صـ ١٢٧ ، أحمد شعراوى الأمويون امراء الأندلس صـ ٣٠٦

وتمكن محمود بن عبد الجبار وبعض الثائرين معه من الفرار فتتبعته قوات عبد الرحمن ولكنه دخل جليقية واستولى على حصن فيها ومكث فيه خمسة أعوام ثم حصرهم ملك الجلالقة أذفونس وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة ٢٢٥هـ (١) .

وبينما كان عبد الرحمن مشغولا بثورة ماردة قامت فى طليطلة سنة ٢١٤ هـ ثورة تزعمها هاشم الضراب الذى كان فى طليطلة عندما أوقع الحكم بأهلها وأخـــذ هاشما إلى قرطبة من بين الرهائن فعمل حدادا وعرف بالضراب ثم رحل من قرطبة إلى طليطلة فاجتمع عليه أهل الشر والفساد وأثار فيهم روح الثورة فكثر جمعه واشتدت شوكته وصار يغير بهم على العرب والبربر وتسامع أهل الشر به فهرعوا إليه حتى اجتمع له منهم عدد كبير وقد أوقع بالبربر بشنت برية وانتصر عليهم فى عدة وقائع ، وقد بعث عبد الرحمن إليه قائده محمد بن رستم عامل الثغر الأدنى بجيش فدارت بينهما عدة وقائع غير حاسمة مما أدى إلى تغلب هاشم على جانب من الثغر وتغلب على عدة مواقع وفى سنة ست عشرة ومائتين بعث عبد الرحمن جيشا كثيفا إلى عامله بالثغر محمد بن رستم فزحف إلى الثوار والتقى بهم بالقرب من حصن سمسطا بمجاورة روربة ودارت بينهم معركة استمرت عدة أيام هزم الثوار فيها وقتل هاشم الضراب وكثير من أنصاره أهل الشر وباعثى الفتنة

وقد استمر أهل طليطلة خارجين على الأمير غير مذعنين لطاعته فأرسل إليهم سنة ٢١٠ هـ جيشا بقيادة أخيه أمية بن الحكم لحاصر طليطلة وقطع زروعها

(١) ابن القوطية افتتاح فى الأندلس ص ٨٣ ابن الأثير الكامل ح٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ ابن عذارى البيان ح ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ابن خلدون العبر ح ٤ ص ١٢٨ . عنان دولة الإسلام ص ٢٠٢

وأتلف ثمارها ولكن المدينة صمدت ولم تذعن له بالطاعة فرحل عنها وترك بعض الجند فى قلعة رباح بقيادة ميسرة الفتى المعروف بفتى أبى أيوب فلما أبعد الجيش خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون فرصة وغفلة من ميسرة فيتغلبوا عليه وعلم ميسرة بالخبر فجعل لهم كمائن فى مواضع عدة وعندما وصل أهل طليطلة إلى القلعة للغارة عليها خرجت عليهم الكمائن ووضعت فيهم السيف فقتل كثير منهم وفر الباقون إلى طليطلة فاعتصموا بها وفى العام الثانى خرج عبد الرحمن بجيش إلى طليطلة فصمدت المدينة فى وجهه فترك جندا فى قلعة رباح وذهب للقضاء على ثورة ماردة ، وفى سنة ٢٢١ هـ خرج جماعة من طليطلة إلى قلعة رباح وانضموا إلى جيش عبد الرحمن واجتمعوا على حصار طليطلة وشددوا عليها الحصار وقطعوا عنها مرافقها حتى ضاق أهلها وتفذ صبرهم فسير إليهم عبد الرحمن حملة أخرى سنة ٢٢٢ هـ بقيادة أخيه الوليد ابن الحكم فواصل الحصار الصادم حولها حتى بلغ الجهد بأهلها كل مبلغ وضعفوا عن القتال فهاجم المدينة واقتحم أسوارها وتم فتحها يوم السبت ٨ من رجب سنة ٢٢٢ هـ وقام الوليد بتجديد القصر الذى كان بناه عمروس أيام الحكم على باب الجسر وأقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣ هـ حتى استقرت بها الأمور وعاد أهلها إلى الهدوء والطاعة(١) .

وفى أواخر عهد عبد الرحمن قامت فى قرطبة فتنة لم تشر إليها المراجع العربية وإنما أشار إليها دوزى وسيد أمير على وغيرهما وذلك أن المجتمع فى قرطبة كان يتكون من المسلمين من العرب والبربر والمسلمين الأسبان الذين يعرفون بالمولدين - أى الذين نشأوا من تزوج المسلمين بالأسبانيات ويكون أبناؤهم

---

(١) أنظر ابن الأثير الكامل حـ ٦ صـ ٤١٥ ، ٤٤٤ ، ٤٧٤ ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ٨٣ ، ٨٤ ابن خلدون العبر حـ ٤ صـ ١٢٨ عنان دولة الاسلام ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

مسلمين ثم من المستعربين وهم الأسبان الذين ظلوا على دينهم ولكنهم تكلموا العربية وتثقفوا بها وبعضهم بلغ فيها شأوا بعيدا دفع المتعصبين وخاصة من القسس إلى حمل الشباب على كراهية الثقافة العربية ثم تحول ذلك إلى حملهم على مهاجمة الإسلام والطعن فيه والطعن فى نبيه عليه الصلاة والسلام ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك حيث يسمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة كما كان يشغل بعضهم أعلى المناصب المدنية والعسكرية وغيرها من الوظائف الإدارية .

وقد بدأت الفتنة بحوار دار بين قسيس فى قرطبة يسمى برفكتو مع بعض المسلمين حول فضائل عيسى ومحمد وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال عنيف أدى إلى طعن القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وحوكم حسب القانون الإسلامى وحكم عليه بالإعدام واستغل ذلك بعض القسس المتعصبين وخاصة أيولوخيو وأتباعه الذين قاموا بدعايات ضد الإسلام والمسلمين مما حمل بعض الشباب والشابات إلى الطعن فى الإسلام ونبيه بل اقتحم بعضهم المساجد وجاهر أمام المسلمين بذلك مما أدى إلى إعدام كثير منهم لإصراره على الطعن أمام القاضى وعدم رجوعه عن الطعن فى الإسلام ونبيه .

وقد أخذت هذه الموجة فى الإنتشار مما حمل المعتدلين من المسيحين أن يعلنوا استنكارهم للحركة التى تزعمها أيولوخيو وعمل عبد الرحمن على التصدى لها . فعقد مجلسا من القسس من جميع أرجاء الإمارة وأصدر الأساقفة قرارا بتحريم المجاهرة بسب نبى الإسلام وأن قذف نبى الإسلام عمدا حبا للقتال ونيل الشهادة هو مخالف لروح الأنجيل . وقد اعتقلت الحكومة أيولوخيو وأتباعه من زعماء الحركة وأودعتهم السجن ولكن ذلك لم يحل دون إستمرار الفتنة إلى أن توفى الأمير عبد الرحمن ثم أفرج عن أيولوخيو وعين أسقفا لمدينة طليطلة فهدأت الفتنة قليلا ولكنه عاد إلى

قرطبة ليواصل فتنته وعند ذلك أمر خليفة عبد الرحمن ابنه محمد بالقبض على أبولوخيو وقتله وبهذا أخذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت من تلقاء نفسها (١).

الحروب الخارجية فى عهده :

إذا كان من الواجب على المسلمين أن يحموا جبهتهم الداخلية فيقضوا على الثورات الداخلية فإن من الواجب عليهم أن يحموا حدودهم الخارجية ويردوا كيد المغيرين أو المتربصين بهم الدوائر تأمينا لحدود الدولة ودفع الطامعين عن حدودها ، وقد قام المسلمون بمواصلة الغزوات الخارجية فى عهد عبد الرحمن الثانى إلى جهـــات متعددة كما بذلوا الجهد فى رد المغيرين عليها .

ففى منطقة ألبة والقلاع سير عبد الرحمن إليها جيشا سنة ٢٠٨ ﻫ بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث تمكن من التوغل فيها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحهم بعضها على الجزية واطلاق اسرى المسلمين وقد غنموا أموالا كثيرة واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبهم عددا كبيرا وأظهروا هيبة المسلمين فى تلك المناطق ثم عادوا سالمين .

وفى سنة ٢٢٤ ﻫ أرسل عبد الرحمن إلى ألبة والقلاع جيشا بقيادة عبيد الله البلنسى فخرج إليه العدو فى جمع كبير ودارت بينهم حرب شديدة انتصر فيها المسلمون وقتلوا وأسروا أعدادا كثيرة من العدو وقد خرج

---

(١) انظر سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٤٠١ ، ٤٠٢ ، شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، أحمد شعراوى الأمويون امراء الأندلس ٣٠٩ - ٣١٢ عنان دولة الاسلام فى الأندلس ص٢٦٣ -٢١٧ .

لذريق ملك الجلالقة فى عسكره وأغار على مدينة سالم فسار إليه موسى بن فرتون فى عسكر كبير فلقيه وقاتله وهزمه وسار فرتون إلى الحصن الذى بناه أهل ألبه بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه. وفى سنة ٢٢٩ هـ أرسل عبد الرحمن ابنه محمد بالجيش إلى ينبلونة وأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى(١).

وفى منطقة الشمال الشرقى التابعة للفرنج أرسل عبد الرحمن إليها فى سنة ٢٢٦ هـ جيشا بقيادة عبيد الله البلنسى فلما كانوا بين أربونة وشرطانية تجمعت الروم عليهم فقاتلوهم الليل كله وفى الصباح أنزل الله نصره على المسلمين فتمكنوا من هزيمـــة عدوهم ، ثم أرسل عبد الرحمن جيشا إلى برشلونة فعاث فى نواحيها وأجاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فقتل وأسر من تصدى له وحاصر مدينتها العظمى جرندة وعاث فى نواحيها وقفل سالما(٢).

أما فى منطقة جليقية فقد سار عبد الرحمن إليها سنة ٢٢٥هـ بجيش كبير فقتح حصونها وجال فى أرضها يخرب ويغنم ويقتل ويسبى وطال مقامه فى هذه الغزوة ثم عاد إلى قرطبة وفى العام التالى وجه عبد الرحمن ابنه مطرف إليها بجيش ومعه القائد عبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى فوغل فى بلاد جليقية وبسط هيبة المسلمين فيها وفى سنة ٢٣١ هـ أرسل عبد الرحمن إليها جيشا بقيادة ابنه محمد فقتلوا وأسروا وغنموا ووصلوا إلى مدينة ليون

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ٦ ص ٣٨٧ ، ٥٠٧ ، ابن عذارى البيان جـ٢ ص ٨١ – ٨٤ ابن خلدون العبر جـ٤ ص ١٢٨ ، ١٢٩ المقرى نفح الطيب جـ١ ص٣٢٣

(٢) ابن الأثير الكامل جـ٦ ص ٢٥٩ ، ابن خلدون العبر جـ٤ ص ١٢٩ المقرى نفح الطيب جـ١ ص ٣٢٤ :

لحصروها ورموها بالمجانيق فتركها أهلها وخرجوا هاربين إلى الجبال فغنم المسلمون منهم ماأرادوا وأحرقوا الباقى وأرادوا هدم سورها فوجدوا سعته سبع عشرة ذراعا فثلموا فيه ثلما كبيرا وتركوه وعادوا سالمين بعدأن حفظوا هيبة المسلمين فى تلك المناطق[١].

لم يكتف عبد الرحمن بإرسال القوات البرية لحماية دولته وإنما فى سنة ٢٢٤هـ أرسل قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزر البليار) لغزوهما والنكاية بسكانهما لمجاهرتهم بنقضهم العهد وإضرارهم بمن يمر عليهم من سفن المسلمين ، فتمكن المسلمون من إخضاعهم وفتح أكثر جزائرهم وأسر ذراريهم والاستيلاء على أموالهم ، وقد بعث أهلهما إلى الأمير فى العام التالى يطلبون الأمان ودفع الجزية فأجابهم الأمير بكتاب يقول فيه : « أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم ، وإصابتهم ما أصابوا منكم من ذراريكم وأموالكم ، والمبلغ الذى بلغوه منكم ، وماأشفيتم عليه من الهلاك وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكرهم ، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ، ورجونا أن يكون ماعوقبتم به صلاحكم ، وقمعكم عن العود إلى مثل الذى كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته[٢] » .

ونختم حديثنا عن الحروب والغزوات فى عهد عبد الرحمن الأوسط بذكر غارات النرمان على الأندلس وتصدى المسلمين لها ، وهم « الفيكنج »

---

(١) ابن الأثير الكامل حـ٦ صـ٥١٦ حـ٧ صـ٢٤ ابن عذارى البيان حـ٢ صـ٨٥ ، ٢٨٦ ، ابن خلدون العبر حـ٤ صـ١٢٩ .

(٢) ابن عذارى البيان حـ٢صـ٨٩ عنان دولة الاسلام صـ٢٦٢ ، ٢٦٣

أو النرمانيون ووطنهم الأصلى هو اسكندناوة وربما دانيماركة وشواطىء ألمانيا الشمالية ولذا عرفوا بالنرمانيين أى أهل الشمال ويسميهم المؤرخون المسلمون بالمجوس .

فقد قدم النرمان فى سنة ٢٣٠ هـ بأسطول مكون من ثمانين سفينة وهاجموا أشبونة فتصدى لهم المسلمون بقيادة واليهم وهب الله بن حزم وقامت بينهم معارك ضارية استمرت ثلاثة عشر يوما ثم سار النرمان إلى قادس ثم إلى شذونة فكان بينهم وبين المسلمين وقائع عدة ثم اخترقوا النهر الكبير إلى أشبيلية ونزلوا على اثنين عشر فرسخا منها فخرج إليهم كثير من المسلمين وتصدوا لقتالهم ودارت بينهم معارك رهيبة انتصر فى نهايتها النرمان على أهل أشبيلية فأكثروا القتل والأسر والنهب فيهم ومكثوا فيها سبعة أيام يشيعون الخراب والدمار فيها ثم انسحبوا إلى قرية طليطلة الواقعة غربى أشبيلية ، وعندما اتصل الخبر بالأمير عبدالرحمن بعث قوات من الخيل على عجل لنجدة أشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم وغيرهما تحت قيادة حاجبه عيسى بن شهيد وكتب إلى عمال الكور فى استنفار الناس فحلوا بقرطبة ونفر بهم نصر الفتى . وتلقى النرمانيون مددا فى سفن جديدة قدمت عليهم ودارت بين الفريقين معارك ضارية تفوق فيها النرمان وعندما تجمعت القوات التى أرسلها الأمير عبد الرحمن إليهم دافعوهم ونصبوا المجانيق عليهم فانهزم النرمان وقتل منهم نحو من خمسمائة رجل وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها ، ثم كانت الموقعة الفاصلة معهم فى ٢٥ من صفر سنة ٢٣٠ هـ بقرية طليطلة فهزم المسلمون النرمان بعد قتال عنيف وقتلوا منهم ألفا وأسروا أكثر من أربعمائة وأحرقوا لهم ثلاثين سفينة وكان قائدهم بين القتلى وارتد النرمان إلى سفنهم وتحصنوا

بها وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم • عاقوهم فى جذوع النخل . وأقلعت سفن النرمان منسحبة والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع وقد حاولوا الانتقام لأنفسهم أثناء انسحابهم فأغاروا على لبلة وباجة ثم انتقلوا إلى أشبونة حيث غادروا شواطىء الأندلس مع باقى سفنهم بعد أن مكثوا اثنتين وأربعين يوما أشاعوا خلالها الرعب والفزع بين المسلمين وعانى المسلمون منهم عناء شديدا وعند انقشاع الغمة أرسل الأمير عبد الرحمن بالكتب إلى جميع الآفاق معلنة انتصار المسلمين على العدو المغير وأرسل إلى من بطنجة من صنهاجة يعلمهم بما كان من صنع الله فى المجوس وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة وبعث إليهم برأس أميرهم ومائتين من رؤوس أكابر النرمانيين القتلى .

وقد أدت غزوة النرمانيين إلى الاهتمام بالأسطول والتحصينات البحرية فابتنى عبد الرحمن حول أشبيلية سورا ضخما وأنشأ بها دار صناعة واهتم بإقامة السفن الحربية وحشد لها المقاتلة المدربين من سائر أنحاء الأندلس حتى نمى الأسطول الأندلسى وعظمت قواته البحرية(١) .

الإصلاحات فى عهده :

وقد تم فى عهد عبد الرحمن كثير من الاصلاحات الإدارية والمعمارية والصناعة الزراعية فهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر وإبداء آرائهم فيما يعرض عليهم من الأعمال ، ورفع من شأن الوظائف العامة وأحاطها بالهيبة والمسئولية وجعل أحكام السوق منصبا مستقلا عن ولاية

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ٧ ص ١٦ ، ١٧ ابن عذارى البيان جـ٢ صـ٨٧ ، ٨٨ ابن خلدون العبر جـ٤ صـ ١٢٩ المقرى نفح الطيب جـ١ صـ ٣٢٣ عنان دولة الاسلام صـ ٢٦٠ أحمد شمراوى الأمويون فى الأندلس صـ ٣١٥ — ٣٢٣

المدينة ، وقد زادت أموال الجباية فى عهده فبلغت ألف ألف دينار فى السنة . وأنشأ دارا لسك النقود فى قرطبة وجعلها أندلسية مستقلة بقيم وأوزان جديدة .

وقد اهتم بالناحية المعمارية فأنشأ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لقصره حوضا يجتمع فيه ماء المطر وأقام الجسور وعبد الطرق وبنى كثيرا من المساجد الجامعة فى أنحاء الأندلس وزاد فى جامع قرطبة رواقين وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها وجعل له حوضا كبيرا يرده الناس ليستقوا منه ، وأقام دار صناعة باشبيلية وأنشأ المراكب لتكوين اسطول بحرى لحماية سواحل الأندلس وأمده بالآلات والنفط . كما كان له خمسة آلاف مملوك من الموالى والصقالبة ثلاثة آلاف فارس يرابطون بإذاء القصر فوق الرصيف وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون الخرس لعجمتهم .

وكانت معظم أيامه أيام هدوء وسكون وأمن ورخاء فتقدمت الزراعة والصناعة والتجارة وجلب إلى الأندلس كثيراً من الأمتعة والسلع الفاخرة وكل نفيس غريب من جوهر ومتاع من بغداد وغيرها من البلاد . فزخرت الأسواق بالبضائع وزاد الدخل زيادة كبيرة .

وقد عمل على إحقاق الحق ونشر العدل والانقياد له ويذكر لنا ابن القوطية حادثة تدل على ذلك فقد غناه زرياب — الذى وفد على الأندلس فى عهده — يوما صوتا استحسنه . فقال : يؤمر الخزان أن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار . فأتاهم صاحب الرسائل بالعهد . وكان الخزان يومئذ يتنافسون على الحجابة ، فنظر الخزان بعضهم إلى بعض فقال لهم موسى بن جدير وكان شيخهم قولوا فقال له أصحابه : مالنا قول مع قولك . فقال لصاحب

الرسائل : نحن وإن كنا خزان الأمير أبقاه الله فنحن خزان المسلمين نجبي أموالهم وننفقها في مصالحهم ولا والله ما ينفذ هذا ، ولا منا من يرضى أن يرى هذا في صحيفته غدا ، أن تأخذ ثلاثين ألفا من أموال المسلمين وتدفعها إلى مغن في صوت غناه يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك مما عنده .

فانصرف صاحب الرسائل الخارج بالصك وقال للخليفة : نافق الخزان ثم دخل الخليفة وقال مثل ذلك للأمير . فقال زرياب ما هذه طاعة فقال عبد الرحمن بن الحكم : هذه هي الطاعة ولأولينهم الوزارة على هذا الأمر وصدقوا فيما قالوا . ثم أمر بدفعه إلى زرياب مما عنده .

وقد ارتفع شأن الأمارة الأموية في عهده وأصبحت الدول تخطب وده وتقيم معها علاقات سياسية ففي سنة ٢٢٥ هـ أرسل قيصر القسطنطينية تيو فيلوس سفيرا يدعى قرطيوس إلى الأمير عبد الرحمن ومعه كتاب وهدية ويطلب مواصلة فاستقبله عبد الرحمن استقبالا حافلا ورد عبد الرحمن على السفارة بإيفاد كاتبه الشاعر يحي الغزال ويحى بن حبيب إلى القسطنطينية بكتاب وهدية إلى الأمبراطور وتدور السفارة حول العداوة القائمة بين القسطنطينية والعباسيين وبين العباسيين والأمويين ومحاولة إيجاد تعاون بينهمـــا

ويقال إن النورمان بعد غزوهم الأندلس وهزيمتهم ومطاردتهم بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم يطلب المهادنة والصلح فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم برد السفارة ويعلمه بقبول الصلح وتبين لنا هذه السفارات المكانة التي وصلت إليها الإمارة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط .

وقد تولى الحجابة لعبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد وتولى الوزارة تسعة رزق كل واحد ثلاثمائة دينار وتولى الكتابة ثلاثة عبد الكريم المذكور وسفيان بن عبد ربه وعيسى بن شهيد وقضاته أحد عشر منهم يحيى بن معمر ومرور بن محمد بن بشير وغيرهما والسبب فى كثرة القضاه تدخل يحيى بن يحيى الليثى فى توليتهم وعزلهم .

وفى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ ﻫ توفى عبد الرحمن الأوسط بعد واحد وثلاثين عاما من امارته قضاها فى السهر على حماية الدولة ورد المغيرين والقضاء على الفتن والثوارث والقيام بكثير من الإصلاحات التى أدت إلى تقدم الدولة وازدهارها (١)

٤ — محمد(٢) بن عبد الرحمن بن الحكم ٢٣٨ — ٢٧٣ ﻫ ٨٥٢ — ٨٨٦م

كان عبد الرحمن بن الحكم قد أظهر تفضيله لأبنه محمد على بقية أبنائه باستخلافه بقصر الإمارة فى سنة ٢٢٦ ﻫ ثم ولاه ثغر سرقطة فأحسن إدارته كما أسند إليه قيادة ميمنه جيشه فى حملته المظفرة إلى بنبلونة وأثنى عليه والده

---

(١) ابن القرطية افتتاح الأندلس ص٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ابن الاثير الكامل ج٧ ص ٦٩ ، ٧٠ بن عذارى البيان ج٢ ٨٠ ، ٨٩ -٩٣ ابن خلدون العبر ج٤ ص ١٣٠ المقرى نفح الطيب ج١ ٣٢٤- ٣٢٥ عنان دولة الاسلام ص ٢٧٠ - ٢٨٢ ، أحمد شعراوى الاموبون أمراء الأندلس ص ٣٢٤ - ٣٢٧ ، كارل برو كلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٩١ .

(٢) ولد فى ذى القعدة سنة ٢٠٧ﻫ كنيته أبو عبد الله وأمه تسمى بهير وتوفى فى آخر صفر سنة ٢٧٣ ﻫ وعمره خمس وستين سنة وأربعة أشهر وولايته أربعه وثلاثون سنة وعشرة أشهر وعشرين يوما .

فى كتاب الفتح تنويها بشأنه وتمهيدا لولاية عهده وأظهر الكبار رجال دولته بانه ولى عهده وأمرهم مع القاضى ورجال الشورى بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع فى المسجد الجامع ، ولكنه مع ذلك لم يصدر مرسوما بولايته العهد لأن زوجته طروبا الأثيرة لديه كانت تريد تولية ابنها عبد الله ولذلك دارت بعد موت عبد الرحمن مناقشات عنيفة بين الفتيان الصقالبة على من يولى الأمارة . ثم استقر الأمر على تولية محمد فاحضروه وبايعوه ، وحضر أخوته وعمومته وأهل بيته فبياعوه ثم بايعه العامة فى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (١) .

وهنا نلاحظ تدخل الصقالبة الذين يسمون بالفتيان فى اختيار الأمير وترجيح من كان يميل إليه عبد الرحمن. وكان من الممكن أن يحدث صراع بين من يؤيد ابنه محمدا ومن يؤيد ابنه عبدالله لأن عبد الرحمن لم يعقد ولاية العهد لمحمد صراحة ، وهذا خطر عدم النص على من يولى العهد .

وقد وجه محمد عناية كبيرة للاهتمام بأمور الدولة الداخلية والخارجية حفاظا عليها من الثائرين فى الداخل والمغيرين المتربصين بها من الخارج وقضى وقت حكمه الطويل فى غزوات متعاقبة وحملات مستمرة التأديب الثوار فى الداخل وحملهم على الطاعة ورد كيد الإمارات النصرانية المجاورة حماية لثغور المسلمين واهتماما بمصالحهم . كما اهتم بالأصلاحات الداخلية خلال عهده .

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ٩٢-٩٥ ، عنان دولة الاسلام ص ٢٨٥ ، ٨٦ .

الثوارث الداخلية :

قامت فى عهد الأمير محمد ثوارث كثيرة ففى سنة ٢٣٨ هـ ثورة أهل طليطلة وفى سنة ٢٥٤ هـ ثورة ماردة وفى سنة ٢٥٥ هـ خروج سليمان بن عبدوس فى مدينة سرية وفى سنة ٢٥٦ هـ غدر عمروس بعامل وشقة وفى سنة ٢٥٨ هـ وقعت ثورات فى الثغر قام بها مطرف واسماعيل ابنى لب ويونس ابن زنباط فقبضوا على عامل تطيلة وعامل سرقسطة وفى سنة ٢٦١ هـ ثورة بنى موسى فى سرقسطة وتطيلة وفى سنة ٢٦٥ هـ فتنة كورة رية والجزيرة وتاكرنا وفى سنة ٢٦٧ هـ فتنة ابن حفصون فى رية التى استمرت إلى عهد عبد الرحمن الناصر وفى سنة ٢٧٣ هـ خروج حارث بن حمدون من بنى رفاعة فى مدينة الحامة (١) .

وسيطول الحديث بنا لو تتبعنا هذه الثوارث واحدة بعد أخرى وكيف قضى الأمير عليها ولكن سنتحدث عن ثورتين من هذه الثورات هى ثورة طليطلة وثورة ماردة .

ففى بداية عهده سنة ٢٣٨ هـ ثار عليه أهل طليطلة وقبضوا على عامله عليها حارث بن بزيغ ورفضوا إطلاق سراحه حتى اطلقت رهائنهم من قرطبة فأطلقوه ، استمروا فى فسادهم فخربوا سور قلعة رباح وقتلوا كثيرا من أهلها حتى اقفرت وفر أهلها خوفا منهم فأرسل الأمير إليهم سنة ٢٣٩ هـ أخاه الحكم بن عبد الرحمن فى جند الصائفة إلى قلعة رباح فأصلح سورها وما خربوه فيها وأعاد إليها من فارقها من أهلها وتقدم الحكم إلى طليطلة لمنازلتها وأرسل محمد فى نفس العام إلى شندلة قائديه قاسم بن العباس وتمام

---

(١) أنظر ابن عذارى البيان المغرب جـ٢ ص ٩٤ — ١٠٦ .

ابن أبى العطاف صاحب الخيل ومعهما الحشم فلما حلا بأندوجر خرجت عليهم كائن أهل طليطلة ودارت بينهم معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير وأصيب أكثر من فيه فى شوال سنة ٢٣٩ هـ وشجع ذلك أهل طليطلة على مواصلة العصيان . فسار إليهم الأمير محمد بنفسه فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ على رأس قوة كبيرة حتى يخمد أجيج الثورة فى طليطلة التى يقطنها أكثر المولدين والنصارى فلما علم أهلها بخروج الأمير إليهم ، استمدوا ملك جليقية وملك البشكنس فأمداهم بقوة كبيرة وعلم الأمير بذلك فلجأ إلى الحيلة والكيد لهم فعبأ الجيوش ووضع الكمائن بناحية وادى سليط وطلع عليهم فى مقدمة العسكر فى قلة من العدد فلما شاهد ذلك أهل طليطلة رأوها فرصة يغتنموها من الأمير فتحركوا هم وحلفاؤهم النصارى وهم مؤملون فى الظفر والغنيمة والتقى الجمعان فخرجت الكمائن عن يمين وشمال وأطبقت الخيل على الثوار وحلفائهم من كل جانب فأخذتهم السيوف والرماح ومزقوا شر ممزق وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا أثنى عشر ألفا من الثوار وثمانية آلاف من حلفائهم وبعث الأمـــير محمد بأكثر رؤوس النصارى إلى قرطبة وإلى سواحل البحر والعدوه .

وقد تابع الأمير أرسال حملاته إلى طليطلة ففى سنة ٢٤١ هـ شحن قلعة رباح وطلبيرة بالحشم ورتب فيها الفرسان ليقفوا على تحرك أهل طليطلة وفى سنة ٢٤٢ هـ وجه الأمير ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة لمحاصرها وأقام عليها ينسف معاقشها ولم يجرؤ الثوار على مغادرة مدينتهم هذه المرة ، وفى العام التالى خرج الثوار إلى طلبيرة لمهاجمتها فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله العريف وقد وضع لهم كمائن فتغلب عليهم وأكثر القتل فيهم وبعث إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم .

وفى سنة ٢٤٤ هـ خرج الأمير محمد بنفسه إلى طليطلة لمعاقبتهم على تحريضهم على أهل طلبيرة وحصارهم فتأهب أهلها لقتاله رغم ما حل بهم من هزائم سابقة ورأوا قتاله على القنطرة فجمع محمد العرفاء من البنائين والمهندسين وأمرهم بهدم قواعد القنطرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده عنها فخرج أهل طليطلة لقتاله فلما اجتمعوا عليها اندقت بهم وتهدمت وسقطت بمن كان عليها من الحماة والسكاة فغرقوا عن آخرهم فعمل الأمير على دك حصون المدينة وتتبع الثائرين فيها بالقتل والتشريد حتى طلبوا الأمان فى العام التالى فعقده لهم .

وهكذا انتصر الأمير على ثورة طليطلة وأطاعت طليطلة الإمارة الأموية فى قرطبة بعد ثورة طال مداها ولكنهم عادوا بعد أكثر من عشر سنوات فثاروا ثانيا سنة ٢٥٩ هـ وخرج الأمير إليهم بنفسه وأرغمهم على العودة إلى الطاعة وعقد معهم أمانا ثانيا وأخذ فيه رهائنهم وفرض عليهم قطيعاً من العشور يؤدونه كل عام وهدأ أهل طليطلة ولكن اختلفت أهواؤهم عندما أراد الأمير توليه أخيه مطرف بن عبد الرحمن فطلب بعضهم توليه طربيشه بن ماسويه فولى الأمير كل واحد منهما جانبا من طليطلة وأقاليمها ثم تنازع الواليان وأراد كل منهما الإنفراد بالولاية ورجحت كفه المؤيدين لطربيشه فولاه الأمير المدينة[1] .

أما الثورة الثانيه فهى ثورة ماردة فى سنة ٢٥٤ هـ وكان أهلها قد ثاروا فى عهد عبد الرحمن الأوسط ثم قضى على ثورتهم وتفرق كثير من

---

(١) ابن الأثير الكامل حـ ٧ صـ ٨٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ابن عدارى البيان حـ ٢ صـ ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ابن خلدون العبر حـ ٤ صـ ١٣١ ، عنان دولة الاسلام صـ ٢٨٧ — ٢٩١ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم صـ ٢٤٥ — ٢٤٦ .

أهلها فى البلاد . ثم تجمع أهلها تحت قيادة عبد الرحمن بن مروان الجليقى (وهو من المولدين) وثاروا فخرج إليهم الأمير محمد وتمكن من الوصول إلى مـــاردة دون أن يشعر أهلها وحصرهم وضيق عليهم ثم قاتلهم حتى أذعنوا إلى التسليم والطاعة فقبل منهم على أن يخرج فرسانهم وهم عبد الرحمن بن مروان وابن شاكر ومكحول وغيرهم إلى قرطبة بعيالهم وذراريهم وولى عليها سعيد بن عباس القرشى وأمر بهدم سور المدينة ولم يبق إلا قصبتها مقرآ للوالى .

وقد ظل ابن مروان فى قرطبة إلى سنة ٢٦١ هـ حيث تمكن مع بعض مؤيديه من رجال ماردة من الهرب حيث استقروا بقلعة الحنش على بعد نحو ٢٠ كيلو مترا جنوب شرقى ماردة وتحصن بها وعاث فيما حولها فساداً فخرج إليه الأمير محمد وحاصره وضيق عليه ثلاثة أشهر حتى أكل الدواب وقطع عنه الماء ورماه بالمجانيق حتى أذعن وطلب الأمان فأمنه محمد وطلب منه ابن مروان الانتقال إلى بطليوس والإقامة فيها فأذن له الأمير ، فابتنى بطليوس وجعلها موطنا وحصنا أدخل فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل الشر والفساد وأعلن الثورة ثانية فأرسل إليه الأمير ابنه المنذر ٢٦٢هـ ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز فخاف ابن مروان وانتقل من بطليوس إلى حصن كركر واستعان بزميله سعدون السرنباقى الذى استمد ملك جليقية فأمده بقوة توجه بها لمساعدة ابن مروان فخرج إليه هاشم بن عبد العزيز والتقى معه فى معركة حامية كثر فيها القتل وأسر فيها هاشم وهزمت قوات الأمير وكان المنذر محاصرا لابن مروان فشدد عليه الحصار أياما ثم عاد ببقية الجيش إلى قرطبه وأرسل هاشم إلى ملك جليقية فمكث عامين أسيراً ثم افتداه الأمير سنة ٢٦٤هـ بمائة وخمسين ألف دينار . وقد علا شأن ابن مروان وصار رئيس المولدين فى الغرب وصار السرنباقى تابعاً له وقد عاث فى الأرض.

فسادا فلجأ إلى كورة اشبيلية وتوسط أعمالها وغنم حصن طلياطة بمن فيه ثم تقدم إلى لبلة ، دخل إلى أكشونية وضبط بها جبلا يقال له منت شاقر(١) وقد حدث بعد ذلك أن اختلف معه بعض أصحابه وتركوه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير وسير إليه الأمير سنة ٢٦٣ هـ ابنه المنذر فى جيش كبير توجه إلى ماردة فلما علم ابن مروان بذلك ترك بطليوس فنزل بها قائد المنذر الوليد بن غانم فخرب ديارها وأسوارها والجأ ابن مروان إلى ملك جليقية فمكث عنده ثمانى سنوات ثم دب الخلاف بينهما وعاد ابن مروان إلى منطقه بطليوس سنة ٢٧١ هـ واستأنف غاراته وفساده فى النواحى المجاورة فسير إليه الأمير ابنه المنذر فى قوة كبيرة زحفت على بطليوس ففر منها ابن مروان ولجأ إلى جبل « أشير غره » فتحصن به فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها وفى العام التالى أرسل إليه الأمير حملة أخرى ولكنها لم تحقق الهدف المقصود وانتهى الأمر إلى قبول شروط ابن مروان فى الاستقلال بحكم بطليوس وماجاورها وأن يعفى من المغارم والفروض(٢)

الحروب الخارجية :

كما قام الأمير محمد بتوجيه الحملات إلى الثورات المتعددة التى وقعت فى عهده فى كافة أرجاء الإمارة نجد أن المسلمين قاموا خلال عهده الطويل بحملات وغزوات متعددة إلى الدول والإمارات المجاورة لهم لرد عدوانهم ، وحملهم على احترام الحدود الإسلامية وسنشير إلى تلك الحملات المتعددة ثم نتتبع جهة من الجهات التى توجهت إليها بعض هذه الحملات .

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، ابن الاثير الكامل حـ ٧ ص ٢٨٨ ، ٣١٠ ، ٤١٦ ، ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ١٠٢ — ١٠٥ ، ابن خلدون العبر حـ ٤ صـ ١٣١ ، عنان دولة الإسلام صـ ٢٩٩ — ٣١٢ ، عبدالعزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس صـ ٢٤٦ — ٢٤٨ .

ففي سنة ٢٤١ هـ خرجت حملة إلى ألبة والقلاع وفي سنة ٢٤٢ هـ غزا برشلونة وفتح حصن طراجة وفي سنة ٢٤٥ هـ تصدى لرد حملات النورمان وفي سنة ٢٤٦ هـ غزا أرض بنبلونه ومكث جيشه فيها اثنين وثلاثين يوما يجوس خلالها ويفتتح حصونها ، وفي سنة ٢٤٧ هـ غزا برشلونة وملك أرباضها وبرجين من أبراج المدينة وفي سنة ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ غزا ألبة والقلاع ، وفي سنة ٢٥٣ خرج الحكم بن محمد إلى حصن جرنيق ففتحه وفي سنة ٢٥٩ هـ خرج الأمير محمد إلى بنبلونة فوطىء أرضها وفي سنة ٢٦٠ هـ خرج المنذر إلى بنبلونه فجال في أرضها وفي سنة ٢٦٤هـ دخل الوليد بن مالك إلى جليقية وأذهب نعيمهم وفي سنة ٢٦٨ خرج المنذر ففتح حصونا كثيرة في ألبة والقلاع(١) .

وهكذا نجد أنه خلال حكم الأمير محمد شعر جيرانه بقوة حكم المسلمين، وأنه رد عاديتهم وسوف نتحدث بالتفصيل عن الحملات التي توجهت إلى ألبة والقلاع ثم تصدى المسلمين لهجوم النرمان .

وفي سنة ٢٤١ هـ حشد الأمير محمد حشودا كثيرة وانضم إليه موسى بن موسى وأهل الثغور فتوجه إلى ألبة والقلاع فعاث في أرجائها وافتتح كثيرا من حصونها .

وفي سنة ٢٤٩ هـ توجه عبد الرحمن بن الأمير محمد بجيش كبير إلى إلى حصون ألبة والقلاع وكان القائد عبد الملك ابن العباس فافتتحها وقتل الرجال وهدم البنيان وأهلك زروعها فأرسل ملكها أردون أخاه بجيش كبير من النصارى ليقطع على المسلمين مضيق الفج فقاتلهم المسلمون قتالا

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٩٥ — ١٠٥ .

عنيفا حتى انتصروا عليهم وقتلوا منهم عددا كبيرا منه تسعة عشر قومساً من كبار قوادهم .

وفى سنة ٢٥١ هـ[(١)] خرج عبد الرحمن بن محمد بجيش وتقدم حتى حل على نهر دويرة ورتب عساكره فاحتل فج برذاش واستولى على حصونه الأربعة وخربها ولم يبق لرذريق صاحب القلاع ولا لردمير صاحب تروقة ولا لغند شلب صاحب برجية ولا لغومس صاحب مانقة حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب ثم قصد الملاحة ، وكانت من أجل أعمال رذريق فحطم ماحواليها وعفا آثارها.وقد جمع رذريق جيشا كبيرا واستعده للقاء المسلمين عند عودتهم فى فج يسمى ، فج المركوين ، قرب نهر ابرة وحفر بجوار خندقا لإعاقة عودة المسلمين فعبا كل من المسلمين والمشركين قواتهما ودرت بينهما معركة عنيفة صدق المسلمون فيها اللقاء فمنحهم الله النصر وشتتوا شمل أعدائهم ومزقوهم شر ممزق وكثر فيهم القتل والأسر والغرق فى النهر ثم سوى المسلمون الخندق حتى اجتازوه بسهولة ويسر وقد قتل من الأعداء أكثر من عشرين ألفا وفى العام التالى خرج إليهم عبد الرحمن بن محمد فى جيش فحاربهم وأفسد زروعهم حتى ضعف أهل ألبة والقلاع وامتنعوا عن التجمع والإحتشاد للإيقاع بالمسلمين وفى سنة ٢٦٨ هـ تقدم المنذر بن الأمير محمد والقائد هاشم بن العزيز إلى ألبة والقلاع ففتحوا حصونا كثيرة وأرهبوا العدو حتى لايتجمع لمواجهة المسلمين فى تلك البقاع[(٢)]

---

(١) اختلف فى قائد هذه الغزوة ابن الأثير يذكر المنذر بن محمد حـ ١ صـ ١٦٢ وابن خلدون يذكر الأمير نفسه حـ ٤ صـ ١٣١ أما ابن عذارى فيذكر عبدالرحمن بن محمد وقد أخذنا برأى بن عذارى لأنه هو قائد الحملة السابقة .

(٢) ابن الأثير الكامل حـ ٧ ص ٨٠ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ابن عذارى البيان حـ ٢ صـ ٩٥ - ١٠٥ ابن خلدون العبر حـ ٤ صـ ١٣١ عنان دولة الإسلام صـ ٢٩٣ - ٢٩٨ .

أما الحرب ضد النورمان فقد وقعت فى سنة ٢٤٥ هـ عندما قدم إلى سواحل الأندلس الغربية المجوس (النورمان) فى اثنين وستين مركبا وكان المسلمون منذ حملة النورمان السابقة فى أيام عبد الرحمن الأوسط قد أخـــذوا حذرهم وحرسوا شواطئهم وصارت سفنهم تحرس شواطئهم باستمرار ولذلك تصدت سفن المسلمين لسفن النورمان تجاه مدينة باجة فاستطاع المسلمون الاستيلاء على مركبين من مراكب النورمان بما فيها من الذهب والفضة والسبى والعدة . وسارت سفن النورمان نحو الجنوب حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية وقد تحركت جيوش المسلمين لقتالهم ونفر الناس سراعا من كل جهة تحت قيادة عيسى بن الحسن الحاجب ودارت بين المسلمين وبين النورمان معارك برية وبحرية رد النورمان فيها عن إشبيلية ، ثم نشبت بينهما معركة بحرية شديدة تجاه شاطىء شذونة أسر فيها المسلمون مركبين آخرين غير أن الأسطول النورمانى تغلب على أحد جناحى الأسطول الإسلامى وقتل قائده ثم تقدم النورمان نحو الجزيرة الخضراء فتغلبوا عليها وأحرقوا المسجد الجامع بها وأكثروا فيها الفساد ، ثم جازوا إلى عدوة المغرب وعاثوا فيه فسادا ، وانتقلوا منه إلى شـــاطىء الأندلس الجنوبى وتوجهوا إلى ساحل تدمير حتى وصلوا إلى حصن أريولة ودارت بينهم وبين المسلمين معارك شديدة برية وبحرية ثم تقدموا إلى إفرنجة فشتوا بها وأصابوا بها الذرارى والأموال وتغلبوا على مدينة سكنوها وقد مضت قوة من النورمان خلال نهر إبرة حتى وصلوا إلى بنبلونة وأسروا صاحبها غرسيه وافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار ثم انصرفوا إلى الأندلس وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركبا فلقيهم أسطول المسلمين بريف شذونة فأحرقوا لهم مركبين وأخذوا مركبين آخرين وغنموا ما فيها من الأموال الكثيرة ومضت بقية مراكب النورمان منسحبة من حيث أتت

بدون أن تحقق ما نصبوا إليه من نهب ديار المسلمين وذلك لحذر المسلمين حمايتهم لشراطئهم[1].

الاصلاحات فى عهده :

بعد هذا العرض للثورات الداخلية والحروب الخارجية يتبين لنا مدى الاهتمام بنشر الأمن والهدوء فى الداخل وحماية الدولة من الأعداء فى الخارج والاهتمام بشئون الرعية والبحث عما يفيدها يقول الوزير هاشم بن عبد العزيز : كان الأمير محمد يستشيرنا فنجتهد ونقول ونحصل فإن أصبنا أمضى ذلك ، وإن كان فى الرأى خلل قام فيه بالحجة[2] وهذا يبين مدى اهتمامه بالشورى ويقول عنه ابن عذارى « كان مهتبلا بأمور رعيته مراقبا لمصالحها ، ووضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد فى سبيل الله فأقبلوا على تأييده وتعضيده[3] . وقد ابتعدت الدولة فى عهده عن البذخ والترف ومالت إلى الاعتدال فى الأنفاق . وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة فى القصر مما يدل على حزم الأمير ويقظته وكان يسير الدولة الجهاز الإدارى الذى كان فى عهد آبائه من الحجاب والوزراء والقواد والكتاب والقضاه ، وقد بلغ وزراؤه وقواده : اثنا عشر وحجابه أثنا : ابن شهيد وابن أبى عبده وكتابه ثلاثه : عبد الملك بن أمية وحامد بن

---

(١) ابن الأثير الكامل حـ ٧ ص ٩٠ ابن عذارى البيان حـ ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ عنان دولة الإسلام ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) ابن عذارى البيان حـ ٢ ص ١٠٧ .

(٣) ابن عذارى البيان حـ ٢ ص ١٠٩ .

محمد الزجالي وموسى بن أبان وقصاله : أحمد بن زياد ثم عمرو بن عبد الله ثم سليمان بن أسود الغافقي . وقد اهتم بأمر الجيش والأسطول وأمر بأنشاء المراكب بنهر قرطبة وحملها إلى البحر المحيط وكان لها دور كبير في حماية الشواطيء من النورمان (١) .

ويذكر ابن أبي دينار أن جيش المسلمين في عهده بلغ مائة ألف فارس منهم عشرون ألفا بدروع الفضة وأنشأ في البحر سبعمائة غراب (٢) .

ويذكر ابن عذارى عن ابن حيان عدد الفرسان المستنفرين لغزو الصائفة المجردة إلى جليقية في مدة الأمير محمد مع عبد الرحمن ابنه على النحو التالي: كوره البيرة : ألفان وتسعمائه ، جيان: ألفان ومئتان ، قبرة : ألف وثمانمائة، باغة: تسعمائة، تاكرنا: مئتان وتسعة وتسعون، الجزيرة: مئتان وتسعون ، استجة : ألف ومئتان ، قرمونة : مائة وخمسة وثمانون، شذونة : ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، رية : ألفان وستمائة ، فحص البلوط : أربعمائه ، مورور : ألف وأربعمائه ، تدمير : مائة وستة وخمسون ، رتبنة: مائة وستة ، قلعة رباح وأوريط : ثلاثمائة وسبعة وثمانون فيكون مجموعهم ٢١٥٣٢ فارساً. وتفر من قرطبة عدد لم يوقف على قدره وذلك بعد أن رفعت الضريبة التي كانت على أهل قرطبة وأقاليمها وغيرها من البلاد وقطع عنهم الحشود التي كانوا يؤخذون بتجديدها في كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب وأسقطها عنهم ووكلهم إلى أختيار أنفسهم في التطوعية للجهاد من غير بعث وقد وقد حسن موقع ذلك منهم وتضاعف حمدهم له وشكرهم واغتباطهم بدولته (٣) .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٧ ص ٣٣٤ ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ١٠٣ ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٣١ .

(٢) ابن أبي دينار المؤنس في أخبار افريقية وتونس ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ١٠٩

وقد وجه اهتمامه إلى حماية المدن والثغور فبنيت حصون فى كورة رية ونواحى الجزيرة سنة ٢٦٦ه[1] . كما بنى حصن شنت إشتين لحماية مدينة سالم وبنى حصن طلمنكة وحصن بجريط بمنطقة وادى الحجارة للدفاع عن طليطلة كما عنى بمعرفة أخبار الثغور والبحث فى مصالحهم[2] .

ومع كثرة الأعباء التى ألقيت على كاهل المسلمين للقضاء على الفتن الداخلية والغزوات الخارجية فى عهد الأمير محمد فقد اهتموا بالمنشآت المعمارية ففى سنة ٢٤١ ه جددت طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقشه وفى سنة ٢٤٣ ه إجريت زيادة فى المسجد الجامع بسرقسطة الذى أسسه ووضع محرابه حنش الصنعانى من التابعين وفى سنه ٢٠٠ه كملت مقصورة المسجد الجامع بقرطبة وبنى فيها الأمير بنيانا كثيرا فى القصر الكبير والمنى الخارجة عنه امتازت بالجمال والأناقة كما عنى بتجديد منية الرصافه التى أنشأها عبد الرحمن الداخل واهتم بحدائقها ومتنزهاتها وزودها بالأشجار النادرة وجعلها منتدى نزهه وأسماره[3] . وقد شجع العلماء والشعراء والفقهاء الذين كان لهم فى عهده نفوذ كبير فى بلاط قرطبه[4] .

هذا النشاط الجم الذى تم فى عهـــد الأمير محمد جعله محبوبا فى جميع البلدان وكان محمد بن أفلح أمير تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار أمراء سجلماسة ، وكان هو شديد الاهتمام بهم وأخبارهم وأحوالهم ، وكان شارل الأصلع ملك

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣

(٢) عنان دولة الاسلام ص ٣٠٧ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ عنان دولة الإسلام ص ٣١٠ .

(٤) عنان دولة الإسلام ص ٣١١ .

فرنسا (أفرنجة) يقدر خلاله ويتودد إليه ويقدم له التحف والهدايا وكانت تربطه علاقة مودة ببني قسي سادة الثغر الأعلى الذين كانت لهم جهود طيبة فيما وراء جبال البرنية(١) .

وقد ظل الأمير محمد يدير شئون المسلمين في الأندلس بحكمة وحزم حتى أدركته الوفاة في ٢٩ من صفر سنة ٢٧٣ هـ بعد حياة حافلة بالكفاح والنضال وعمره خمس وستون سنة وأربعه أشهر ومدة إمارته أربع وثلاثون سنه وعشرة أشهر وعشرين يوما(٢)

٥ — المنذر بن محمد(٣) ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ ٨٨٦ - ٨٨٨ م

كان المنذر الساعد الأيمن في حماية الدولة أثناء أمارة أبيه محمد وقد وجهه أبوه كثير المقاتلة الخارجين على الدولة ومدافعة المهاجين لها . ولذلك خصه أبوه بولاية العهد وقد توفى أبوه والمنذر يقاتل ابن حفصون أخطر الثائرين على الدولة فعاد المنذر إلى قرطبه حيث تمت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنه ٢٧٣ هـ وكان متصفا بالشجاعة والعزم والحزم والصرامه مما جعل أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنه يذعنون إليه ويرسلون إليه بالطاعه قبل أن يطلبها ولو امتد به العمر لقضى على كل الثائرين ووطد الأمن في كل أرجاء الدولة وحمى المسلمين شر الفتنة .

وفي أول عهده فرق العطاء في الجند وتودد إلى الرعية بإسقاط عشر العام عنهم وما يلزمهم من جميع المغارم . وقد ذكر الرازي أن المنذر أرسل

---

(١) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ١٠٨ عنان دولة الإسلام ص ٣٠٩ .

(٢) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ٩٤ .

(٣) مولده بقرطبة سنة ٢٢٩ هـ وأمه تسمى أثل وتوفى في صفر سنة ٢٧٥ هـ

محمد بن لب فى بداية ولايته إلى ألبة والقلاع ومعه جموع المسلمين ففتح الله المسلمين وقتلوا من المشركين جمعا كثيرا .

وقد شمر المنذر عن ساعد الجد لمقاتلة الثائرين وكانت حصون رية قد حصلت فى طوع ابن حفصون فبعث إليها الجند وأعادها إلى الطاعة وقد استغل ابن حفصون وهو من المولدين موت الأمير محمد فبسط سلطانه على الحصون التى بينه وبين الساحل كلها وكان يدعو الناس إلى الثورة و يتألفهم ويقول : « طال ما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم »[١] ولذلك فقد انضم إليه عدد كبير من أهل الحصون وكان أكثر أتباعه شطار الناس وشرارهم وكان يمنيهم بفتح البلاد وغنائم الأموال وقد امتد شر ابن حفصون إلى قبرة وقرية الجالية وعلى أحواز جيان وأسر عبدالله بن سماعة عامل باغه واستولى أتباعه على حصن آشر من حوزة رية[٢] .

وقد أرسل الأمير المنذر أصبغ بن فطيس فى خيل كثيفة إلى حصن آشر ففتحته وقتلت من كان فيه من أتباع ابن حفصون كما أرسل المنذر عبدالله بن محمد بن مضر وأيدون الفتى بخيل إلى ناحية لجانة من قبرة وكان بها مسلحة لابن حفصون فنازلوهم وقتلوهم عن آخرهم . وقد ثار أهل طليطلة وانضم إليهم كثير من البربر المنفيين من ترجيلة فأرسل إليهم قوة هزمت الثوار وقتلت منهم ألوفا[٣] .

وقد خرج الأمير المنذر بجيوشه إلى ابن حفصون فى سنة ٢٧٤ هـ .

---

(١) ابن عذارى البيان جـ٢ ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) المرجع السابق صـ ٣١٤ .

فاستولى على حصونه برية وتيرة ثم توجه إلى ابن حفصون فى ببشتر حاضرته لحاصره وضيق عليه وأفسد ما حواليه ثم انتقل الأمير إلى أرشذونه لحاصرها وضيق عليها حتى استولى عليها وقبض على عيشون التابع لابن حفصون وفتح حصون بنى مطروح فى باغة وأرسل عيشون وبنى مطروح حرب وعون وطالوت إلى قرطبة فقتلوا هناك وكانوا اثنين وعشرين رجلا(١)

وقد خرج المنذر إليه مرة أخرى وعزم على حصاره فى قلعته ببشتر حتى يقضى عليه أو يستسلم وضيق عليه الخناق من كل جانب حتى يئس ابن حفصون من شدة الحصار فلجأ إلى الحيلة بأن أظهر الخضوع والطاعة على أن يكون من خاصة جند الأمير ويسكن قرطبة بأهله وولده وأن يلحق أبناءه فى الموالى فقبل الأمير ذلك وأغدق عليهم العطايا وكتب له عهد الأمان وطلب ابن حفصون من الأمير مائة بغل ليحمل عليها متاعه فأرسلها الأمير إليه ورفع الحصار عنه وقفل راجعا بجيشه إلى قرطبة وعندذلك عاد ابن حفصون إلى ببشتر وتحصن بها وقد قويت نفسه بما حصل عليه من الأمداد وقد غضب المنذر لتلك الخيانة وعاد مسرعا إلى ببشتر ليضرب عليها الحصار مقسما ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حيا و ميتا واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوما مرض فى نهايتها المنذر فأرسل إلى أخيه عبدالله لينوب عنه فى متابعة الحصار وفى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ لفظ المنذر أنفاسه تحت أسوار ببشتر وهو محاصر لابن حفصون بعد قرابة عامين من إمارته وحمل على جمل إلى قرطبة فدفن مع أجداده هناك(٢) .

---

(١) ابن عذارى البيان ص ١١٧ .

(٢) ابن عذارى البيان جـ ٢ ١١٨، ١١٩

وكان وزراء المنذر أحد عشر وكتابه اثنان : سعيد بن مبشر ، وعبد الملك بن عبد الله ابن أمية بن شهيد وحاجبه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد وقواده سبعة وقاضيه : أبو معاوية عامر بن معاوية اللخمي[1] ، وقد قال عنه الشيوخ : أنه لو عاش المنذر عاما واحدا آخر لم يبق برية منافق ولتمكن من القضاء على ابن حفصون وغيره من الثائرين ولأمنت الأندلس شر نفاقها بعد ذلك ، هذا يدل على مكانته ومنزلته[2] .

٦ — عبدالله[3] بن محمد بن عبد الرحمن ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ ٨٨٨ - ٩١٢م.

تولى إمارة الأندلس بعد المنذر أخوه عبدالله بن محمد وقد بويع في اليوم الذى توفى فيه أخوه في المحلة على بيشتر يوم السبت في النصف من شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ وقد عاد إلى قرطبة ومعه جثمان أخيه المنذر فدفن مع آبائه في مقبرة القصر المعروفة بالروضة وتمت البيعة لمحمد في قرطبة ولم يعارضه أحد من إخوته .

وكانت الأندلس عند ولاية محمد تموج بالفتن وكثر فيها الخوارج والمتغلبون فصار في كل جهة متغلب ولم تزل كذلك طول ولايته[4] وقد تألب على المسلمين أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم على المسلمين فصاروا بين قتيل ومحروب ومحصور وانقطاع الحرث

---

(١) المرجع السابق صـ ١١٣ .

(٢) المرجع السابق صـ ١٢٠ عنان دولة الإسلام صـ ٣١٧ .

(٣) ولد في النصف من ربيع الآخر سنة ٢٢٩ هـ وأمه تسمى بهار وقيل عشار وتولى الامارة وعمره ستة وأربعون سنة وتوفى سنة ٣٠٠ هـ ومدة إمارته خمس وعشرون سنة وخمسة عشر يوما .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ ٧ صـ ٤٣٥ .

وكاد ينقطع النسل ؛ وقد ناضل الأمير عبد الله بكل جهده وطاقته ليحافظ على المسلمين من أعدائهم وندر خروج المجاهدين إلى دار الحرب وصارت بلاد الاسلام بالأندلس هى الثغر المخوف(١). وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيوش ومائة ألف للنفقة فى النوائب وما يعرض ومائة ألـــف ذخيرة ووفر فأنفقوا الوفر فى تلك السنين وقل الخراج(٢).

ولم تقتصر الثورات على المناطق الجبلية بل امتدت إلى السهول والمدن الكبيرة مثل اشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها وشارك فيها المولدون وبعض زعماء القبائل العربية والبربرية وقامت معارك بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم. واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية، وغدت أشبيلية مسرحا للصراع الدموى بين العرب البربر، واستولى ابن حفصون على معظم الجهات الجنوبية الغربية من الأندلس وهكذا عمت الفتن معظم جهات الأندلس(٣).

وقد بذل الأمير عبد الله قصارى جهده للقضاء على هذه الثورات وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لإنقاذ الدولة من خطر الإنهيار محاولا القضاء على الفتن وتوجيه الغزوات وخوض المعارك المستمرة التى استنفدت قوى الدولة ومواردها. وإذا كان لم يتمكن من القضاء على الثورات فى جميع النواحى فقد وفق فى تمزيق شمل كثير من الثوار واستمال بعض زعمائهم الخطرين إليه وبسط سلطان الدولة من الناحية الإسمية على الأقل على بعض

(١) ابن عذارى البيان ج٢ ص١٢١.

(٢) ابن خلدون العبر ج٤ ص ١٣٣.

(٣) عنان دولة الإسلام ص ٣١٩

القواعد الهامة مثل اشبيلية وسرقسطة ، وكان لذلك أثره فى تمهيد الطريق لتمكين خلفه عبد الرحمن الناصر من القضاء على عناصر الثورة والخلاف وتوطيد سلطان الدولة(١) .

وقد بين الوزير المؤرخ ابن الخطيب أسباب انتشار الثورة فى الأندلس فى عهد عبدالله بقوله : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول . منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين فهم شوكة وحد بخلاف سواهم . والثانى . علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشراف يأنف بعضهم من الإذعان لبعض ، والثالث : الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض فكان الأمراء من بنى أمية يرون أن اللجاج فى أمورهم يؤدى إلى الأضلوله وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية وتعريض الجيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل ولا يقوم السرور بغلبة الثائر بما يوازيه من ترحة هذه الأمور(٢) .

الثورات فى عهده :

وقد تحدث ابن عذارى بالتفصيل عن جملة الثوار فى الأندلس فى عهد الأمير عبد الله وسنشير إليهم بإيجاز ليتضح مدى خطورة هذه الثورات وانتشارها ثم نلقى ضوءا على ثورة ابن حفصون التى تعتبر من أخطر الثورات فى عهده .

---

(١) المرجع السابق ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٦ نقلا عن عنان دولة الإسلام ص ٣٤٠ .

فقد ثار سوار بن حمدون بحصن منت شاقر ، وثار سعيد بن جودى فى سنة ٢٧٦ هـ بالعرب فى البيرة ، وثار العرب بإشبيلية ، وتغلب إبراهيم بن حجاج على اشبيلية ، وثار ديسم بن اسحاق وغلب على مدينتى لورقة ومرسية ، وثار عبيد الله بن أمية وملك كورة جيان ، وعبد الرحمن بن مروان ببطليوس وماردة ، وعبد الملك بن أبى الجواد بمدينة باجة ، وثار منذر بن إبراهيم ابن السليم بمدينة ابن السليم فى شذونة ، ومحمد بن عبد الكريم بن إلياس بقلعة ورد من كورة شذونة ، وثار خير بن شاكر بحصن شوذر من كورة جيان ، وعمر بن مضم الهزولى فاستولى على قصبة هزول ، وسعيد ابن هذيل بحصن المنتلون من كورة جيان ، وسعيد بن مستنة بكورة باغة ، وثار بنو هابل الأربعة ببعض حصون جيان ، وثار اسحاق بن إبراهيم العقيلى بحصن منتيشة ، وسعيد بن سليمان بن جودى أمرته عرب غرناطة والبيرة ، وثار محمد بن أضحى الهمدانى من أكابر أبناء العرب بكورة البيرة ، وثار بكر بن يحيى بن بكر بمدينة شنت مرية من كورة أكشونية ، وثار ابنا مهلب من وجوه العرب بكورة البيرة ، وثار سليمان بن محمد الشذونى بشريش شذونة ، وثار ابنا جرح بحصن بكور ، وثار أبو يحيى التجيبى المعروف بالأنقر بمدينة سرقسطة (١) .

ثورة ابن حفصون (٢) :

تعتبر ثورة ابن حفصون من أقوى الثورات التى قامت ضد الإمارة

---

(١) ابن عذارى البيان جـ ٢ ص ١٣٣ — ١٣٧ .

(٢) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس ثار بالأندلس وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ هـ فخرج بجبل ببشتر من ناحية رية ومالقة وانضم إليه الكثير من جند الأندلس ممن فى قلبه =

الأموية فى الأندلس وقد قاومها الأمـــير محمد وابنه المنذر الذى توفى وهو محاصر لابن حفصون فى قلعته وعندما تولى عبد الله الأمارة بعث الى ابن حفصون إبراهيم بن خمير لأخذ بيعته و بيعة اتباعه فتظاهر ابن حفصون بالقبول وأرسل ولده حفصاً وبعض اتباعـــه إلى الأمير ، فأخذت البيعة عليهم وردهم الأمـــير ردا جميلا ومنحهم الهبات والعطايا ، واشرك مع ابن حفصون فى ولاية رية عبد الوهاب عبد الرؤف واليا من قبله لإدارة شئون الولاية ولـكن ذلك لم يدم سوى عدة شهور ثم انتقض ابن حفصون وطرد عبد الوهاب عامل الأمير وعاث فى الأرض فسادا . فخرج إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٦ هـ واجتاح منطقة ببشتر وحصون رية وخرب بها ثم عاد إلى قرطبة فخرج ابن حفصون فى أثره وكثر المفسدون حوله فاحتلوا استجة فبعث إليهم الأمير جيشا تغلب عليهم ونزل ابن حفصون واعترف بذنبه فعقد له الأمير أمانا ولـكنـه عاد فنقضه وقصد بيانة فحارب أهلها ثم أعطاهم أمانا فلما نزلوا إليه غدرهم وقتلهم [١] . وعندما ثار ابن شاكر بجيان أرسل إليه عبد الله الجند بقيادة أحمد بن أبى عبدة فحاصره وقتل جماعة من أصحابه وخرب معظم دور جيان ثم عاد دون أخضاعه فارسل ابن حفصون جماعة من أصحابه بحجة مساعدة ابن شاكر ولـكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون فبعث بها إلى الأمير عبد الله مصانعة له ولـكن الأمير لم يخدع بذلك [٢] .

= رض فى الطاعة وابتنى قلعته المعروفة به هنا لك واستولى على عرب الاندلس إلى رندة وعلى السواحل من المتجه إلى البيرة وظل ثائراً إلى أن هلك سنة ٣٠٦ هـ فخلفه أبناؤه من بعده إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ ابن خلدون العبر حـ ٤ ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(١) ابن عذارى البيان حـ٢ ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ وعنان دولة الإسلام ص ٣٢٠ .

وقد انتشر شر ابن حفصون فى كثير من الجهات حتى بلغ أحواز قرطبة وحاول فرسانه إحراق مخيم الأمير فى ضاحية شقندة قرب قرطبة فخرج إليه الأمير فى صفر سنة ٢٧٨ ﻫ فى جيش بلغ تعداده ثمانية عشر ألفا وكان تعداد جيش ابن حفصون ثلاثين ألفا ودارت بين الفريقين معركة عنيفة على نهر الفورشكة قريبا من حصن بلاى فهزم ابن حفصون وقتل كثير من جنده وفر الباقون وحاول ابن حفصون اللجوء إلى حصن بلاى ولكن لم يفده ذلك فارتد ابن حفصون إلى الجبال الجنوبية ودخل المسلمون حصن بلاى واستولوا على ما فيه من ذخائر ولم يطارد الأمير الثائر جنوبا ولكنه توجه إلى استجة التى كانت تابعة لابن حفصون فحاصرها حتى سلمت له وطلب أهلها العفو فعفا عنهم .

توجه الأمير بعد ذلك إلى ابن حفصون فى ببشتر قاعدته الرئيسية التى لجأ اليها عقب الهزيمة وجمع كثيرا من انصاره وأتباعه فيها ولكنه لم يخرج لملاقاة الأمير فعاث الأمير فى تلك المنطقة وحين عودة الجيش إلى قرطبة اشتبك ابن حفصون مع مؤخرة الجيش فى معركة هزم فيها ابن حفصون ورد على أعقابه فى ربيع سنة ٢٧٨ﻫ وقد اضعفت موقعة بلاى من قوة ابن حفصون وقللت من طغيانه ولكنه عاد وجمع أتباعه وخرج إلى البيرة فتغلب عليها فأخرج إليه الأمير جيشا بقيادة ابن أبى عبدة فتغلب على ابن حفصون وهزمه واضطر إلى طلب السلم فوافق الأمير على طلبه ولكنه سرعان ما نقض العهد فأرسل إليه الأمير سنة ٢٨٠ ﻫ ابنه مطرف بالجيش فحاصر ابن حفصون فى ببشتر ودمر عمارتها وعاث فى أنحائها وقد اعتصم ابن حفصون بمعقله ولكنه اضطر إلى الخروج للقاء المطرف فى موقعة هزم فيها وقتل اشجع

قواد ابن حفصون حفص بن المرة (١).

وفي سنة ٢٨٤ هـ جمع ابن حصفون أتباعه واستولى على استجة للمرة الثانية فجمع الأمير جنوده ووجههم إليه في سنة ٢٨٥ هـ بقيادة ابنه أبان ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة فدارت بينهم وبين قوات ابن حفصون عدة معارك ثم عاد الجيش إلى قرطبة دون أن تسفر هذه المعارك عن نتيجة حاسمة».

وفي سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفي من اعتناقه للنصرانية وتسمى صمويل وقد حمل ذلك كثيرا من أتباعه من المولدين الذين استقر الإسلام في قلوبهم إلى الإنصراف عنه ومنابذته وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير عبدالله. وقد اشتد السخط على ابن حفصون في أنحاء الأندلس وجد المسلمون في قتاله ورأوا أن حربه جهاد وقدحاول ابن حفصون أن يقوى مركزه واستخدم شتى الطرق فعقد صداقات ومحالفات. مع الفونس الثالث ملك ليون وبني قسي، وكاتب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس وبعث ابن حفصون بطاعته للشيعة عندما تغلبوا على القيروان من يد الأغالبة وأظهر بالأندلس دعوة عبيد الله المهدي(٢).

وقد تابع الأمير عبدالله إرسال الحملات المتتابعة في كل عام بقيادة أبنائه وقواده إلى ابن حفصون ليحاصروا ببشتر مقرة وغيرها من الحصون والمدن التابعة له وحققوا الهزائم المتتابعة عليه وعلى أتباعه وأنصاره وقتلوا

---

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٢٤، عنان دولة الإسلام ص ٣٣٢ عبدالعزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٦٢.

(٢) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٣٩، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٥ عنان دولة الإسلام ٣٣٣.

خلالها كثيرا من جنده وعاثوا فى المناطق التى كان يستولى عليها فسادا واستمر ذلك إلى نهاية عهد الأمير عبدالله سنة ٣٠٠ هـ ومع استمرار الدولة فى عهد عبد الله على قتال ابن حفصون وانهاك قواه فإنها لم تنجح فى القضاء عليه وإخماد ثورته التى استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل له ولم تقض على ثورته إلا فى عهد حفيده الذى تولى بعده عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ(١) .

وقد وقعت مجاعة شديدة فى عهد الأمير عبدالله فى سنة ٢٨٥ هـ قاسى الناس منها كثيرا من المصاعب والأهوال .

حروب خارجية :

شغل المسلمون خـــلال عهد عبدالله بالقضاء على الفتن الداخلية فى الأندلس ومحاربة الثائرين فيها ضد دولة الأمويين فى الأندلس . ولكنهم مع ذلك بذلوا جهودهم لحماية حدودهم الخارجية وغزوا جيرانهم بحملات قليلة واستولوا على بعض الجزر وقد اضطلع بذلك بعض الولاة الذين كانوا يتولون الأطراف دون أن يصل إليهم مدد من مقر الدولة فى قرطبة .

ففى سنة ٢٨٤ هـ غزا عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركى وجبل البرانس وقتل ابن يامين وابن موجول وأخذ حصونهما وتقدم لب بن محمد من بنى قسى الذى أقره الأمير عبدالله على حكم تطيلة وطرسونة وما حولها من طليطلة إلى حيز جيان – ونازل حصن قسطلونة وكان فيها نصارى يحاربون عبيدالله بن أمية المعروف بابن الشالية فأخذ الحصن وقتل العجم(٢) .

---

(١) ابن عذارى البيان حـ٢ ص١٣٩-١٤٩ ، ابن خلدون العبر حـ٤ص١٣٥ عنان دولة الإسلام ص ٣٢٣ ، ٣٣٤ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٥٩ – ٢٦٥ .

(٢) ابن عذارى البيان حـ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

وفى سنة ٢٩٠هـ غزا لب بن محمد أرض ليون واستولى على بعض حصونها وهزم ألفونس الثالث فى معركة نشبت بينهما (١) وفى سنة ٢٩١ هـ خرج لب بن محمد إلى بايش من أحواز ألبة ففتح حصون إيلاس وقشتيل سنت ومولة وقتل بهذه الحصون نحو سبعمائة علج وسبى نحو ألف سبية ، وفى العام التالى خرج لب لمحاصرة سرقطة وردم الخندق المجاور لسورها وشرع فى البنيان عليها فلما تم له ذلك رحل عنه وترك فيه بعض رجاله (٢) ، وفى سنة ٢٩٤ هـ غزا لب بن محمد نافار وخرج إلى ناحية بنبلونة وشرع فى البنيان بحصن هريز فحشد سانشو (شانجة) ملك نافار جميع أهل بلده ووضع له الكمائن وقد تغلب لب على بعض هذه الكمائن وفى النهاية أحدقت به الكمائن وتمكنت من التغلب عليه وقتله فى الثانى عشر من ذى الحجة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وكان لب زعيما مقداما وافر الجرأة والشجاعة . وخلفه فى حكم تطيلة أخوه عبد الله بن محمد بن لب مطيعا للإمارة فى قرطبة وتابع الإغارة على أرض النصارى (٣). وقد ظهر فى هذه السنة محمد بن عبد الملك بن شبرط المعروف بالطويل لطوله الفائق وهو من أكابر أسر المولدين بالثغر وكان منزلهم بوشقة وبربشتر وقد استولى على حصن بربشتر والقصر وبرطانية وفى العام التالى سنة ٢٩٥هـ دخل الطويل حصن منتشون ومدينة لاردة فى المحرم ثم خرج إلى برطانية وافتتح حصونا جمة وسبى سبيا كثيراً وقد استمر الطويل بعد ذلك فى الإغارة على أراضى النصارى المجاورة ففى العام التالى سنة ٢٩٦هـ خرج الطويل إلى منطقة بليارش فى شهر رمضان فعاث فيها وقتل كثيرا من النصارى ووفد عليه رسل حصن روطة يرغبون فى الصلح

(١) عنان دولة الإسلام ص ٣٢٧ .

(٢) ابن عذارى البيان ج٢ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ عنان دولة الإسلام ص ٣٢٧ .

ويسمحون بالرهائن والجزية فلم يجبهم فخرجوا هاربين من الحصن وأخلوه فتقدم اليه وهدمه ثم استولى على حصن منت بطروش وهو المعروف بجبل الحجارة وفى العام التالى سنة ٢٩٧ هـ خرج الطويل إلى منطقة بليارش ففتح حصون أوديولة . وغلتير والغيران وهدمها وقتل كثيرا من المشركين وسبى نساءهم وبلغ الفىء فى هذه الغزوة ثلاثة عشرا ألفا (١) .

وفى سنة ٢٩٨ هـ خرج الطويل وقد اتفق مع عبدالله ابن لب إلى ارغون (نافار) للزحف على عاصمتها بنبلونة وسار كل منهما فى طريق وأغار الطويل على بعض الحصون وحرقها وهدم الكنائس ولكنه انسحب عندما علم بأن شانجه يسير لقتاله وعندما علم ابن لب بإنسحاب ابن الطويل أعرض عن ملاقات شانجة ونزل على حصن لوازة من حصون شانجة فقتل جماعة منهم وكر راجعاً فالتقى ببعض خيل شانجة فقتل منهم وسبى وفى العام التالى سنة ٢٩٩ هـ غزا الطويل وادى برشلونة وأغار على وادى طراجة ونشبت بينه وبين حاكمها الكونت شنير معركة هزم فيها الكونت وقتل كثيراً من أصحابه (٢) .

وفى سنة ٢٨٠ هـ استولى الفونس الثالث ملك ليون على مدينة سمورة وأسكنها النصارى وصار يغير منها على الأراضى الإسلامية المجاورة وقد خرج فى سنة ٢٨٨ هـ أحمد بن معاوية من ولد هشام بن عبد الرحمن ويعرف بابن القط ودعا لنفسه فى أحواز طليطلة وطلبيرة ثم أعلن الجهاد وتوجه إلى سمورة لافتتاحها فقابله الفونس بقواته فهزم النصارى أولا ولكنهم تمكنوا من التغلب على ابن معاوية وقتله بعد أن قاتل ببسالة وشجاعة وبذلك

---

(١) ابن عذارى البيان حـ٢ ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ عنان دولة الإسلام ص ٣٣٩ .

انهارت حركته ووطد الفونس سلطانه في تلك الأنحاء[1].

وفي سنة ٢٩٠ هـ أرسل الأمير عبد الله عصام الخولاني بأسطول بحرى من المجاهدين إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار) ميورقة وغيرها فحاصرها أياما ثم تمكن من فتحها حصنا حصنا إلى أن تم فتحها وولاه الأمير عليها وصارت تابعة للمسلمين وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات[2].

الإصلاحات في عهده :

مكث الأمير عبد الله في الحكم خمسة وعشرين عاما قضاها في مقاومة الفتن والقضاء عليها ، ومحاربة الثوار وقتالهم ، وحاول جهد طاقته المحافظة على حدود الدولة وقد تولى حجابته عبد الرحمن بن شهيد وسعيد بن السليم ثم عزله ولم يول الحجابة أحدا . ووزراؤه ستة وعشرون ، وكتابة ثلاثة وكان يعاونه من يتولى القضاء ومن يتولى الشرطة ويتولى قيادة الخيل وولاية المدينة ، وولاية السوق .

وكان عبدالله يجالس وزراءه وكبار رجال دولته أكثر أيامه لمناقشتهم في أمور الدولة واتخاذ الخطط للقضاء على الفتنة ،وعمل عبد الله على نشر العدل ورفع الظلم والبغي وفتح باب حديد مشرجا في القصر سماه باب العدل يقعد فيه للناس يوما معلوما من كل جمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا ، فلايتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده إليه ولا إنهاء مظلمة على لسانه وكان أهل المكانات وذوى المنازل والأقدار يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوى منهم ولا يتحاملون على من دونهم ويهابون عقابه ويتحرون موافقة مذاهبه . وكان الأمير عبد الله مقتصدا في ملبسه ومظاهر

(١) ابن عذارى البيان حـ٢ ص ٢٢٤، ١٤٠ عنان دولة الإسلام ص ٣٤٠، ٣٤١

(٢) ابن خلدون حـ٤ صـ ١٦٤ عنان دولة الإسلام صـ ٣٤١ ، ٣٤٢ .

حياته وجميع أحواله محتشما فى حياته الخاصة . وورعا محبا للخير وأهله كثير التواضع منكرا للسرف وأهله كثير البر على الفقراء والمحتاجين وخصص لهم سهما من الجبايات وكان حافظا للقرآن كثير التلاوة له دائم الخشوع والذكر لله بصيرا باللغات حافظا لأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء فكانت اللذات فى أيامه مهجورة وكان لذلك أثر كبير فى تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة والإقتصـــاد فى اللهو والملاذ فى عصر كثرت فيه الخطوب والمحن .

ولكثرة الثورات والفتن وانشغال الدولة بالقضاء عليها لم يقم فى عهده أعمال إنشائية سوى « الساباط » الموصل بين القصر والمسجد الجامع وهو ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يمضى من القصر إلى الجامع ويتصل به على مقربة من المحراب . كما استقر جماعة من البحريين فى بجانة وبنوا سورها فأمها الناس من كل مكان وأقبلوا يسكنونها فراراً من الفتنة فى الأندلس وفى سنة ٢٧٥ هـ كتب البحريون الذين اختطوا مدينة بجانه إلى إلى الأمـــير عبد الله يسألونه إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره وإباحتهم البنيان حول قصبة بجانة والتوسع فى عمرانها ومرافقها لتكاثر الناس فى المدينة فأجابهم إلى ذلك . فتوسعوا فى الاختطاط بأرض بجانة فى بداية عهده وأقاموا حولها عشرين حصنا منها وادى بجانة والحامة والخابية ، وبنى طارق فى الغرب وحصن ناشر فى الشرق وحصن برشانة فى الشمال بجوار جبال الرخام وحصن عالية .

وفى ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ توفى الأمير عبدالله بن محمد ، دفن بالقصر مع آبائه وأجداده وهو ابن اثنتين وسبعين سنة بعد حكم استمر خمسا وعشرين سنة قضاها مكافحا مناضلا للقضاء على الفتن والمحافظة على حدود الدولة يقول ابن عذارى وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بنى

أمية بالأندلس وأمثلهم طريقة وأعمهم معرفة وأمتنهم ديانة إلا أنه كان منغص الحال بدوام الفتنة وتضييق نطاق الخطة ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخاله الرياء تحت قناع تقواه والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من هواه وغمص دينه لما كان من هوان الدماء عليه بسبب الفتن الطارئة حتى من والديه .

وقال عنه الفقيه محمد بن حزم : « إنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات وإعراجه عن المنكرات » . ثم يتهمه بقتل أخيه المنذر وقتل ولديه محمد والمطرف وقتل أخوين له هشاما والقاسم ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله والله أعلم بحقيقة أمره[١] .

والذى يبدو لى أنه قد بذل جهدا كبيرا فى مقاومة الفتن والمحافظه على الدولة ومقاومه الخارجين عليها ولم يتوان فى ذلك بل بذل كل جهده وطاقته حفاظا على الدولة وحماية لها حتى تولاها حفيده عبد الرحمن الناصر الذى أعاد للدولة وحدتها وقوتها وتقدمها وازدهارها وذلك ماسنتحدث عنه فى الجزء الثانى إن شاء الله .

---

(١) ابن عذارى ج٢ ص١٥٢ ، ١٥٦ عنان دولة الإسلام ص ٣٤٢ - ٣٤٧ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

ثبت ببعض المصادر والمراجع

ابن الابار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م)
الحلة السيراء : جزءان : نشر حسين مونس (القاهرة ١٩٦٣ م)

إبراهيم شعوط دكتور :
أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ دار الطباعة المحمدية ١٩٦٥ م

إبراهيم العدوى دكتور :
— موسى بن نصير أعلام العرب عدد أغسطس سنة ١٩٦٧ م

ابن الاثير أبو الحسن على بن محمد الجزرى (ت ٦٢٠ هـ /١٢٢٣ م)
— أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ١ نشر مطابع الجمعية التعاونية
— الكامل فى التاريخ دار صادر بيروت ١٩٦٥

أحمد إبراهيم الشعراوى دكتور :
— الأمريون أمراء الأندلس الأول دار النهضة العربيه ١٩٦٩ .

أحمد بدر دكتور :
— دراسات فى تاريخ الاندلس وحضارتها مطابع ألف باء الأديب
دمشق سنة ١٩٦٩ م

أرسلان الأمير شكيب أرسلان
— تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط
مطبعة الحلبى

الاصطخرى أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى توفى فى النصف الأول من القرن
الرابع الهجرى
— المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال نشر دار القلم سنة ١٩٦١م

الباجى : أبو عبدالله محمد الباجى المسعودى :
— الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية مطبعة الدولة التونسية بتونس سنه
١٢٨٣هـ .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك
— الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم
ج ١ ، ٢ طبع فى مجريط روخس سنة ١٨٨٢ م

البلاذرى أحمد بن جابر ت ٢٧٩ هـ

— فتوح البلدان نشر د . صلاح المنجد مكتبة النهضة

ابن حزم أبو محمد على بن سعيد ت ٤٥٦ هـ
— جمهرة أنساب العرب تحقيق ليفى بروفنسال دار المعارف مصر

حسن إبراهيم حسن دكتور

— تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى مكتبة النهضة ١٩٧٤
— تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب مكتبة
النهضة المصرية سنة ١٩٦٤

حسن حسنى عبد الوهاب

— خلاصة تاريخ تونس الطبعة الثانية

حسن سليمان محمود
— ليبيا بين الماضى والحاضر

حسين مؤنس دكتور :
فتح العرب للمغرب الناشر مكتبة الآداب بالجاميز

الحميدى . أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى ت ٤٨٨ هـ
. . جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس المكتبة الأندلسية الدار
المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربى
— العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الأكبر مؤسسة الإعلمى بيروت سنة ١٩٧١ م

ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشافعى

— وفيات الأعيان تحقيق الشيخ محي الدين عبدالحميد مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م

الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الانصارى

— معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان مكتبة الخانجى سنة ١٩٦٨

دبوز : محمد على دبوز

— تاريخ المغرب حـ ٢ طبع دار أحياء الكتب العربية ١٩٦٣

ابن أبى دينار محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى ت ١١١٠ هـ

— المؤنس فى تاريخ أفريقيه وتونس تحقيق محمد شمام المكتبة العتيقة بتونس

الدنيورى : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ

— الإمامة والسياسة

الرقيق القيروانى أبو اسحق إبراهيم بن القاسم ت فى القرن الخامس الهجرى

— تاريخ افريقية والمغرب تحقيق المنجى الكعبى مطبعة الوسط بتونس

ابن سعد محمد سعد كاتب الواقدى

— الطبقات الكبرى دار التحرير للطبع والنشر

السلاوى . أحمد بن خالد الناصرى

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى المطبعة البهية بالقاهرة ١٣١٢ هـ

سيد أمير على

— مختصر تاريخ العرب ترجمة عفيف البعلبكى دار الملايين سنة ١٩٦٧

السيد عبد العزيز سالم دكتور

— المغرب الكبير حـ ٢ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ م

— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس دار المعارف بيروت سنة ١٩٦٢ م

شكرى فيصل دكتور

— حركة الفتح الإسلامى فى القرن الاول دار العلم للملايين سنة ١٩٥٢ م

الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى

— تاريخ الفتح العربى فى ليبيا دار المعارف سنه ١٩٦٣

الطبرى ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ

— تاريخ الامم والملوك دار المعارف سنة ١٩٧٢

ابن عبد الحكم ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم القرشى المصرى ت ٢٥٧ هـ

— فتوح مصر وأخبارها طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٣٠ م

العبادى : عبد الحميد العبادى

— المجمل فى تاريخ الاندلس مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ م

العبادى : احمد مختار العبادى

— دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس مطبعة المصرى اسكندرية ١٩٦٨م

على حبيبة دكتور

— مع المسلمين فى الاندلس مكتبة الشباب سنة ١٩٧٢ م

على حمودة دكتور

— تاريخ الاندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى

عنان : محمد عبدالله عنان

— دولة الإسلام فى الاندلس مطبعة الخانجى ١٩٦٠ م

ابن عدارى ابو عبدالله محمد المراكشى

— البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب تحقيق ليفى بروفنسال الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

أبو العرب تميم محمد بن أحمد التميمي القيرواني ت ٣٣٣ هـ
— طبقات علماء إفريقية وتونس تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

غستاف لوبون
— حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر دار أحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٦ م

ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمرت ٣٦٧ هـ
— تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق إبراهيم الإبياري مطبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٨١

ابن الفرضي أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي
— تاريخ علماء الأندلس المكتبة الأندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ .

كارل بروكلمان
— تاريخ الشعوب الإسلامية دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠ م

الكندي أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب
— كتاب الولاة والقضاة مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م

المالكي أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله المالكي
— رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية نشر حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ م

مبارك محمد الهلالي الميلي
— تاريخ الجزائر في القديم والحديث مكتبة النهضة الجزائرية

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي
— النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٢٩

محمد الفاسى

— التعريف بالمغرب طبع معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦١ م

محمود شيت خطاب

— قادة فتح المغرب العربى دار الفتح للطباعة و النشر بيروت ١٩٦٦ م

المراكشى محى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى

— المعجب فى تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد العريان مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٤٩ م

المقدسى شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المعروف بالبشارى

— أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم مطبعة بريل بليدن ١٩٠٦ م

الواقدى أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدى ت ٢٠٧

— فتوح الشام مطبعة الحلبى سنة ١٩٥٤ م

ياقوت شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى البغدادى

— معجم البلدان مطبعة السعادة

اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

— تاريخ اليعقوبى دار صادر بيروت ١٩٦٠ م

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الفصل السابع

للمؤلف

١ - المسلمون فى الفلبين جهادهم ومشكلاتهم — دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٣ م

٢ - أضواء من سيرة محمد ﷺ بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم دار الوفاء للطباعة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢ .

٣ - الخلفاء الراشدون بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم ، دار الوفاء للطباعة سنه ١٩٨١ .

٤ - تاريخ الدولة العباسية وحضارتها مطابع دار الهلال الرياض ١٩٧٨ .

٥ - دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية دار الوفاء ١٩٨٣

٦ - مشكلة مسلمى الفلبين منذ الاحتلال الاسبانى حتى الوقت الحاضر (بحث قدم إلى المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول الذى عقد فى جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض سنة ١٩٨٩)

٧ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مراكز الفكر فى الشرق حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (مجلة كليه العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض العدد الأول ١٩٧٧) من ص ٣٦٧ إلى ص ٣٨٣

٨ - تحليل تاريخى لما يذكره المؤرخون عن موسى بن نصير فى فتح الأندلس (مجلة كليه العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض العدد الثانى سنة ١٩٧٨ من ص ٣٥٠ إلى ص ٣٦٨

٩ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز العسكرية فى المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (مجلة كليه العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميه بالرياض العدد الثالث سنه ١٩٧٩) من ص ١٩١ إلى ٢٠٦

١٠ - الفتح الاسلامى للاندلس دراسة وتحليل) بجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض العدد الرابع سنة ١٩٨٠) من ص ٣٠٣ إلى ٣٣٢ .

١١ - عائد من الفلبين بجلة الأزهر عدد أبريل وأغسطس سنة ١٩٦٦ ، ١٩٦٧

١٢ - مع بعثه الفقهاء إلى شمال إفريقيا بجلة الهدى الاسلامى ليبيا سنة ١٩٧٠

١٣ - المسلمون فى المغرب والأندلس الجزء الأول دار الوفاء للطباعة

١٤ - موقف المجتمع المكى من الدعوة دار الوفاء للطباعة

١٥ - تأثير الأزهر فى الخارج بين الماضى والحاضر ، بجلة الأزهر رمضان ذى الحجه سنه ١٤٠٣ هـ

١٦ - الحياة الفكريه فى القيروان بين التأثر والتأثير حوليه كليه اللغه العربيه سنه ١٩٨٣ .

تحت الطبع :

— الجانب الحضارى لرحلة ابن بطوطه فى جزيرة العرب .

— مواقف مشرقة لعلماء القيروان .



رقم الإيداع بدار الكتب ٨٣/٤٢٥٦